دوستويوفسكي

الله
الأنسان
الحضارة

أعلام الفكر الروسي (١)



المركز اللبنانيّ للأبحاث المجتمعيّة
Lebanese Center for Societal Research

ISBN 978-9953-457-71-9



منشورات
جامعة سيّدة اللويزة



هذا الكتاب هو فاتحة إصدارات عن أعلام الفكر العالميّ، الذين ساهموا، بأدبهم وتطلّعاتهم، في بناء المجتمعات البشريّة على قاعدتي المدنيّة والروح معًا، وقد خُصّص لأديب روسيّ عريق هو دوستويوفسكي.

يتضمّن هذا الكتاب نصوصًا عن حياة دوستويوفسكي، وعن إيمانه وفكره، يتجلّى خلالها هذا الأديب قصصيًّا وشاعرًا وفيلسوفًا، عاش كتاباته، وهو يبحث عن ذاته وعن المجتمع الإنسانيّ في حنايا الروح المتلهّفة إلى المعرفة الصادقة والارتباط الصحيح والعادل بالآخر.

إنّه يتكلّم عن هذا المفكّر الذي جمع، بعبقريّة نادرة، صوت الألوهة إلى صوت البشريّة المنغمسة في هموم الحضارة، في سمفونيّة واحدة هي سمفونيّة الوجود الأنسانيّ الآنيّ في كوكبنا والحضور الإلهيّ الأزليّ في الكون.

دوستويوفسكي

الله الأنسان والحضارة

ندوة دوليّة حول دوستويفسكي (٢٠٠٧: زوق مصبح)
دوستويفسكي: الله الانسان والحضارة: ندوة دوليّة في ١٢ أيّار ٢٠٠٧ / جامعة سيّدة اللويزة – زوق مصبح؛
بإدارة وإشراف عبدو القاعي وسهيل فرح؛ [تحرير، جورج مغامس]. -- ط. ١
ص. سم. – (المركز اللبنانيّ للأبحاث المجتمعيّة؛ ٧)
النص بالعربيّة والإنكليزيّة والروسيّة.
بيليوغرافيا: ص. ٧٩.
المحور الأول: أسئلة الدين والحضارة في أدب دوستويفسكي: دوستويفسكي والأرثوذوكسيّة / فاليري ألكسييف --- دوستويفسكي وفكرة روسيا / سهيل فرح --- دوستويفسكي وروحانيّة روسيا / نيكيتا ستروفه --- سؤال الطفولة عند دوستويفسكي: مقتطفات من روايتي الأبله والأخوة كارامازوف --- المحور الثاني: مختارات من أعمال دوستويفسكي: المفتش الكبير – من رواية «الإخوة كارامازوف» --- الحلم المهادن خارج العلم – من «يوميّات كاتب» --- خواطر من – من رواية حياة وتعاليم الراهب زوسيما الأكبر «الإخوة كارامازوف» --- أحاديث مع صديق قديم للّه – من رواية «المراهق» --- الفهم الطوباوي للتاريخ – من «يوميّات كاتب» --- Post scriptum – من «يوميّات كاتب» --- بوشكين – من «يوميّات كاتب».
978-9-953-45771-9 (pbk.)
١. دوستويفسكي، فيودور --- ١٨٢١-١٨٨١ --- مؤتمرات. ٢. دوستويفسكي، فيودور --- ١٨٢١-١٨٨١ --- نقد وتأويل --- مؤتمرات ٣. الفكر الديني --- روسيا --- مؤتمرات. ٤. الطفولة في الادب --- مؤتمرات.
I. العنوان. II. جامعة سيّدة اللويزة. III. قاعي، عبدو. IV. فرح، سهيل. V. مغامس، جورج، ١٩٤٩–.
dc22--891.733

دوستويوفسكي

الله الأنسان والحضارة

تحرير جورج مغامس
منشورات جامعة سيّدة اللويزة © - الحقوق محفوظة
ص.ب.: ٧٢ زوق مكايل - لبنان
تلفاكس: ٠٩/٢١٤٢٠٥
www.ndu.edu.lb
الطّبعة الأولى ٢٠٠٨
القياس ١٧×٢٤ سم
تنفيذ مطابع معوشي وزكريّا

ISBN 978-9953-457-71-9

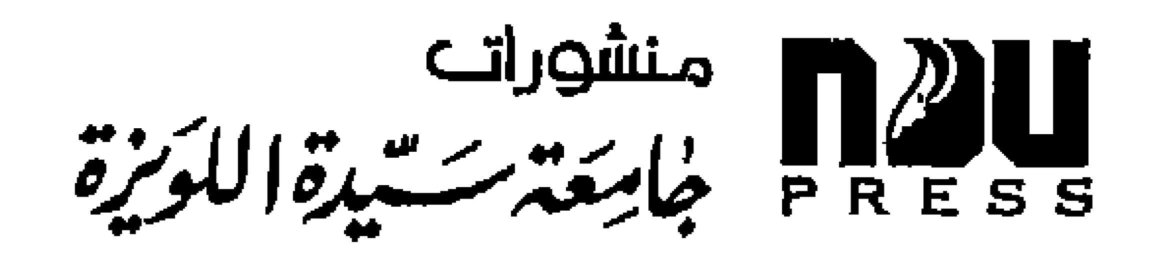
دوستويوفسكي

الله الأنسان والحضارة

جامعة سيّدة اللويزة – زوق مصبح
ندوة دولية في ١٢ أيّار ٢٠٠٧

إعداد وتقديم د. سهيل فرح

إدارة وإشراف عبدو القاعي وسهيل فرح



الجلسة الافتتاحيّة

تقديم:	د. سهيل فرح
د. طارق متري	وزير الثقافة اللبنانية ألقتها ممثّلته الدكتورة مارلين كنعان
ألأب وليد موسى	رئيس جامعة سيّدة اللويزة
المطران جورج خضر	رئيس البيت اللبنانيّ الروسيّ
الأرشمندريت ألكسندر	ممثل قداسة بطريرك موسكو والروسيا في بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم أللأرثوذكس
د. عبدو قاعي	منسق المركز اللبناني للأبحاث المجتمعية في جامعة سيدة اللويزة

المحور الأوّل

أسئلة الدين والحضارة في أدب دوستويوفسكي

فاليري ألكسييف:	دوستويوفسكي والأرثوذكسيّة
سهيل فرح:	دوستويوفسكي وفكرة روسيا
نيكيتا ستروفه:	دوستويوفسكي وروحانيّة روسيا
يوسف يعقوب:	سؤال الطفولة عند دوستويوفسكي: مقتطفات من روايتي الأبله والأخوة كارامازوف

المحور الثاني

مختارات من أعمال دوستويوفسكي

المفتّش الكبير – من رواية «الأخوة كارامازوف».

الحلم المهادن خارج العلم – من «يوميّات كاتب»

خواطر من حياة وتعاليم الراهب زوسيما الأكبر – من رواية «الأخوة كارامازوف»

أحاديث مع صديق قديم لله – من رواية «المراهق»

الفهم الطوباويّ للتاريخ – من «يوميّات كاتب»

Post Scriptum – من «يوميّات كاتب»

بوشكين – من «يوميّات كاتب»

د. سهيل فرح

المقدمة

رغم مضيّ أكثر من ١٢٧ سنة على رحيل دوستويوفسكي عن هذه الدنيا، فإنّ أعماله ما زالت تحتلّ مكانة عميقة في ثقافة العين والأذن وثقافة مكامن الروح عند كلّ قارئ متذوّق للإبداع ومتعلّق بالقيم.

دوستويوفسكي الذي يعتبر عن حقّ الأب الروحيّ لكتابة الرواية السيكولوجيّة المعاصرة كان هاجسه الأساسيّ البحث عن العوالم الداخليّة للإنسان. ففي رسالة كتبها الروائيّ إلى أخيه في ١٦ آب ١٨٣٩ يقول «الإنسان بحاجة إلى كشف مستمرّ له، وإذا بقيت تحاول كشفه لا يعني بأنّك أضعت وقتك. فأنا دائم الانشغال بهذا السرّ، لأنّني أريد أن أكون إنسانًا».

فدوستويوفسكي الإنسان انتمى إلى أسرة روسيّة تعايش في كلّ جيل من أجيالها الخير والشرّ معًا، الماديّ والروحيّ، الطاعة والرفض، المحبّة والكراهية. ودوستويوفسكي المراهق والشاب والكهل عاش تجربة الإيمان العميق والتمرّد الثوريّ، ذاق طعم الخطيئة والفضيلة معًا، كان شديد التعلّق بالبعد الروحيّ والجماليّ للشخصيّة الإنسانيّة. وكان محقًا الكاتب الفرنسيّ هنري ترويا عندما تناول في كتاب مستقلّ حياة دوستويوفسكي وأعماله، حيث قدّم صورة أقرب إلى الشموليّة في توصيف شخصيّة ودوستويوفسكي بقوله: «إن كان قد استطاع أن يبيّن ويبرهن هذا القدر من العبقريّة والنبوغ، فذلك لأنّه كان يأوي في داخله، بل في قرارة نفسه، جميع عوامل الضعف وجميع عوامل الجمال لدى الإنسان».

بيد أنّ السؤال الملحّ الذي يفرض نفسه هو حول ماهيّة ذاك السرّ الأزليّ الذي جعل ويجعل من دوستويوفسكي رسول الأدب الروحانيّ المسيحيّ الأكثر كثافة في العالم، والذي بتركيزه على الجماليّات الإنسانيّة جعله يحتلّ المكانة المرموقة لدى كلّ القرّاء المنتمين إلى أديان وحضارات متنوّعة ؟ أغلب الظنّ أنّ هذا الروائيّ الذي يعتبر «الدليل أو المرشد الروحانيّ لروسيا» كما وصفه الفيلسوف سولوفيوف، كان سرّه الأزليّ لا يكمن

فقط في موهبته الفذّة التي استقت مصادرها من عالم مخيّلته الفنيّة الخلاّقة وحكمة فلسفته الحياتيّة ونفاذ بصيرته في الغور من المكامن السيكولوجيّة للسلوكيّة البشريّة، بل إنّ السرّ يكمن بأنّ هذه الموهبة الأدبيّة استطاعت بفرادة قلّ نظيرها بين أدباء العالم أن تتناول بنورانيّة متّسعة الجوانب الأكثر خلوديّة في حياة الإنسان وهي حضور الله في حياته. فالله والشيطان حسب قوله يتصارعان دائمًا على السيادة، وأرض المعركة هو قلوب البشر، وهما اللذان يشكّلان العنوان الأساسيّ لبعدي الخير والشر في الشخصيّة الانسانيّة. ودوستويوفسكي الذي حسم أمره بعد تجارب طويلة ومريرة وانحاز إلى الجماليّ الروحيّ، إلى رحاب الألوهة التي تتجسّد فيها كلّ قيم الخير والمحبّة والعدالة بأرقى معانيها، استطاع بمهارة وبكثافة روحانيّة أن يعكس على لسان أبطاله وشخصيّاته هذا الجمال. والسرّ الثاني الكبير في استمراريّة الاهتمام بإبداعات دوستويوفسكي هو تمكّنه من الكشف العميق عن أسباب الغربة والقلق وتصحّر القيم التي جاءت بها حضارة الإنسان المعاصرة.

لقد تذوّق دوستويوفسكي علوم عصره وفلسفاتها، وتعرّف بشكل واسع على ثقافات الغرب والشرق. عاش في عصر شهد طفرة علميّة ومعرفيّة وضعيّة وملحدة، أرادت أن تؤكّد بأن عصر الروحانيّات قد ولّى، وأنّ لا مكانة إلاّ للعلم المحض وللنزعة الفردانيّة والبراغماتيّة، وللإدارة الماديّة والتقنية المعقلنة لشؤون الدنيا. فرغم تأثّره بإنجازات عصره العقلانيّة والعلميّة، إلاّ أنّه لم يكن مرتاحًا من مخاطر هذا التيّار الزاحف على منطقة القيم في الحضارة الإنسانيّة. ذكر قراءه بكوارث انفلات النزعة العلمويّة والاقتصاديّة وإدارة السياسة وفبركة الوعي والسلوك ومن البعد عن التناغم مع الأخلاق والجماليّات والروحانيّات. فلسفات عصره حول الفردانيّة والحريّة والسلطة والمعرفة والقوّة لم تكن تروق له، لأنّه كان يجد فيها معابر ستؤدّي حتمًا إلى الارتماء في حضن حضارة «الشهوة» وإلى النكوص النرجسيّ في الأنانيّة الفرديّة، والتعطّش الأعمى للسلطة والقوّة والمال، وبالتالي إلى الغرق في غياهب الضياع والولوج في عتمات الشرّ.

فلسفة الحريّة التي آمن بها دوستويوفسكي وكتب عنها الكثير، ملخّصها هو الاهتداء بالإنسان للتواصل والتناغم والاتّحاد بين الحريّتين الإنسانيّة والإلهيّة.

لا حريّة لإنسان «دوستويوفسكي» ما لم يتحرّر من فكرة «الإنسان القبو« المضطرب، التائه، الخائف، الخاطئ، الرافض للحقيقة الكونيّة والإلهيّة.

فبعد أن انفصل الإنسان عن أمّه الطبيعة، وطرح مقولة «ضرورة السيطرة على قوانين الطبيعة من أجل السيطرة عليها»، وبعد أن تفكّكت الروح الجماعيّة الإنسانيّة وأغرقت في التطرّف الأنانيّ والفردانيّ، وبعد أن دخلت الذات الإنسانيّة «مرحلة الحضارة» أدخل الإنسان على نفسه شحنات واسعة من التوتّر والقلق، وبالتالي دخل ما أسماه دوستويوفسكي في مناخ «إنسان القبو» المعذّب، المتناقض، المتوتّر النفس والأخلاق وفاقد التحكّم «ببوصلة» الوجود.

مؤلّفاته «الفقراء»، «الجريمة والعقاب»، «الأبله»، «المراهق»، «يوميّات كاتب»، «الأخوة كارامازوف» وغيرها تصوّر حالة الإنسان المفكّك، المتمرّد، المعذّب، الذي يدعو إلى تغيير العالم ناسيًا أو متناسيًا بأنّ نقطة «البداية»، نقطة «الأوميغا» هي تغيير عالمه الصغير نفسه. فالمسؤوليّة عن حالة العالم والحضارة تتمثّل عند دوستويوفسكي في مناخ النشاط الأخلاقيّ والروحانيّ والجماليّ، في مناخ الأقوال والأفعال الخيّرة. وعمليّة إحياء الحضارة الإنسانيّة وتجدّدها لا تكمن في الانزواء في «قبو» الفردانيّة، في الاستسلام على حدّ قوله إلى نمطين من البشر: «النمط النابوليوني» و«نمط المخلوقات المرتجفة«، اللذين يهدفان وكلٌّ على طريقته للانقضاض على السلطة وللسيطرة على مقدّرات البشر والحضارة الإنسانيّة. إحياء الخير في الإنسان وإحياء الأمل في حضارته تتمثّل، وبكل بساطة عند دوستويوفسكي، بالمقولة اليسوعيّة «أحبّ الآخرين، كما تحبّ نفسك». المحبّة الصافية هي نتيجة تفاعليّة لعلاقة صحيّة بين حكمة العقل وكيمياء القلب. ولا يمكن أن تستقيم حضارة الإنسان ما لم ينتبه إلى الجانب النورانيّ والروحانيّ فيها، وما لم يتق الإنسان إلى سموّ الألوهيّة. على هذه الدرب يتخلّص الإنسان من خطايا دنياه وعتمات سلوكيّاته، لأنّه يكون قد أعطى للطاقة النورانيّة في داخله المجال للنموّ وللإقتراب من الحقيقة الأسمى والأكثر خلوديّة في الحياة.

وهذا الكتاب الذي يغطّي أعمال الندوة التي أُجريت في رحاب جامعة سيّدة اللويزة في لبنان في أواسط ربيع ٢٠٠٧، والتي أشرف على تنظيمها كلّ من المركز اللبنانيّ للأبحاث المجتمعيّة والبيت اللبنانيّ – الروسيّ بالتعاون مع المركز الثقافيّ الروسيّ في لبنان، يتضمّن بين جنباته كتابات مجموعة من الفعاليّات الأكاديميّة والروحيّة التي جاءت لتعكس تعلّق الذات المفكّرة المشرقيّة والروسيّة بأدب دوستويوفسكي وفكره وروحانيّته. قام كتّاب هذا المؤلَّف بتسليط الأضواء على توصيف دوستويوفسكي للجوانب المشرقة والمعتّمة في الشخصيّة الإنسانيّة. تناولوا بعين معاصرة نقاط النكوص والإحباط، والهزيمة والانتصار،

في فلسفة دوستويوفسكي الحضاريّة. تطلّع كلّ مساهم في الندوة إلى أعمال ذاك «الجوهرجي» دوستويوفسكي، ذاك المبدع صاحب القول الشهير بأنّ «الجمال ينقذ العالم». وحاول كلّ منهم أن يسلّط الأضواء على هذا الجانب المشعّ أو ذاك من «لؤلؤة» أعماله.

فالكلمات التي ألقاها كلّ من الدكتورة مارلين كنعان ممثّلة وزير الثقافة اللبنانيّة الدكتور طارق متري والأب الدكتور وليد موسى رئيس جامعة سيدّة اللويزة، والمتروبوليت جورج خضر رئيس البيت اللبنانيّ – الروسيّ، والأرشمندريت ألكسندر ممثّلًا بطريرك موسكو وسائر الروسيا ألكسي الثاني، ومنسّق المركز اللبنانيّ للأبحاث المجتمعيّة عبدو القاعي، كلّ هذه الكلمات الدافئة المتعطّشة لخلوديّة الإله والإبداع، أرادت أن تشارك القارئ في مأدبة الطعام الروحيّ المتنوّع العطاءات المسيحيّة والإنسانيّة، والتي أرادت أن تتحلّق حول عنوان المأدبة أي إشراقات الكلمة الدوستويوفسكيّة.

كما أنّ مساهمات الأكاديميين الروس والفرنسيين واللبنانيين، أمثال ألكسييف وستروفه وفرح وقربان ويعقوب، تمكّنت، بيقظة فكر وجماليّة أسلوب وعمق تحليل، أن تسلّط الأضواء على «اللؤلؤة» الدوستويوفسكيّة، فبدت هذه اللؤلؤة من خلال مقارباتهم أكثر لمعانًا وجاذبيّة ورغبة في الرجوع إلى كتابات صاحبها.

ولقد ارتأينا أنّ من الأهمية بمكان أن نخصّص في هذا الكتاب قسمًا خاصًّا لسيّد «المأدبة الروحيّة» و«لؤلؤتها» دوستويوفسكي، من خلال اختيار عدد من أعماله التي قد لا يكون القارئ العربيّ على معرفة كافية بها. هذه الأعمال التي نشرت في لغتها الأصليّة الروسيّة في «يوميّات كاتب» و«الأخوة كارامازوف» وقام بترجمتها مشكورين عدد من المترجمين العرب الذين اختار البعض منهم أن يذكر اسمه وفضّل البعض الآخر عدم ذكره، والتي فضّلنا نشرها فقط في اللغة العربيّة، هي بمجملها تأتي لتعطي صورة أوسع عن أفكار دوستويوفسكي حول مفهوم الألوهة وحضور الله في حضارة الإنسان.

كلّ الأمل أن تفتح هذه الكلمات شهيّة القارئ للاقتراب من مأدبة ولؤلؤة دوستويوفسكي الواسعة الغنى بالروحانيّات والجماليّات.

وفي الختام لايسعني إلاّ أن أتقدّم بخالص الشكر لرئيس جامعة سيّدة اللويزة ولإدارة الجامعة وبالأخصّ المركز اللبنانيّ للأبحاث المجتمعيّة، ولكلّ من وزارة الثقافة اللبنانيّة والبيت اللبنانيّ الروسيّ، هؤلاء الذين بتقديمهم الدعم المعنويّ والماديّ لمثل هكذا

ندوات دوليّة، لا يرفعون فحسب من المكانة العلميّة والثقافيّة للجامعة وللمؤسّسات التي ينشطون بها، على المستوى اللبنانيّ والعالميّ، بل إنّهم يؤكّدون للعالم بأنّ هذا اللبنان ما يزال حيًّا متوقّد الاستعداد والحماس ليكون كما كان في مجمل تاريخه الطويل جسرلقاء وطيدًا بين حضارات الغرب والشرق.

كلمة شكر خاصّة للمفكّرين والمترجمين والمحرّرين، ولكلّ من السفارة الروسيّة في لبنان والمركز الثقافيّ الروسيّ في بيروت وللمنظّمة الدوليّة لوحدة الشعوب الأرثوذكسيّة، هؤلاء الذين أسهموا بدورهم في إنجاح هذه الندوة، التي نأمل بأن تكون فاتحة واعدة لنشاطات علميّة وثقافيّة تسلّط الضوء على كنوز الفكر والعلم في المدى الروسيّ والعربيّ والدوليّ.

بيروت – موسكو، شتاء ٢٠٠٧– ٢٠٠٨

د. مارلين كنعان

ممثّلةً وزير الثقافة اللبنانية د. طارق متري

يشرّفني أن أفتتح ندوتكم «أسئلة الدين والحضارة في أدب دوستويوفسكي»، عبقريّ روسيا الأكبر، وأن أحمل إليكم تمنيّات معالي وزير الثقافة الدكتور طارق متري بنجاح ندوتكم؛ ولقد طلب إليّ أن أضمّ إلى هذه التمنيّات إعرابه عن تعلّقه الشديد بأدب دوستويوفسكي وبالبلد الذي قدم منه، عنيت روسيا المقدّسة أبدًا.

لقد دعانا هذا الروائيّ العظيم منذ أواسط القرن التاسع عشر أن نرى سرّ العالم ممثّلًا في روسيا، وأن نتحسّس من خلال ذلك البلد الإنسان بجميع مشاكله ومواجده في صراعه مع الحياة، خاصّة صراعه ما بين الإيمان والتفلّت.

ولعلّ دوستويوفسكي، ومنذ ذلك التاريخ، وعى أنّ خلاص بلاده لا يكون إلاّ باستعادة ذلك الوجه الروحيّ الذي أعطاها ماهيّتها ومبرّر وجودها ومؤدّى مصيرها في انتساب صريح إلى الماضيات.

فروسيا التي أخذت من سهولها المنبسطة اتّساع رؤاها ومن هامات جبالها عنفوانها، والتي اقتبلت المسيحيّة المستقيمة منذ ألف ونيّف، قد أعطت المسكونة عددًا من الأعلام العظام في الثقافة والإبداع الفكريّ والأدبيّ والموسيقيّ، وعلى رأس هذه كلّها الرواية.

وممّا لا ريب فيه، أنّ ذروة إبداعات روسيا الحضاريّة والأدبيّة قد تجلّت في كبير روائيّيها فيودور دوستويوفسكي.

هذا المهندس الذي ترهّب للكتابة الروائيّة الواقعيّة قد أصدر كتابه الأوّل بعنوان «الفقراء» سنة ١٨٤٤. وقد عرف ذلك الكتاب نجاحًا باهرًا لفت إليه آنذاك كبار شعراء العصر ونقّادهم ومفكّريهم أمثال الشاعر نيكراسوف والناقد الأدبيّ بيلينسكي...

بدأ صاحب الفقراء هذا يتردّد منذ عام ١٨٤٧ على حلقة المفكّر الاشتراكيّ الطوباويّ بيترشيفسكي، ما سبّب له الاعتقال والنفي إلى سيبيريا.

لقد جعل دوستويوفسكي من منفاه مكانًا له لمشاطرة المهانين والمسحوقين والمعذّبين، وبدأ يتغلغل أكثر فأكثر في دهاليز النفس البشريّة التي أصبحت العلامة الفارقة لمؤلّفاته اللاحقة؛ كأن يقول مثلًا في إحدى رسائله: «لم أضيّع وقتي في منفاي، بل تعلّمت أن أعرف الشعب الروسيّ جيّدًا، ربّما كما لم يعرفه أحد».

استغلّ دوستويوفسكي خبرته الجديدة هذه ليفجّر من خلالها قدراته الروحيّة والسيكولوجيّة والكتابيّة منفتحًا أكثر فأكثر على روسيا شعبًا وقياصرة ودينًا أرثوذكسيًّا وطرق حياة.

كان يدخل إلى النفس، إلى سحيق جحيمها وجحيمه هو أيضًا، فلا يجد مثل المسيح نافذة على الحقّ والحريّة والعزاء، إذ أنّ موروث إيمانه المتجدّد أصبح سراجه في الوجود وزاده طاقةً على الخلق والإبداع.

إيمانه المسيحيّ هذا، النابع من تحسّسه لعذابات الناس، شكّل منعطفًا في حياته ككاتب. إنّه في أصل كلّ روائعه انطلاقًا من «الجريمة والعقاب»، مرورًا «بالأبله»، و»الشياطين»، ورائعته العالميّة «الأخوة كرامازوف» التي نشرها وهو في الستّين من عمره، ولا عجب في أنه شاء أن يكتب عن «بوشكين» شاعر روسيا الأكبر ومتحسّس آلامها ليجعل منه بطلًا قوميًّا.

وإن ننسَ لن ننسى تأثير دوستويوفسكي في تيّار الوجوديّة في الغرب الأوروبيّ، وتأثيره على الفيلسوف الألمانيّ نيتشه الذي اعتبر دوستويوفسكي مصدر الأدب السيكولوجيّ على الاطلاق.

حقٌّ لدوستويوفسكي على كلّ ذي بصيرة في العالم، أن يستمدّ من مواقفه وأفكاره الكثير الكثير عن حقيقة الإنسان، خاصّة في دخيلة أمره، وأن ينهل من معين كتاباته الذي أثبت حتّى اليوم، بعد مضي ما يزيد على القرن ونصف القرن، أنّه ما زال غزيرًا.

ولبنان، المنفتح على كلّ الثقافات والحضارات، لن ينسى إسهام روسيا في الحضارة الإنسانيّة الأرحب؛ ولن ينسى على وجه الخصوص دوستويوفسكي الذي يشارك لبنان ذلك الهُيام بالله وبالمسيح وبالحريّة التي أساسها الإيمان.

ولئنّ ابتلى هذا البلد الصغير بحروبه البشعة، فإنّ نتاجه الفكريّ وحيويّة أبنائه سوف تعينه على استعادة بريقه الثقافيّ، وفي شخصيّات دوستويوفسكي كزوسيما الشيخ الروحانيّ والأمير ميشكين، ما يؤكّد للبنان أنّ عذاباته لن تذهب سدىً.

شكرًا للمركز الثقافيّ الروسيّ، وللبيت اللبنانيّ الروسيّ، ولجامعة سيّدة اللويزة ولكلّ المشاركين في هذه الندوة؛ علّهم عبر نشاطهم هذا، يساهمون كما كلّ العاملين في الشأن الأكاديميّ والفكريّ في إعادة لبنان إلى الخريطة الثقافيّة العالميّة.

وحدها العلوم والثقافة تُنضج الشعوب، وتُدخلها في طريق التقدّم والرقيّ.

الأب وليد موسى

رئيس جامعة سيدة اللويزة

أيُّها الأصدقاء،

ليس عجبًا أن تستضيف جامعة سيّدة اللويزة ندوة بعنوان: أسئلة الدين والحضارة في أدب فيودور دوستويوفسكي، هذا الروسيّ الذي نحتفل بمرور ماية وخمسة وعشرين سنة على وفاته.

وليس عجبًا أت تتردّد أصداء اسم هذا الرجل العظيم بين جدران هذه الجامعة الكاثوليكيّة، وأن ترنّ أنغامه في آذان المنتمين إليها، وأن يتلفّظوا حروفه بوجلٍ واحترام.

وليس عجبًا أن نجتمع سويّة لنقوم بقراءة للواقع الاجتماعيّ اللبنانيّ الحاليّ على ضوء البرنامج الإنسانيّ الخاصّ الذي يعمل دوستويوفسكي على وضعه.

لقد قال أحدهم أنّه «عندما تقرأ دوستويوفسكي تلتقي به فيلسوفًا دينيًّا، محلّلًا سياسيًّا، عالمًا نفسانيًّا، إلى جانب كونه كاتبًا أدبيًّا». وها أنتم اليوم، أيّها الباحثون، تتكلّمون في هذه المحاور وتعالجون قضاياها. أسئلة الدين، والأنا والآخر، والحضارة ومخاضاتها النفسيّة والوجوديّة، في أدب دوستويوفسكي؛ أسئلة تودّون أيّها العارفون الجواب عليها، ونحن نعوّل على جهدكم الدؤوب وفكركم النيّر.

صحيح أنّ كاتبنا لم يكن ليدخل الكنيسة، ولا كان الكهنة يروقون له، ولكنّه كان يخاف الله، الذي من دونه كلّ شيء مباح، وكان يحمل للمسيح تقديرًا عميقًا في كلامه. لقد حافظ على كتاب الأناجيل، الكتاب الذي لم يفارقه أبدًا في سجنه، حتّى آخر يوم في حياته. وفي هذا السياق، كان يؤمن «أنّ قلب الإنسان هو ساحة المعركة بين الله والشيطان»، وأنّ «هناك أمور يخاف المرء من أن يقولها حتّى لنفسه، ولدى كلّ إنسان محترم عدد من هذه الأمور يختزنها في ذهنه».

من جهة ثانية، لقد شغلت قضيّة الأنانيّة بال دوستويوفسكي في نهاية الأربعينات من القرن التاسع عشر. وفي «مذلّون مهانون» عاد إلى موضوع نقد التبرير الفرديّ للذات وطموحاتها المغرضة، فنراه يسعى جاهدًا إلى حلّ هذه المشكلة الأخلاقيّة الاجتماعيّة الرئيسيّة. وكأنّ هذا العالم الاجتماعيّ يكتب عن واقع لا يحدّه مكان ولا يختصره زمان.

وكأنّه يعيش معاناة وطني لبنان، حيث الطموحات الشخصيّة المغرضة تستبيح قدسيّات الإنسان وقيمه.

وهو الذي «لا يطيق المجالات الضيّقة والصغيرة لأنّها تضيّق الخناق على الأفكار نفسها»، نراه في تفتيش دائم عن آفق واسعة، قائلًا: «ما أعجب ما يستطيع أن يفعله في نفس إنسان شعاع من شمس». ويدعو باستمرار للتحلّي بالرجاء إذ إنّ «العيش من دون رجاء هو توقّف عن الحياة». وكم نحن اليوم في لبنان بحاجة لكي نتعلّم كيف نخرج من التقوقع على الذات ومن الانغلاق في حجم الفئويّة، ونعمل بجهد في سبيل الانفتاح على الآخر والتشارك معه في أمور الحياة والوطن؛ وكم نحن بحاجة اليوم أيضًا لكي نفتح قلوبنا لشعاع من شمس محبّة الله يعمل فينا ومن خلالنا؛ وكم نحن بحاجة إلى فسحة رجاء.

أيُّها الأصدقاء،

اسمحوا لي أن أشكر حضوركم الكريم، وأن أثني على جهود البيت اللبنانيّ الروسيّ، والمركز الثقافيّ الروسيّ في لبنان، والمركز اللبنانيّ للأبحاث المجتمعيّة في جامعة سيّدة اللويزة، وكلّ من ساهم في التحضير لهذا اللقاء، متمنيًّا لكم التقدّم في عملكم والنجاح في ندوتكم.

المطران جورج خضر

رئيس البيت اللبناني الروسي

دوستويفسكي حامل المسيح، كما يقرأه الشعب الروسيّ من هذه الزاوية، كان لسان حال الأمّة الروسيّة المقدّسة ورسولًا للمهانين والمُعتدى والمُساء إليهم. والقصّة التي تحمل هذا العنوان محدودة في كلّ ذات، وهي تقول هنا أنّه عرف القلب البشريّ في ذروة طهارته وفي قاع قذاراته، وما صوّرت المعصية في قباحتها عنده إلاّ لينكشف وجه الله في سطوع كلّ مجده.

هو كاتب قصّة، والقصّة ليست سيرة قدّيسين ولا وصفًا لمعاصٍ. إنّه، بغية تصوير الإنسان في أدب، يحتاج إلى هذا التصادم بين جلال الله وقباحة الشيطان المتصادمين في القلب البشريّ، ونرى هذا واضحًا في الإخوة كرامازوف.

غير أنّ الألوهة عند صاحبنا غالبة في النهاية على الأبلسيّة، ليس فقط في المطلق به، ولكن في النفس البشريّة هنا على الأرض. وقد ترتدي الأبلسيّة صورة الوظيفة النورانيّة كما في المفتّش الأكبر، ويوهمك صاحب الوظيفة الإلهيّة بأنّه على حقّ، إذ يغريك بالخبز، والحاجة الواحدة هي الحريّة. والخدعة الكبرى هي عند الملحدين والمعدمين، ويصفهم دوستويفسكي بتلك الدقّة التي تشعرك بأنّه واحد منهم، ولكنّ هذه هي لعبة القاصّ المسيحيّ الذي ينزل إلى الجحيم كما نزل المسيح إليها ورفع الهاوين فيها بنور قيامته.

دوستويفسكي يبدو أنّه يحكي حكايا هذا العالم، ولكنّها خدعة إن عرفت أن تقرأ. القدّيسون هم أعظم من تحدّث عن المعاصي، لأنّهم عرفوا خبث أفعالهم إذ قابلوها بالحقّ الذي كانوا يختبرون. ولكنّ دوستويفسكي ورث نورانيّة كنيسته وفصْحيّتها وغُلبتها على الموت، فينزل وينزل حتّى تصدّق أنّه يعرف بشاعة القلب البشريّ، ثمّ يصعدك من أسافل الأرض وتحسّ أنّك تطوف لتستقرّ في سماء لا يسوغ النطق بكلماتها.

الكاتب يعرف قياميّته من خلال الأدب الشامل للبهاء الإلهيّ في الناس ولقيامتهم. يتكلّم آباؤنا عن تماسك الفضائل والرذائل فيما بينها. دوستويفسكي ليس على هذا لأنّه

واصفٌ للواقع الذي فيه تراكم لهذه وتلك في نفس بشريّة واحدة. وللكهنوت على طريقته أو لتبصر الحقّ. ولهذا قال أسقف صربيّ عنه أنّه أب من آباء الكنيسة، يختلف عنهم بالأسلوب لا بالعمق. إنّه يدفع الإثم بالنعمة ولكنّه لا يقوم بهذا إلاّ بعد أن يسود الإثم في عينيك فتطهر.

الله في الإنسان بديع قلبه إذ كيف يقول مجرم غارق في المعاصي لصاحبته الغارقة في المعاصي: «تعالي نسافر إلى سيبيريا لنوزّع الإنجيل على... من عرف الأدب النسكيّ عندنا لا يتعجّب للرقّة والحنان القائمين في الأبرار، ولكن أن يقوما في العصاة في انقضاض النعمة فهذا أمر تربّى عليه دوستويوفسكي ليتراءى لك.

لعلّ هذا عطف الله على روسيا. هذا ليس سجلّها في جليدها أو في سهولها، ولكن في شعبها ومنه المشرّدون والسكارى. وإذا أقمنا ذكرى دوستويوفسكي اليوم نكون دخلنا قلب روسيا ورفعنا راية روحها وفكرها. ذلك لأنّ الروائيّ الكبير أدرك عبقريّة شعبه وترجمها بأروع... بما فيه وفيها من عمقٍ وبيان الإحساس المسيحيّ الملتهب حبًّا بالملتاعين في إنسانيّة جدّدها وجلاّها جمالًا لنتوقها بهروبنا من الظلمات إلى نور إلهيّ عجيب. نفس دوستويوفسكي المستنيرة أمسكت بنا لنسير في الضياء.

Приветствие Святейшего Патриарха Московского и Всея Руси АЛЕКСИЯ II

На семинаре присутствовал представитель Патриарха Московского и Всея Руси при Антиохийской Патриархии Архимандрит Александр (Елисов) и произнес приветствие Святейшего Патриарха АЛЕКСИЯ II:

Дорогие профессора и участники семинара «Вопросы религии и цивилизации в творчестве Ф.М.Достоевского». Позвольте, прежде всего, передать вам благословение и приветствие от Святейшего Патриарха Московского и всея Руси АЛЕКСИЯ II, который желает благоуспешных и плодотворных трудов вашего семинара.

Творчество величайшего русского писателя Ф.М.Достоевского уникально тем, что в нем запечатлены личные духовно-философские искания и опыт автора, чья жизнь была несением крестной ноши и поистине трагически выстраданной. Но именно это привело его к духовному прозрению и к обращению от радикальных революционных идей к вечной Христовой Истине, которую он стремился раскрыть своим современникам в бессмертных произведениях, уберегая их от опасности попыток преобразования действительности без Бога и Его нравственного закона. В романе «Бесы» Достоевский раскрыл весь трагизм революционных потрясений, хотя голос его не был услышан в полной мере. После чего в России разразилась кровавая трагедия в начале прошлого столетия, однако многие продолжали слышать его голос, предупреждающий об ошибочности устройства общества без божественных установлений. Именно благодаря своим романам с глубоким анализом духовных проявлений человеческого бытия Достоевский стал учителем духовности для советской культурной среды. Для многих поколений советских людей произведения Достоевского оставались глотком свежего воздуха в затхлой и удушающей атмосфере «советского образа жизни», атмосфере богоборчества и отсутствия духовного идеала.

Сегодня мы являемся свидетелями возрождения Русской Православной Церкви, восстановления из руин некогда порушенных храмов, духовного образования, социального служения Русской Православной Церкви и ее возвращения во все сферы жизнедеятельности общества. В мае месяце Богу содействующее произойдет эпохальное событие – восстановление некогда утраченного в результате революционных потрясений единства Русской Православной Церкви и Русской Православной Церкви за рубежом.. Несомненно, творчество Ф.М.Достоевского является одним из камней в основании этого возрождения. Сегодня он как никогда современен, ибо через Россию свидетельствует всему миру о неистребимости духовных начал в бытии человека, о незыблемости божественного закона в устройстве человеческого общества.

عبدو القاعي

منسق «المركز اللبناني للأبحاث المجتمعية»

دوستويوفسكي الذي علّمني كيف أبحث عن روحيّة المجتمع اللبنانيّ، هو ابن إقطاعيّ من الاقطاعيّين الذين تحكّموا بالشعب الروسيّ بطغيان سلطتهم، فقُتل على يد أحد الفلاّحين الذين استعبدهم حتّى القهر الكامل.

ولد فيودر دوستويوفسكي سنة ١٨٢١ في مدينة Petersbourg، وترعرع في بيت أبيه، فكان أوّل المتأثّرين سلبًا من طغيانه. وقد دفع فيه تأثُّره هذا إلى حبٍّ المغامرة من أجل تحرير نفسه من رغبات السيطرة على الآخرين، وبخاصّة الضعفاء، ومن أجل العمل الفكريّ والسياسيّ سعيًا لتوفير الشروط الليبيراليّة اللازمة للتحرّر الشعبيّ في بلده الحبيب روسيا.

في هذا المناخ المفعم بالتناقضات النفسيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، نشأ دوستويوفسكي وتفتّحت نفسه الثائرة على الإقطاع والطغيان، فنذر ذاته لمكافحتهما. وإذا بقريحته تنفتح على هدي صديقيه Vissarion Grigorievitch Belinsky، الكاتب والناقد الروسيّ الذي أدخل فنّ الوصف الواقعيّ إلى الأدب الروسيّ، وNicolai Nekrossov، الشاعر ذي النَفَس الليبيراليّ الذي انطبعت بأصداء وحيه الحركات الليبيراليّة التحرّريّة في زمنه وفي ما بعد...

وبناءً على ذلك، راح قلم دوستويوفسكي يسيل حبرًا يحمل في موشّحات لونه القاتم علامات الآلام والأوجاع التي يعاني منها، هو والشعب الروسيّ، في تلك الحقبة من تاريخ روسيا، فكانت كتبه الأولى، المفعمة بحرارة الناقد المتوجّع وبأسارير الأديب الباسط لانطباعاته مشاهد خلاّبة بدقّة واقعيّتها وقوّةإيحاءاتها. وأهمّ هذه الكتب التي صدرت بين سنوات ١٨٤٦ و١٨٤٨: Les Pauvres Gens: La logeuse: Les Nuits Blanches.

وحيث أنّ هذه الكتب لم تلقَ الرواج المنتظر، شعر دوستويوفسكي بأنّ الكلمة لا تكفي لمواجهة الواقع المؤلم الذي كان يعيشه، فانخرط في العمل السياسيّ المباشر، من أجل

إطلاق الفكر الليبيراليّ في المجتمع الروسيّ، فعوقب بحكم الموت، خفّف إلى نفي إلى سيبيريا، حيث عانى ما عانى من البرد والصقيع والعزلة. هذه المعاناة أثّرت كثيرًا في مسارات حياة دوستويوفسكي اللاحقة، فإذا به يفشل في زواجاته المتعدّدة، ويبذّر ماله في القمار، ويتوجّع ويتألّم من جرّاء داء العصبيّ الذي أصابه ولاحقه Les Pauvres Gens طوال حياته.

كلّ هذه المصاعب والعذابات، فضلًا عن موت ابنته، لم تثن دوستويوفسكي عن البحث والتدقيق والتحليل في تعرّجات النفس البشريّة، فلم يجد إلاّ في الوضاعة سبيلًا يلزم به ذاته المتألّمة لتجاوز تجاربه القاسية، والانطلاق نحو كشف حنايا سرّ الوجود. وإذا به يتحسّس في هذه الحنايا أحاسيس الحبّ والإخاء، فتنقشع أمامه طريق بناء المجتمع الروسيّ على قاعدة الأخوّة والمساواة في ظلّ ثقافة ليبيراليّة يكون لروسيا فيها دور الجمع والتوليف بين ثقافات وحضارات الشرق والغرب.

في خضمّ هذه المعاناة والتوجّهات والتوسّلات التي نتجت عنها، انطلق هذا المفكّر الملهم نحو الكتابة من جديد، فتتابعت كتبه الشهيرة:

من Souvenirs de la maison des morts (١٨٦٢)

إلى مذكّراته Humiliés et offensés; Mémoires écrits dans un souterrain;

Crime et Châtiment (١٨٦٦)

ومن ثمّ Le Joueur (١٨٦٧)

وبعده L’idiot; L’Adolescent; Les Démons, ou les possédés (١٨٧٢)

بعد هذه الجولة الوصفيّة والنقديّة، التي أبرز فيها دوستويوفسكي أهميّة عذابات الإنسان في حالات وضاعته على طريق تلمّس سرّ وجوده، انصرف هذا الكاتب المرهف الإحساس إلى الدفاع عن المحبّة كطريق لبناء الذات الإنسانيّة، فكان كتابه الشهير: Les frères Karamazov. كما عمل أيضًا من أجل إرساء القواعد الأساسيّة لبناء المجتمعات على الثقافة الإنسانيّة المنفتحة، فإذا به يقترح للشعب الروسيّ ثقافة مجتمعيّة يجمع من خلالها هذا الشعب بين حضارات الشرق والغرب، فأتت كتاباته الأخيرة بشكل يوميّة تحت عنوان: Journal d’un écrivain. وتوفّي دوستويوفسكي بعد ذلك سنة ١٨٨١.

وماذا بعد؟

ما يهمّني أن ألفت الأنظار إليه في هذه المناسبة، وأنا الباحث على طريق المجتمع اللبنانيّ، هو أنّ دوستويوفسكي هو من كبار الباحثين عن السبل الملائمة لبناء المجتمع الإنسانيّ ككلّ والمجتمع الروسيّ على وجه التحديد.

فإذا بنا نراه في كتبه كلِّها يبحث عن ذاته وعن الذات المجتمعيّة لوطنه الحبيب روسيا فلا يجدهما إلاّ في تجارب المحبّة والإخاء الإنسانيّين، وفي الإصغاء إلى هذه التجارب في عميق الثقافات، التي تجمع في رموزها وإشاراتها وعلاماتها وتوجّهاتها بين آمال الشعوب ورغباتهم من جهة، وبين معاناتهم الحياتيّة وعذاباتهم من جهة أخرى.

بناءً عليه، تظهر في أدب هذا الروائيّ الهائم بحبّ روسيا المتحرّرة من قيودها الاقتصاديّة، آثار النزاعات والحروب التي عرفتها روسيا في زمنه؛ أذكر منها الحرب التي اندلعت سنة ١٨٥٤ بين الإمبراطور الروسيّ نيقولا الأوّل، الملقّب في حينه ببوليس أوروبا، وبين الأمبراطوريّة العثمانيّة، متحالفةً مع دولتي بريطانيا وفرنسا في عهد الإمبراطورية الثانية في فرنسا، حيث انهزمت قوّات الإمبراطور الروسيّ في معركة Alma على طريق مدينة Sebastopal الشهيرة في الـ Crimée، وأجبرت على التقهقر وعلى الالتزام ببنود اتّفاق باريس سنة ١٨٥٦.

إنّ آثار هذه الحرب، وما نتج عنها من إصلاحات في عهد الإمبراطور Alexandre II في روسيا، كانت من الدوافع الأساسيّة لانطلاق دوستويوفسكي في توصيفه لحالة روسيا وفي اقتراحاته في مجالات روحيّة الإصلاح الذي يجب أن تنهجها روسيا من أجل بناء المجتمع الروسيّ الكونيّ والمميّز في آن.

أمّا عن المناخ الأدبيّ والفكريّ العامّ الذي تأثّر به دوستويوفسكي في أوروبا والعالم بالإضافة إلى المناخ الروسيّ، فتجدر الإشارة إلى ما يلي:

عندما نقرأ دوستويوفسكي تلفتنا في آن واقعيّته ورومنسيّته، ودقّة وصفه ورهافة حسّه، ونزعته التحرّريّة وشدّة ارتباطه بالرموز الثقافيّة، ورهافته وتعلّقه ببراءة الطفل وانشداده نحو الحلم والخيال.

وما الغرابة في ذلك، ونحن نعلم أنّ دوستويوفسكي تأثّر كثيرًا برومنسيّة وتحرّريّة صديقه Alexandre Pouchkine، وأنّ النزاعات والرومنسيّة والتحرّريّة في الرسم والشعر والأدب ككلّ كانت تتلاقى حينًا وتتنازع حينًا آخر عند الأديب الواحد وبين الأدباء في زمن دوستويوفسكي، أي بين الربع الأوّل من القرن التاسع عشر وربعه الأخير! فنجد هكذا أثر

المدرسة الواقعيّة في أدب دوستويوفسكي، التي كان على رأسها الرسّام Courbet والكاتب الفرنسيّ Gustave Flaubert. كما نرى أيضًا في هذا الأدب أثر المدرسة الرومنسيّة التي خرقتها أيضًا التيّارات الانطباعيّة، والتي اشتُهر فيها Barbizon, Millet, Renoir, Monet رسمًا، وvictor Hugo و Charles Baudelaire, Alphonse de Lamartine شعرًا، على سبيل المثال.

وممّا نراه في النزعة الوصفيّة التي يتميّز بها أدب دوستويوفسكي أثر إيحائيّة مسرح Jacques Offenbach وإيقاعيّة رقص Lev Ivanovitch، وخياليّة موسيقى Peter ilitch Tchaïkovski، وانفتاحات تصوّرات .Jules Verne

كلّ هذه الأمور الأدبيّة والفكريّة تضمّنها أدب دوستويوفسكي. فبهذا الأدب حاول هذا الروائيّ مناقشة السلطات القائمة في زمنه، وبخاصّة السلطات الروحيّة والمدنيّة المهيمنة بقوّة في بلده روسيا وفي العالم.

نقد دوستويوفسكي هذا أتى تطلّعًا إلى الحياة وإلى صيرورة الزمن انطلاقًا من بساطة الفقير وسذاجة الطفل. هو تطلّع إلى عالم تحكمه الإنسانيّة والعدالة، وإلى مجتمع روسيّ يربط بين ثقافات الشرق المفعمة بخياليّة البدايات وأصوليّات رموزها، وبين ثقافات الغرب المندفعة نحو صيرورات إنسانيّة تحكمها الحريّة المطعَّمة بالاقتدار الماليّ، كما وبالإمكانيّات الاقتصاديّة والقدرات الفكريّة المواكبة لها.

وفي نهاية المطاف، يمكن القول إنّ دوستويوفسكي هو من المفكّرين الكبار الذين قضوا حياتهم وهم يبحثون عن ذاتهم في حنايا روحهم المتلهّفة إلى المعرفة الصادقة، عبر التشغيل الكامل لقدرات العقل. وقد روى لي مرّة صديقي د. يوسف يعقوب أنّه نُقل عن دوستويوفسكي قوله في ما يعود للفرق بينه وبين معاصره الروائيّ الروسيّ المتزهّد Lev Nikolaievitch Tolstoy وهو:

«إنّ تولستوي ولد عاقلًا وأمضى حياته وهو يبحث عن جنونه، بينما أنا ولدتُ مجنونًا وأمضيتُ حياتي أبحث عن عقلي».

القسم الأول

أسئلة الدين والحضارة في أدب دوستويوفسكي

د. فاليري الكسييف

دكتور في العلوم الفلسفية، رئيس المنظمة الدولية لوحدة الشعوب الأرثوذكسية

دوستويوفسكي والأرثوذكسية

منذ عدّة سنوات وفي توطئة كتاب «دوستويوفسكي والأرثوذكسيّة» الذي صدر عن مؤسّستنا ضمن مجموعة الكتب الواسعة الانتشار المسمّاة «الكتاب الروس الكلاسيكيّون والأرثوذكسيّة»، قمت بالإشارة إلى حقيقة التقارب الإبداعيّ الفريد بين عباقرة الأدب الروسيّ أمثال بوشكين ودوستويفسكي. وممّا لا شكّ فيه أنّ نواة هذا التشابه في إبداعهما تكمن في الفهم الأرثوذكسيّ للوجود والإنسان.

في كلمته الشهيرة أثناء رفع الستار عن تمثال ألكسندر بوشكين عام ١٨٨٠ في موسكو، تحدّث دوستويفسكي، بطريقة معبّرة وعميقة وكاملة كأنّه رسول مسيحيّ، عن الشاعر الروسيّ الوطنيّ، بحيث يمكننا اختصار كلامه بالعبارة الشهيرة «بوشكين هو كلّ شيء لنا!»، وهي العبارة التي نطق بها أديب روسيّ آخر لا يقلّ شهرة عن بوشكين.

وبإمكاننا اليوم القول إنّ دوستويفسكي أدلى بدلوه المعطاء في تشكيل الوعي الذاتيّ للشعب الروسيّ، وأصبح أيضًا «كلّ شيء لنا».

لقد دخل فيودور دوستويفسكي إلى حياة الإنسان الروسيّ بنفس ذاك العمق الكاسح الذي دخل به ألكسندر بوشكين. لقد التحم مصير وعبقريّة الإبداع لدى دوستويفسكي بالتقاليد الروسيّة على أساس الفهم الأرثوذكسيّ للوجود والإنسان.

وفي مختلف الظروف الحياتيّة والتغيّرات الروحيّة يتناقش قرّاء سطور دوستويفسكي مع الكاتب على صفحات كتبه، يفهمون مصائر أبطاله وينهلون القوّة ويأملون بالسلوى والعزاء.

إنّ نتاج دوستويفسكي لا يغني العقل فقط، وإنّما يليّن القلب وحتى الروح الإنسانيّة. وأثناء مروره أحيانًا بواقع معيشيّ صعب يفرض عليه البحث عن المواساة، وحتى الدعم

* ترجم النص الى العربية وليد عيتاوي

الروحيّ، كان القارئ في مثل الحالات يفهم دوستويفسكي بشكل أكثر نفعًا، ناهيك عن شعور الفرح القلبي الذي نشعر به لدى مطالعتنا لرواياته في محاولة لملء وقتنا بشكل نافع يرضي اهتماماتنا.

إنّ دوستويفسكي لا يزال معاصرًا وحيويًا حتّى يومنا هذا، ومن هنا نرى غالبًا لجوء بعض المؤلّفين الحاليين لاستعمال أفكار الكاتب العظيم والمواضيع المطروقة في رواياته. إنّ الكلمات والشخصيّات التي خلقها هذا الأديب العظيم تبقى مع القارئ طوال حياته، تساعده في فهم أفضل لعلاقته الخاصّة بالمسيح والكنيسة والإنسان والدولة ووجوده الخاصّ متناغمًا مع ما قرأه.

لقد قام الكاتب الفذّ والمفكّر الأرثوذكسيّ المتنبّئ فيودور دوستويفسكي بتصوير الإنسان الروسيّ في غضبه وبشاعته وغطرسته، أو في تضحياته الروحانيّة السامية باسم الحبّ للقريب. وبهذا الشكل المفعم بالمحبّة القلبيّة المجرّدة أوضح لنا الكثير عن الحقيقة المخيفة للإنسان، ناظرًا إلى أعمق أعماق الروح البشريّة وإلى طبيعة المخلوق بحدّ ذاتها.

ولا نبالغ إذا قلنا إنّه بهذا الكشف هزّ الإنسانيّة التي ترتع تحت أوزار الخطيئة التي تعمي البصر والبصيرة.

وكأنّنا به رسولاً، مختارًا من الله يوقف أو يمهل للحظة حلول العذابات الإلهيّة بالبشريّة.

لقد قام دوستويفسكي فعلاً بإماطة اللثام عن الجزء الأكبر من الحقيقة البشعة للإنسان وطبيعته المعقّدة، ولكن، أليس هذا هو قدر النبيّ المميّز أنّ الإله لا يجامل ولا يرائي، لأنّ «رأس الحكمة مخافة الله؟!».

لقد خُلق الإنسان على شكل الله وصورته، وهو قمّة هرم إبداعات الخالق. وهذا الإنسان موجّه لخدمة الفكرة الإلهيّة، رغم أنّه ليس طرفًا سلبيًّا في العلاقة بينه وبين الله. فقد منحه الباري إرادة حرّة وحقّ الخيار. لماذا يا ترى؟ هنا، كما يعتبر دوستويفسكي، يكمن السرّ الأسمى لقدرة الوجود. وكلّ نتاج دوستويفسكي هو إنجاز رسوليّ هائل لتأكيد سرّ وجود الله في عالم الإنسان.

«الإنسان سرّ يجب معرفة كنهه.. وأنا أعمل على هذا السرّ..» هذا ما كتبه دوستويفسكي في ريعان شبابه ضمن رسالةٍ لشقيقه، وعمل طوال السنوات التالية على اكتشاف هذا السرّ جاعلاً من حياته الخاصّة المليئة بالمآسي والاضطرابات الروحيّة

موضوعًا لهزّات كبيرة واكتشافات عظيمة ولتعميمات تبدو للوهلة الأولى غير مسبوقة في رواياته الرائعة.

يُظهر دوستويفسكي نفسه في الأدب كمسيحيّ أرثوذكسيّ بالدرجة الأولى. إنّ إبداعه مشبع كليًّا بالمقاربات الاعترافيّة وبمشاعر المواساة. كانت الشخصيّات الأدبيّة التي خلقها عزيزة جدًّا على قلبه حتّى السلبيّة منها. كان يحبّها حبّ الأب لأبنائه إلى درجة التضحية بنفسه من أجلها.

ويستطيع الباحث الدقيق رؤية التماهي أحيانًا بين وعي الكاتب والإبداع في المعنى الأنطولوجيّ. «إنّ السؤال الرئيسيّ الذي أطرحه في كلّ أعمالي هو نفسه الذي يؤرقني بشكلٍ واعٍ أو لا واعٍ طوال حياتي ألا وهو وجود الله».

من هنا نؤكّد أنّ التجربة الدينيّة الذاتيّة هي بحقّ مصدر إبداع دوستويفسكي.

وممّا لا شكّ فيه أنّ هذه التجربة مبنيّة على مفاهيمه الأرثوذكسيّة. فعندما يقول الكاتب: «إنّ الدين المسيحيّ هو خير دليل أنّ الإنسان قادر على استيعاب الله! إنّها فكرة رائعة ومفخرة عظيمة للإنسان يستطيع تحقيقها» نفهم أنّ هذا لا يتعلّق فقط بتجسّد الإله أيْ يسوع المسيح وحده، وإنّما بكلّ فرد منّا أبدعه الله ويبدع من خلاله وفقًا للإيمان المسيحيّ.

هكذا بالتحديد يمكن فهم إحدى القناعات الإيمانيّة الهامّة: «إذا كان الجميع كالمسيح» أي إنّهم توصّلوا لامتلاك «حقيقة المسيح» فإنّ الجنّة ستزهر وتسود في الأرض.

يؤكّد دوستويفسكي بإصرار لم يسبقه إليه أحد التقارب الميتافيزيقيّ للإنسان من الله عبر المسيح بالتحديد.

وبمصداقيّة نادرة المثيل يصف أهوال صمت روح الله في الإنسان. إنّ الشرّ الأكبر يكمن في محاولة زرع الخير بدون الله أو حتّى ضدّ إرادته. في مثل هذه الحالة يتضاعف الشرّ.

ومن الجليّ أنّ دوستويفسكي لا يكتفي مطلقًا بالجانب الأخلاقيّ للعقيدة المسيحيّة، لأنّ قوّة تغيير العالم كامنة في تجسّد الإله. وأثناء عمله على رواية «الأبله» كتب دوستويفسكي:

«يظنّ الكثيرون أنّه بحسبهم الإيمان بأخلاق المسيح ليصبحوا مسيحيّين. لا أخلاق المسيح ولا تعاليمه هي التي تنقذ العالم، وإنّما وحده الإيمان بأنّ الكلمة هي الحقّ (الماديّ). وهذا الإيمان ليس فقط قناعة عقليّة بعظمة رسالة الله، وإنّما ولهٌ وعشقٌ مباشر لها. ينبغي علينا بالضبط أن نؤمن أنّ المثل الأعلى للإنسان هي الكلمة المتجسّدة، والإله الذي تجسّد. فبمثل هذا الإيمان فقط نصل إلى العبادة وإلى شعور الإعجاب الرائع الذي يشدّنا بقوّة إلى الله مباشرة ويعطينا القوّة أن لا نحيد عن الدرب. وإذا قلّ هذا الإعجاب فإنّ قدم البشريّة ستزل حتمًا وتقع أولاً في الهرطقة ومن ثمّ في الكفر وبعدها في انعدام الأخلاق لتتحوّل أخيرًا إلى الإلحاد والفلتان الكامل لتؤول إلى الزوال والاحتراق».

إنّ هذه الفكرة تشير إلى قناعات الكاتب بأنّه لولا إنجاز المسيح وتضحيته لمات البشر في نهاية الأمر! لأنّهم ما كانوا ليملكون القوّة للاستمرار لولا تجسّد الإله - الكلمة.

إنّ دوستويفسكي يستصرخ البشريّة حرفيًّا بالفكرة القائلة إنّ المسيحيّة ليست فقط في مجموعة الحقائق العقائديّة المكتوبة والوصايا الأخلاقيّة، ولكنّها قبل كلّ شيء تكمن في الوجود الكامل للمسيح المخلّص في العالم.

إن مجتمع البشر هو جسم إنسانيّ ربّاني. ولهذا، فإنّ مصير الفرد يتجسّد عبر مصائر الكلّ. إنّ آلام وخطايا كلّ إنسان تؤثّر على أحاسيس كلّ البشر.

يمتلك دوستويفسكي موهبة البرهان في رواياته عن تراجيديا فقدان الإنسان للإيمان وكابوس تفكّك المجتمع وعدميّة محاولة البحث عن مثل أسمى بديل وهشاشة تعظيم الملذّات الجسديّة. وكذا الدمار الذي يسبّبه الانحلال الأخلاقيّ والفراغ الناجم عن فلسفة العبثيّة المطلقة.

«مع الإيمان تبدأ الحياة الحقيقيّة للإنسان على الأرض، حياة الروح الأزليّة. الإيمان يخلق في وجود الإنسان ككل تحوّلاً متكاملاً لتغيير سلّم أولويّاته، فيستبدل كلّ ما هو بشريّ وزائل بما هو إلهيّ ودائم. ويلغي كلّ ما كان يخاله في السابق هدفًا وسببًا لحياته، ويتقبّل الإله ابن الإنسان كهدف وسبب لوجوده في كلّ العوالم. وعلى الرغم من أنّ الإنسان مخلوقٍ معقّد، إلاّ أنّ الإيمان يصبح مسيرة حياته الواضحة ويسخّر كلّ الإنسان ويحرّكه كمخلوقٍ فانٍ إلى الحياة الأبديّة ويقوده من حياة الزمن القصيرة عبر دروب الإنجيل إلى الهدف الأخير أي الالتحام بالإله المسيح ابن الإنسان. إنّ وجه المسيح العجائبيّ هو نجمة الهداية على هذا الدرب».

ويمتلك دوستويفسكي حساسيّة مفرطة تجاه كلّ ما يتعلّق بوجه وصورة المسيح. فهو في هذا المجال يعطي اهتمامًا لأدقّ التفاصيل. ويعبّر عن هذا الموقف ويؤكّده عبر بنيته الروحيّة الذاتيّة: «خطّة الإيمان الأرثوذكسيّة تتضمّن وجه المسيح». والمقصود أنّ الإيمان على الطريقة الأرثوذكسيّة يعني قبول وجه المسيح على أنّه نور أبديّ وهدف للحياة الإنسانيّة، أي أن نعيش وفقًا لما يريده، أن نفكر ونشعر بواسطته وعبره، أن نقيس كلّ شيء عليه، أن ننتمي إليه بكلّ روحنا وقلبنا وطاقاتنا.

إنّ موضوع العلاقة بين الأرثوذكسيّة والشعب الروسيّ بالغ الأهميّة لدى دوستويفسكي. لقد اندمجت الأرثوذكسيّة وحبّ الشعب الروسيّ في شخصيّة الكاتب بشكل لا تفصم عراه. فقد تعلّم الأرثوذكسيّة من الشعب. ويبدو أنّه عند تفكيره المعمّق حول الشعب الروسيّ تعلّم أن يميّز بدقة – حتّى في أوحال وبشاعة المخلوق المنحطّ لدرجة فقدان إنسانيّته – صورة الله.

وفي الحقيقة إنّ هذا المبدأ المتّبع لدى بنائه لشخصيّاته لم يتغيّر في كلّ رواياته. ففي صورة أكثر أبطال دوستويفسكي ذنوبًا نرى ولو بشكل باهت تجلّيات الوجه الإلهيّ.

وما من أحد سوى دوستويفسكي تمكّن من إظهار وجه الله في الإنسان من خلال الألم والخطيئة والعذاب. لقد كان يشعر بالإله وكأنّه نار تحرق الخطايا أو عاصفة تطفئ الذنوب. ولم يكن عشقه لقصيدة «النبي» لبوشكين عن عبث. فبمثل هذا الفهم لوجود الله في العالم يتشابه هذان العبقريّان إلى حدّ التطابق.

اعتبر دوستويفسكي أنّ القلب الملتهب بحرارة الحبّ للمسيح وأنّ اللهب البركانيّ لنصّ الرواية يجب أن يحرق وبالتالي يطهّر روح القارئ من الدنس، ويعطيه إمكانية الحصول من السماء على قوى جديدة لمواصلة حياته بعد العذابات، ولكن الآن وفقًا لتعاليم المسيح.

لقد آمن دوستويفسكي طوال حياته بقوّة الشعب الروسيّ معتمدًا بالدرجة الأولى على إيمانه. إنّ أهميّة روسيا بنظره تكمن في أهميّة الرسالة المسيحيّة المميّزة لهذا الشعب على سطح الأرض. إنّ الطاقة التي يمنحها المسيح من الأعلى سمحت للشعب الروسيّ أن يصدّ كلّ الغزوات المدمّرة للأغراب والأعداء. وقد برهن دوستويفسكي، كما لم يستطع سواه، أنّ الإلحاد الذي ينفي الفرق بين الخير والشرّ يؤدّي إلى كارثة وإلى نفي الذات والانتحار.

يؤكّد الكاتب مرارًا أنّ الإنسان الروسيّ قويّ بمبادئه الأخلاقيّة نظرًا لتجذّره التاريخيّ في الأرثوذكسيّة. وحتّى عندما يرتكب خطيئة كبيرة، فإنّه يحسّ بما اقترف ويسعى عاجلاً أم آجلاً لطلب الغفران مثلما فعل أبطال رواية «منزل الأموات».

وبعد التوبة ثمّة ولادة جديدة. وعلى هذه الطريق يحتاج الإنسان لمساعدين ولركائز أخلاقيّة وروحيّة. وكما أشار في حينه المطران أنطوني (خرابوفيتسكي): «إنّ دوستويفسكي لم يكتب عن التوبة وحبّ الآخر لأنّه كان أرثوذكسيًّا، ولكنّه تشكّل وأصبح أرثوذكسيًّا لأنّه استوعب وفهم وعشق قوّة الخير العظيمة في الروح البشريّة!!»

وأودّ أن ألاحظ هنا لجانب آخر في التقارب الإبداعيّ بين بوشكين ودوستويفسكي. فالاثنان كانا يشعران باهتمام كبير لتاريخ وطنهم الأمّ، إذ لا يعقل أنّ الفنّ عام ١٨١٢ لم يتجاوب مثلاً مع كلّ ما عاناه الشعب الروسيّ. فقد أشار غيورغي فلوروفسكي إلى أنّ الإنسان الروسيّ الذي يصل إلى طور الولادة الجديدة عبر العذاب وأنّ دوستويفسكي عندما يصوّر هذه المسيرة يمكن وصفه بـ «شاعر السعادة والأمل، ورسول البعث والولادة للمخلوق المعذّب والخاطئ والمنغمس في جنون الذنوب».

إنّ تفاؤل دوستويفسكي مردّه إلى ثقته الإنجيليّة أنّ عودة أيّ روح إلى طريق الله لا يكون أبدًا متأخرًا. «وحتّى لو أنّ أحدًا ما وصل في الساعة الأخيرة فلا داعي لأن يشعر بالخجل لتباطئه!»

إنّ الوعي العميق لدى دوستويفسكي للدور الحقيقيّ للأرثوذكسيّة في الوجود التاريخيّ والدينيّ للشعب الروسيّ قد أذهل معاصريه، كما لا يزال يدهشنا نحن أبناء القرن الواحد والعشرين: «إنّ روسيا لا تعدو كونها تجسيدًا لروح الأرثوذكسيّة !! ومن الممكن أنّ السبب الرئيسيّ لوجود الشعب الروسيّ في حياة ومصير البشريّة جمعاء يكمن فقط في حماية صورة المسيح الإلهيّة بين ظهرانيّه بكلّ طهارة، وأن يظهر هذه الصورة عندما يحين الوقت لكلّ العالم الذي ضلّ طريقه!».

كان دوستويفسكي يكتب أنّ الشعب الروسيّ معطاء للغاية، لأنّ لديه «المدرسة الرئيسيّة للمسيحيّة ألا وهي قرون العذابات التي لا تحصى!»

لهذا يفهم الشعب الروسيّ بسهولة آلام الشعوب الأخرى ويستجيب لهذه الآلام، لأنّه نفسه يحمل الكثير الكثير منها.

ولهذا تسعى روسيا وتتوق إلى المسيح. فمن ذا الذي سيساعدها سواه وهو الذي تعذب وهدر دمه الطاهر من أجل البشر؟!

إنّ مركزيّة الدين المسيحيّ في العالم هي الأساس المبدئيّ لكتابات وروايات ووعي دوستويفسكي الذي كان يردّد من الأفضل أن نكون مع المسيح من أن نكون مع الحقيقة، إذا لم تكن متطابقة مع المسيح. حتّى ولو كنا «كومة رماد»، علينا أن نكون مع المسيح. وحتى لو كانت الحقيقة مختبئة خلف «قوانين الطبيعة» التي تحوّل كلّ شيء إلى هباء ومن ضمنه «نفسها كمعجزة عظيمة».

أنا أريد البقاء مع الله! نسمع هذا النداء من الكاتب. وبهذه الطريقة يؤكّد أنّه بدون الحياة مع المسيح لا يسعه إلاّ رفض الحياة، وأنّه لن يقف في صفّ «قوى الشرّ الوقحة، العدوانيّة والزائلة» حتّى ولو لم يبق سواها حقيقة في الوجود.

إنّ الله يخترق أعماق هذا العالم الفاني الذي شوّهته الخطيئة لإعادة بنائه كما كان جميلًا ونبيلًا في بدايته. المسيح يضحّي بنفسه من أجل خلاص الإنسان.

كم هي حيويّة ومعاصرة بروحانيّتها أفكار الكاتب الروسيّ العظيم من وسط القرن التاسع عشر، لنا نحن الذين نعيش في الألفيّة الثالثة بعد المسيح. من الصعب أن نجد في حياتنا الشخصيّة أو الاجتماعيّة موضوعًا ذا أهميّة لمصير البشر لم يتطرّق إليه بكلّ عمق ودقّة دوستويفسكي.

حقًّا لقد كان ينعم بموهبة الرسل والأنبياء، لأنّه حتّى يومنا هذا يساعدنا على فهم أسرار الإنسان الرئيسيّة وحقيقة وجود الله في العالم.

إنّ فيودور دوستويفسكي عزيز علينا، وآمل أن يصبح محبوبًا وضروريًّا للأجيال القادمة من البشر.

د. سهيل فرح

دكتور في العلوم الفلسفية، عضو أكاديمية التعليم الروسية

دوستويوفسكي وفكرة روسيا

عندما يجري الحديث عن روسيا خارج الكلام السياسيّ والاقتصاديّ، سرعان ما يقفز إلى الذهن اسم دوستويوفسكي. ولعلّ السبب الذي جعله يكون في واجهة المشهد الإبداعيّ الروسيّ هو مهاراته، لا بل إبداعاته في كشف المناطق المجهولة، النورانيّة والمعتّمة في النفس الإنسانيّة. تمكّن من أن يحفر في أعمق طبقات الوعي واللاوعي، ما جعله يدخل في قائمة الأدباء المفكّرين العالميّين بامتياز.

دوستويوفسكي لم يكن أديبًا من الطراز الأول، بل إنه كان باحثًا نفسيًا ومفكرًا فيلسوفًا.

وإن كان ينزع عن نفسه صفة الفيلسوف أو عالم النفس، إلاّ أنّ الباحث المتمعّن في مضامين كلامه يرى في الصنف الذي نهجه دوستويوفسكي في كتاباته نوعًا من الأدب الفلسفيّ الرفيع المستوى.

عالم ألفاظه وإدراكه للعالم كان يحضر فيه وبكثافة المصطلح الأخلاقيّ والروحيّ والجماليّ. كان يرى بأنّ البيئة السعيدة الحاضنة للإنسان لا يمكن أن تكون إلاّ في دائرة جمالات الثقافة. وهو صاحب القول المشهور «الجمال ينقذ العالم»... والجمال الذي يفهمه دوستويوفسكي يبدأ من خلال الاكتشاف الدائم لطاقات الخير والمحبّة في الثقافة الإنسانيّة.

إبداع دوستويوفسكي هو بمثابة الملحمة الوجوديّة التي يدور الحوار والسجال والصراع الدائم فيها بين محوري الشرّ والخير، بين قطبي العبوديّة والحريّة، بين ثنائي الواجب والحقّ.

كان شديد التعلّق بالقيم الروحيّة والإنسانيّة المشتركة رغم اضطهاد سلطات بلده القيصريّة له، من جرّاء انتمائه إلى مجموعة بتراشيفتسكي التي دعت إلى التمرّد المطلق على

نظام القنانة ودعوته لإصلاحات جذريّة في بنيان النظام القائم، الأمر الذي أدّى بالبوليس القيصرّي لأن يحكم عليه بالإعدام. إلاّ أنّه، ومن حسن حظّ الأدب والفكر الروسيّ والعالميّ، فربّما جاء القدر لينقذه بحيث خُفِفت العقوبة إلى أن يقضي سنوات أربعًا في السجن. ومن ثمّ إلتحق بالخدمة العسكريّة. بيد أنّ سنوات السجن والعسكر وكلّ أنواع القهر والاضطهاد لم تكسر نفسيّته، ولم تدفعه إلى دائرة العبث والفوضى والانغلاق.

شعر في تلك المرحلة ومن أعماق روحه بأنّ أثمن شيء في الوجود هو الحياة. لذا فإنّ معنى إرادة الحياة والتركيز على الجانب الأكسيولوجي فيها كان حاضرًا في كلّ أعماله.

الفكرة عند دوستويوفسكي

وعندما جرى الحديث عن دوستويوفسكي بأنّه أديب فيلسوف، فالمقصود من ذلك أنّه كان يُفعّل عقله من أجل تظهير الفكرة والبحث في مضامينها الوجوديّة، والعمل على صياغتها بالشكل الذي نصل فيه إلى النقطة التي تثير وبقوّة طاقة العقل والقلب معًا عند القارئ.

فالفكرة في عالم دوستويوفسكي كان لها وظيفتها السيكولوجيّة والإنسانيّة. فهي تعكس الوعي الذاتيّ لأبطال رواياته، وتعكس حالات التمرّد والخنوع، الأخذ والردّ على مجمل مجريات الواقع التي تحيط بعالم الإنسان. بيد إنّ لكلّ فكرة عنده دلالة ورسالة تعبّر عن نفسها بالكلام الذي تفوّهت به ألسنة أبطاله المتصالحين مع ذاتهم الشخصيّة والاجتماعيّة والكونيّة، أو الثائرين عليها. لم توضع فكرة دوستويوفسكي في قالب واحد، منسجم مع الشكل الظاهر في الكلام والمضمون الكامن في دواخل النفس، بل إنّها جاءت متنوّعة، متناقضة، قلقة، متفائلة حينًا ومتشائمة أحيانا أخرى، منغلقة على ذاتها الدينيّة والقوميّة أو منفتحة على العالم إلاّ أنّ فكرته المفضلة كانت مرتبطة بحلمه الفاضل، أو جمهوريّته الفاضلة، المتماهية مع الجوانب الأكثر إشراقًا في الثقافة الإنسانيّة.

رغم أنّ فكرة أبطاله كانت تعكس نماذج بشريّة لها أسماء محدّدة كدفورجين وأليوشكا، وكيريليوف وتاتيانا وأولغا وغيرها من الأسماء التي تشير إلى هويّة معيّنة لصاحبها، إلاّ أنّ الوعي الذي يحمله هؤلاء الأبطال لم يعبّر عن وعي ذاتي لشخص واحد، بل إنّ تلك الأفكار كانت تعبّر وبأسلوب فنّي خاصّ عن روح الإنسان الذي يعيش في كنف أمّة معيّنة أو شعب معيّن. وكما يقول الباحث الروسي ميخائيل باختين: «إتّصف دوستويوفسكي بالقدرة على تصوير فكرة الغير، محافظًا على كلّ قيمتها الدلاليّة الكاملة

بوضعها فكرة».[1] بمعنى آخر إنّه وإن كان الاختصاصيّ الماهر في عكس خوالج النفس الإنسانيّة. وإفرازاتها السلوكيّة الظاهرة عند الغير، إلاّ أنّه كان أيضًا الفنّان والأديب المحترف الذي كان يعبّر عن تلك الأفكار على الأبعاد الشكلانيّة والرمزيّة والجماليّة للفكرة. بيد أنّ هناك شروطًا كان يرسمها دوستويوفسكي لنفسه تتحدّد على ضوئها إمكانيّة تصوير الفكرة. وفي هذا السياق برع باختين في تحليل هذا الجانب من إبداع دوستويوفسكي عندما قال: «إنّ صورة الفكرة لا تنفصل عن صورة الإنسان... وبطل دوستويوفسكي هو إنسان الفكرة»[2]... غير أنّ هذا الإنسان لم يكن هائمًا في فضاء الفكرة المجرّدة، بل له جذوره المرتبطة بالمكان والزمان. والمكان هنا هو الروسيا، والزمان هو الحقبة المتقدّمة من التاريخ الحديث. بيد أنّ هذا المكان وذاك الزمان على خصوصيّتهما، كانا يحملان وعيًا فلسفيًّا لعلاقة الإنسان بأناه، وبالآخر، أي بمعنى آخر بأناه الروسيّة وبالآخر الإنسانيّ والكونيّ. وروسيا التي كانت الهاجس الأساسيّ لفكرته، لم يكن يتصوّرها إلاّ رحاب التناطح الخلاّق مع الحضارات الأخرى.

فكرة روسيا

قبل الإشارة إلى الخصوصيّة الثقافيّة والدينيّة للروسيا، يركّز دوستويوفسكي على الفلسفة الأخلاقيّة العامّة للروسيا المجسّدة في إطار وطنيّ. ففي عام ١٨٧٧ يكتب أنّ «فكرة روسيا الوطنيّة ليست في الحصيلة العامّة سوى الكليانيّة الإنسانيّة العامّة.»[3] فهو يتخيّلها بأنّها تشمل وحدة كلّ شعوب العالم بلا استثناء، ومن خلال تفاعل الأنا الروسيّة مع كلّ القيم الحضاريّة على هذا الكوكب. ويقول بهذا الصدد: «لعلّنا نحن الذين نعلم في الطليعة بأنّ قوميّتنا التي نسعى إليها والنجاح الذي نطمح إليه، لا يحصلان من خلال الضغط على الآخرين، بل على العكس من ذلك، فنحن نقترب من أهدافنا من خلال تلمّس التطوّر الواسع لقيم الحريّة والسيادة عند الأمم الأخرى، ومن خلال تمتين عرى الأخوّة معها. كلّ طرف يمكنه أن يكمّل الآخر والمسيرة تكون وثيقة الصلة إذا ما تمكّن كلّ واحد أن يضمّ العناصر المتأصّلة في ثقافة الآخر، على أن يكون جسر التواصل بيننا مبنيًّا على ما

١- ميخائيل باختين. شعرية دوستويوفسكي. دار توبقال، المغرب، الدار البيضاء، ١٩٨٦، ص ١٢٠. (باللغة العربية)

٢- المرجع نفسه. ص ١٢١. (بالعربية)

٣- دوستويوفسكي م.ف. المؤلفات الكاملة. المجلد ٢٥، ص ٢٠. (بالروسية)

تنير به النفس والروح من قيم. نتعلّم منهم ويتعلّمون منا. وهكذا تتواصل الشعوب كافّة فيما بينها إلى أن تصل البشريّة إلى الكليانيّة الموحّدة للعالم، إلى الشجرة الكبيرة والعظيمة التي تغذّي جذورها الأرض السخيّة والسعيدة».[٤]

دوستويوفسكي المدرك جيّدًا لنقاط ضعف وقوّة شعبه عبّر في رواية «المراهق» على لسان أحد أبطالها، ماكار إيفانوفيتش، بأنّه وبصرف النظر عن الأوضاع الصعبة المتفاقمة التي يعيشها في دنياه، فإنّه يبقى شديد التمسّك بكرامته وبهدوئه. ويبقى حبّه المطلق لبني البشر يسكن روحه. وفي الفطرة يحضر التضامن مع كلّ المعذّبين ليس في بلده فقط، بل مع كل المعذّبين على الأرض. وفي معرض قراءاته الواسعة لأعمال دوستويوفسكي يقول أحد المفكّرين اللاهوتّيين الروس، (المتروبوليت أنطوني خرابوفيتسكي) بأنّ «روح الشعب الروسيّ ملآنة بذاك الرصيد الكبير والواسع من الضمير الحيّ والحريّة الداخليّة، والابتعاد عن النزعة الفردانيّة الأنانيّة التي قلّما نراها حاضرة بالقوّة نفسها عند الشعوب الأوروبيّة – الغربيّة».[٥]

النفس الروسيّة المليئة بعدم الرضى عن الذات والتي نادرًا ما دخلت عناصر اللّذة الماديّة والرفاهيّة إلى القطاعات الواسعة من أبنائها، تختزن في داخلها مساحات واسعة من الوداعة والغنى الروحيّ. وتعليقًا على رؤية دوستويوفسكي للإنسان الروسيّ يقول المتروبوليت أنطوني «بأنّ من الاستحالة بمكان قهر الروح الروسيّة، حتّى في المرحلة القاهرة لنظام القنانة؛ وفي الظروف المغرقة في الفقر تبقى الروح الروسيّة مفعمة بالحبّ والخير والسلام».[٦] فالقلب الروسيّ الذي عكس نبضه دوستويوفسكي في روايتي «الأخوة كرامازوف» و«المراهق» إنّما هو تركيز دائم على قدرته في التوفيق بين المشاعر الدافئة الموجّهة للروح الوطنيّة والمودّة الموجّهة إلى روحانيّة الإنسانيّة. قلبه يتماوج فيه ذاك التوق الكبير لخير البشريّة عامّة. وفي هذا كلّه يعتبر الينبوع الذي يستقي منه هذا الخير العامّ وهذه الروح المنبثقة من عقيدته الإيمانيّة والمتماهية مع الروح المسيحيّة. فدوستويوفسكي يعتبر الروسيا والمسيحيّة الأرثوذكسيّة صنوين أبديين لا يفترقان «، ويوجّه انتقاداته للغربيين في أوروبا وللمغرّبين في بلده، هؤلاء الذين يقلّلون من حجم حضور الأرثوذكسيّة روحًا وثقافة

٤- دوستويوفسكي م. ف. المرجع نفسه ص ١٠٠.

٥- من كتاب "دوستويوفسكي والأرثوذكسية". موسكو، ٢٠٠٣. ص ٣٠. (بالروسية)

٦- المرجع السابق.ص ٢٨.

في الحياة الروسيّة. فكان يؤكّد دائمًا بأنّه لا يمكن فهم الشعب الروسيّ في العمق، ما لم يتمّ إدراك وفهم الأرثوذكسيّة. ويذهب إلى أبعد من ذلك ليصل في هذا الطرح إلى أقصى نهاياته عندما يقول: «من لا يدخل الإيمان الأرثوذكسيّ العميق إلى قلبه لا يمكنه أن يكون روسيًا».

وبعد لحظات من حياته جاءت ببعض المتغيّرات على مزاجه الإيمانيّ والروحيّ من جرّاء عدم رضاه على السلوكيّة البشريّة لممثّلي المؤسّسة الرسميّة الدينيّة في بلاده وفي الغرب بخاصّة، ومن جرّاء قراءاته الواسعة لفلسفات وآداب الغرب والشرق معًا، يعود مرّة جديدة معلنًا تمسّكه الأقوى بجذوره الإيمانيّة ومشهرًا عن عناقه للقلب الروسيّ الذي يعبق نسيمه الروحيّ والدينيّ من الشرق. يعود يجهر بإيمانه أمام الجميع ليقول: «آمنت بالمسيح المنبثق من أعماق الشعب، الذي يختفي وهجه في المدى الأوروبي». ففي مؤلّفه الذي حمل عنوان «مراسلات من البحر الميت»، يعتبر بأنّ الحضارة الأوروبيّة بالذات، بمبشّريها وفلسفاتها ومعتقداتها، تمكّنت من الفتك بروح الإيمان في وعي الشبيبة، وتمكّنت من أن تُدخل إلى أسر فكرها فئات واسعة من الأوساط الشعبيّة ومن النخب الحاكمة. وأعلن عن مخاوفه من تلك الطاقة المعتّمة المهدّدة للروح الإيمانيّة الروسيّة». غير أنّ هذا وفي إطار رؤيته الإيمانيّة للوجود، لم يُنسيه، رغم انتقاداته للأفكار الغربيّة الماديّة و«لرخاوة» الإيمان حتّى عند بقيّة المذاهب المسيحيّة الأخرى، من التركيز على الجانب الدينيّ في الفكرة الروسيّة «والتي يسكنها الرجاء للتماهي مع الروح المسكونيّة الجامعة للكنيسة». وفي هذا السياق من الكلام الدوستويوفسكيّ عن الفكرة الكليانيّة، لا يمكن الحديث عن إحاطته وأمانته للبعد الشامل والكونيّ لها، والتي دائمًا ما كان يردّدها في أعماله. تبدو الرؤية الروحيّة الدينية عنده غير منسجمة، لا بل يمكن القول بأنّ المشترك الروحانيّ عند سائر الأديان والثقافات يكاد يكون مهملاً حينًا ومغيبًا أحيانًا أخرى في العديد من أعماله. إلاّ أنّ كتابات أخرى له حول مفاهيم أخلاقيّة ونفسيّة وفلسفيّة حياتيّة عامّة يبدو فيها أكثر انفتاحا وشموليّة وأكثر قربًا وأمانة للمفهوم المركزيّ لفلسفته الكليانيّة حول الفكرة الروسيّة.

الحريّة والواجب الأخلاقيّ في فلسفة دوستويوفسكي

الفكرة الروسيّة التي حضرت بكثافة في روايتيه الأخيرتين «الأخوة كارامازوف» و«المراهق»، فيها تعلّق واضح بمفهومي الحريّة والواجب الأخلاقيّ. وفي هذا السياق

يطرح دوستويوفسكي بعض الأسئلة، ويخلص إلى الاستنتاجات حولها: «هل الخلاص يتمّ من خلال تغييب حريّة الفرد؟ على العكس، على العكس من ذلك. فلا أؤكّد فقط على مخاطر «تغييب الشخصيّة»، بل أركّز على أهميّة حضور الشخصيّة الإنسانيّة في أرقى درجاتها وتحليلاتها، وهي التي تحدّدت معالمها بوضوح في الغرب. يرجى أن يُفهم موقفي: فالتصرّف الحرّ المنبثق من وعي تامّ به، وغير المجبر للإقدام على التضحية التامّة بالنفس مقابل الكلّ، هو حسب ظنّي، يعتبر المؤشّر الأرقى لتطوّر الشخصيّة، ويعبّر عن القوّة الهائلة الحاضنة لها، ويفسح في المجال لصاحبه لأن تكون في داخله أعلى درجات حريّة الإرادة الخاصّة. إنّ طاقة العطاء المنطلقة من محض الإرادة الطيّبة لأجل إشباع الآخرين، لا يقدم عليها إلاّ من كان يملك الشخصيّة القويّة المنظورة. وهذه الشخصيّة هي الواثقة بالتمام من حقوقها القائمة بذاتها، والتي لا تحمل في ثناياها أيّ خوف، والتي ليس بمقدورها عمل أي شيء خارجًا عن إرادتها. أي إنّها لا ترى نفسها إلاّ لكونها مؤهّلة لأن تمنح عطاءاتها للآخرين، لكي يشعر الآخرون بأنّهم على الطريق الحقّ، وبأنّهم سعداء كأشخاص».[٧]

في هذا التوصيف الدوستويوفسكي لمفهوم الحريّة الشخصيّة والحقّ والواجب تجاه الأنا والآخر، نلمس عن حقّ رؤية روسيّة متقدّمة، تجعلنا لا نجافي الموضوعيّة إذا استنتجنا بأنّها لا تضاهي، في احترامها ونظرتها للإنسان ولسلوكيأته، تلك الأطروحات الفلسفيّة والوجوديّة التي طلع بها الفكر في الغرب. ولعلّها بالتالي تقلب الصورة الستيريوتيبيّة (المنمّطة) لدى الكثير من المقاربات الأوروبيّة والغربيّة وغيرها التي تعتبر بأنّ الفرد كقيمة، وبأنّ الإرادة الحرّة في التفكير وفي السلوك، لا وجود لهما في الفكر الروسيّ.

ودوستويوفسكي يعتبر بأنّ صفاء الفكرة الروسيّة ونقاءها الأخلاقيّ والوجوديّ ينبغي أن يستند إلى هذه الروحيّة. دوستويوفسكي في إشارته المتواصلة إلى دور الديّان الأكبر في بعض أعماله، يركّز على ضرورة الحرص الشديد على حريّة الفرد وعلى حريّة الإرادة وعلى وعيه وضميره الأخلاقيّ، وعلى ضرورة عدم التفريط بأيّ ثمن بهذه القيم. والشخص الذي يملك حريّة الإرادة، هو الإنسان المتميّز بالضمير المرتاح لنفسه ولغيره. وهو المؤهّل أكثر من غيره لأن تكون مساحة الحريّة والواجب الأخلاقيّ واسعة في الفلسفة التي ترتكز عليها أمّته.

٧- دوستويوفسكي م. ف. المؤلفات الكاملة. المجلد الخامس. ص ١١٦. (بالروسية)

الإنسانيّ والشخصيّ في فكر دوستويوفسكي

دوستويوفسكي الإنسان المواطن العالميّ، الذي حاول عن صدق التماهي مع القيم الإنسانيّة المشتركة الهادفة إلى توحيد البشر مع أساس فلسفة كليانيّة خيّرة، كان يحمل في ذهنه مشروعًا إنسانيًا عامًّا أقرب إلى الحلم المتسامي النبيل والجميل. بيد أنّه في دواخل نفسه وفي نظرته للجوانب المعتّمة في الشخصيّة الإنسانيّة كانت تعتريه موجات متواصلة من الخيبة لأنماط الحياة الفرديّة والجماعيّة للروس التي تظهر في سلوكيّات الناس اليوميّة. في مقاربة دوستويوفسكي لهذه الظاهرة بدا التناقض واضحًا في الرؤية الفلسفيّة للحلم المرسوم في الذهن حول المشهد الأكسيولوجيّ الإنسانيّ العامّ، وبين العلاقة الملموسة والمحسوسة في سلوك الإنسان. وهي في طروحاتها الكلاميّة – النظريّة وتمثّلاتها الحياتيّة المعاشة – تُظهر بعضًا من أوجه الصراع في علاقة الفكرة الروسيّة بنفسها أولاً قبل علاقتها مع الآخر. فهذه الروسيا ومع إنسانها القاطن في مداها الواسع الأرجاء، الذي يحتضن عشرات لا بل مئات الإتنيّات والشعوب واللغات والأديان والمذاهب والأفكار والثقافات، يجول في داخلها من الناحية النظريّة الرغبة الجامعة في تمثّل القيم الإنسانيّة العامّة المشتركة، وقد تكون مخلصة لذلك، لا بل محبّة لها. إلا أنّها على المستوى العمليّ اليوميّ، وانطلاقًا من اعتبارات ماديّة اقتصاديّة، بيوسيكولوجيّة وسوسيوثقافيّة، تجد نفسها في المشهد اليومي للعلاقة بين بشرها بأنّ الكثير، الذي لا يمكن إحصاؤه، تدخل فيه عناصر الضعف والعتمة واللاتوافق الداخليّ. وهذا ما يظهرعادة داخل دائرة الجماعة التي يجمعها البناية أو حتّى المسكن الواحد، أو الحيّ الواحد، أو المدينة الواحدة. ومجمل تفاصيل الحياة اليوميّة التي تصنع المشهد اليوميّ طوال الساعات الأربع والعشرين هي التي تحدّد معالم الشخصيّة الاجتماعيّة. وفي هذا المشهد اليوميّ تظهر في السرّ والعلن كلّ أوجه الصراع مع الذات الفرديّة والجماعة. وتبعًا للعوامل الإيجابيّة أو السلبيّة لحالات التشاؤم أو التفاؤل التي تفرزها الطاقات الغرائزيّة والنفسيّة والعقليّة والروحيّة، ترسم روسيا لنفسها في يوميّاتها نظرتها وعلاقتها مع أناها الجماعيّة. وهنا يصعب على الباحث تحديد حركيّة البارومتر الروسيّ حيال اقترابه أو بعده من الجانب المتسامي في فكرته الروسيّة. ودوستويوفسكي الإنسان المفكّر الشخص أو الفرد لم يكن في فلسفته وفي سلوكيّاته اليوميّة بعيدًا عن هذا المشهد.

في عمله «المفتّش الكبير» يعترف فيقول» لم يستطع أن يفهم كيف أنّ الواحد منّا لا يتمكّن من محبّة جاره، علمًا أنّ بإمكانه محبّة الناس عن بعد». ويقول في مكان آخر:

«كلّما ابتعدت مسافة الودّ بيني وبين الناس على انفراد، كلّما تصاعد نور ونورانيّة الحبّ في داخلي حيال الإنسانيّة بعامّة».[٨] قد تكون هذه الأحاسيس مرتبطة بنموذج عن البشر النوابغ الذين يتمتّعون بإحساس مرهف وبذاتيّة قد تصل ببعضهم إلى درجة النرجسيّة. ودوستويوفسكي الذي عبّر عن هذه المشاعر مع شخصيّات أبطاله في رواية «الأخوة كارامازوف»، لم يكن بعيدًا كشخص في سلوكيّاته اليوميّة عن هذا الجوّ. وقد يبدو لأوّل وهلة بأنّ رؤيته للإنسان الواقعيّ الملموس والمحسوس تتناقض مع الرؤية العامّة للإنسانيّة وللفكرة الروسيّة معها. إلاّ أنّ الحقيقة البشريّة المعاشة لدى الملايين من البشر تؤكّد بأنّ المسافة دائمًا ما تكون شديدة البعد ما بين الحلم الجميل والواقع المرّ. فتجربة الإنسان في علاقته مع ذاته وداخل دائرة الأسرة والمجتمع والثقافة الواحدة تصبغ مفرداتها وكلامها وسلوكيّاتها العمليّة إشكاليّات الأنانيّة وروح التضحية، والعدوانيّة الانفصاليّة والسلام العقليّ، وإغراءات المادّة والتوق إلى الروحانيّات، والخاصّ الشخصيّ والعامّ الإنسانيّ. التعصّب لروح الجماعة المسوّرة بكاتدرائيّات الدوغماتيّات المتنوّعة الألوان والمصادر، وتقديس الروح الفردانيّة، الحرّة، المعقلنة.

أشدّ ما كان يقلق دوستويوفسكي في نظرته للناس هو تلك الفئة التي تطأطئ رؤوسها كالقطعان أمام أوامر السلطات كلّ السلطات أيًا كان نوعها. فهو لا يغمز بنظرته النقديّة لسلوكيّة البشر، من زاوية العين الروسيّة الفاحصة، بل يوسع دائرة الرؤية لتشمل مشاكل وتناقضات وعذابات وآمال وطموحات وأحلام البشر على المستوى العالميّ. وحالة دوستويوفسكي تعكس موقف الأديب، الفيلسوف الحالم بعالم طاهر يصطدم دائمًا بواقع الحياة البشريّة المليئة بالثغرات والأخطاء والخطايا. وخلاص هذا العالم كان يراه دوستويوفسكي يتمثّل بشهادة المسيح ورسالته على الأرض. وصورة الشعب الروسيّ الذي عاش دوستويوفسكي بين ظهرانيّه طوال حياته كان يشبّهها بصورة المسيح المصلوب.

بيد أن هذا الشعب الذي تجمع معظم أبنائه عقيدة الإيمان الأرثوذكسيّة الواحدة مستعدّ لأن يخوض الحرب من أجلها كقيمة تجسّد قدس الأقداس الروسيّة. فهو في الحياة العمليّة وفي أسئلته التي يطرحها على ذاته القوميّة وعلى علاقته مع روسيّته والآخر، نجده يتوه في أجواء واسعة من القلق والضياع والحبّ والكراهية بين هذا الخيار أو ذاك.

٨- دوستويوفسكي م. ف. المؤلفات الكاملة. المجلد الرابع عشر. ص ٥٣. (بالروسية)

النماذج الأربعة للإنسان الروسيّ

لعلّ الصورة التي قدّم بها دوستويفسكي للقارئ الروسيّ إبداعات بوشكين، تعطينا تصوّرًا أوضح لبعض الألوان التي ترسم لوحة رؤيته للفكرة الروسيّة. فدوستويوفسكي القارئ الأكثر فطنة وعمقًا لأعمال بوشكين قام بتقييم المراحل والمحطّات والنماذج التي جاء على ذكرها الشاعر الأقرب قربًا من قلوب الروس. فهو أي دوستويفسكي يشير إلى أربعة نماذج تطبع التركيبة الخاصّة للشخصيّة الروسيّة. نموذج «الروسيّ التائه» و«الأجنبيّ المروسن» و«الروسيّ المهاجر» ويرى الخلاص في النموذج «الوطنيّ المبدع».

في شخصيّة أليكو في أعمال بوشكين «الغجر»، «أناجين» و«شفابرين»، نلمس التركيز على نموذج «الروسيّ التائه» الذي لا مستقرّ له إنّه الوافد من بيئة متعلّمة الذي لا جذور له في تربته الوطنيّة والفاقد للعلاقة مع حياة الشعب هو بمثابة الورقة أو الفقاعة التي تتقاذفها هبات رياح الخريف، يحمل في داخله بذور البلية والدمار والموت. باستطاعته وباكتئاب ظاهر أن يحنّ إلى نوع من التناغم النفسيّ من دون أن يدرك ماهيّته أو أن يعرف هل وصل إليه أم لا. الخلاص ينتظره وهو شديد الاتّكال على القدرة الخارجيّة، من دون أن يكون له أيّ مرتكز على نقطة أخلاقيّة معيّنة. دوستويوفسكي العارف في الدواخل النفسيّة للبشر كان يحدّق مليًّا في أعماق هذه الشخصيّات وسلوكيّاتها. وفي كلّ رواية من الروايات كان هناك حضور لهذا النموذج من «الإنسان التائه» الجوّال الذي لا تستند قدماه إلى أيّة أرضيّة أو بيئة صلبة يمكن الركون إليها. من أخوة كارامازوف الثلاثة كان إيفان يتّصف بهذه السمات. فهو الصوفيّ المتعلّم الذي يهوم في ظلال تلك الأفكار المتناقضة، ويصل به الترحال في نهاية الأمر إلى فقدان صوابه. وهذا النموذج من البشر يعيب عليه دوستويوفسكي تعاليه على الشعب، ورغم الهالة «المتعلّمة» أو «المثقّفة» التي يحيط نفسه بها، إلاّ أنّه يقع، وقد لا يدري بذلك، في شراك القوى الشريرة.

في رواية «المراهق» تظهر صورة النموذج الثاني «الأجنبيّ المروسن»، فيبدو كرافت، هذا الألمانيّ المروسن، بأنّه يتعامل مع الروس وبعقل رياضيّ شكلانيّ بارد، حيث يقوم بتصنيف الشعب الروسيّ وكأنّه من الدرجة الثانية. وهو لا يرى أيّ دور فعّال يمكن أن تلعبه روسيا في «تحديد مصير البشريّة».[٩] كرافت المروسن اليائس من الشعب الروسيّ على يقين

٩- دوستويوفسكي م. ف. المؤلفات الكاملة. المجلد الثالث عشر. ص ٤٤. (بالروسية)

بأنّ «الفكرة الروسيّة الجذّابة سقطت، وأنّ الجميع على أهبّة الاستعداد للرحيل أو للهرب من روسيا».[١٠]

بيد أنّ كرافت هذا يجد نفسه، وهو في مهبّ البحث عن البدائل، يفقد البوصلة، فيجد نفسه أمام قاب قوس أو أدنى من اللجوء إلى خيار الانتحار.

النموذج الأوّل والثاني يجدهما بوشكين بدوره بأنّهما يعيشان حالة اغتراب حقيقيّ عن إنسان روسيا وعن الطبيعة الروسيّة. هما يعيشان حالة ضياع وتشرّد وتمزّق نفسيّ ووجوديّ. يظهر عند دوستويوفسكي نموذج «الإنسان المهاجر» التوّاق لأن تحطّ رحاله في أرض الميعاد المسمّاة أمريكا. فهذا النموذج الذي يقطع جذوره مع أرض الأجداد يطمح للعيش في أمريكا التي تجسّد «منطقة اللاروح»، والتي هي غريبة عن الروح الروسيّة. فنماذج «كرافت» وسفيدربغالوف الحاضرة في رواية «الجريمة والعقاب» كان تهدس ليل نهار بأمريكا قبل إقدامها على الانتحار. هناك في البلاد الواقعة ما وراء المحيطات، في أمريكا، حطّ الرحال كيريلوف وشاتوف في رواية «الشياطين». الأوّل رجع إلى روسيا ليضع يده عليها، فيما شاتوف أستقرّ وأتى بالفائدة القصوى لتلك البلاد، ولكنّه أحسّ بأنّ عمليّة غسل دماغ واسعة جرت له، وأنّه بدأ يتعلّم محبّة الوطن. وفي المقابل ثمّة ميتيا كرامازوف الذي أدرك قبل فوات الأوان بأنّ الهرب من العبوديّة والاضطهاد الداخليّ لا تكون بالضرورة محطّته أمريكا. وكلّما كان يفكّر في ذلك كان يشعر بالقرف. ويعبّر دوستويوفسكي على لسان هذه الشخصيّة: «ها قد فكّرت بأنّني إذا هربت وبصحبتي المال والباسبور حتّى إلى أمريكا، إلاّ أنّ فكرة تقضّ مضاجعي، ذلك لأنّ إحساسًا ينتابني بأنّني لا اهاجر مهرولاً في اتّجاه المسرّة والسعادة، بل إنّني سائر نحو عبوديّة أخرى، ربّما هي الأسوأ... تبًا لهذه الأميركا.... إنّني الآن أشعر بكراهيّة نحوها... أجل هناك ستكون نهايتي».[١١]

أراد دوستويوفسكي على لسان هذه النماذج الثلاثة من «الروس» أن يطرح بعض الجوانب المتعلّقة بسؤال الروسيّ عن «هويّته». أراد أن يعبّر عن حالة القلق الحضاريّ والضياع الوجودي عند تلك النماذج التي تحلم بأنواع معيّنة من الخلاص وهي واهمة

١٠- المرجع نفسه. ص.٧٠.

١١- دوستويوفسكي م. ف. المؤلفات الكاملة. المجلد ١٥، ص ١٨٦. (بالروسية)

بذلك. وفي الكلام دعوة مبطّنة للتمسّك بالأرض وبالروح الروسيّة العريقة التي لا تتضارب مع العالميّة، بل تأتي كامتداد لها.

النموذج الذي فضّله دوستويوفسكي ورفعه وثمّنه عاليًا هو «الوطنيّ المبدع». وهذا الذي رأى قمّة تجسّده في بوشكين الناضج الذي عثر على ضالته في أرض الوطن.

وطنية بوشكين وعالميّتة

تمكّن هذا الإنسان الروسيّ المبدع من أن يؤسّس لنموذج من البشر عميق الصلة بجذوره، قويّ الانتماء والاعتزاز بشعبه وحضارته. صورة نايتانا لارينا هي واحدة من الصور التي أدخلت اليقين القاطع على عقلها وقلبها بأنّها تركن إلى شعب يكمن في داخله طاقات روحيّة عظيمة، ولعلّها أوقات قصيرة يتوجّب انتظارها ليتمّ تلمّس الأمل والقدرة الهائلة التي يحملها هذا الإنسان الروسيّ. صورة نايتانا ليست حالة فرديّة، بل هي طاقة كامنة في كلّ روسيّ مخلص لشعبه، يسعى بكلّ ما هو مبدع وجماليّ في القلب والعقل الروسيّ لأن يقدّم الصورة الأكثر إشراقًا للفكرة الروسيّة. والإبداع لا ينحصر عند الأدباء والمفكّرين وكلّ الفئات المنتمية للإنتلجانسيا، بل إنّه مشروع إنسانيّ روسيّ شامل في المدن والأرياف. إلاّ أنّ هذا النموذج لا يمكن أن يقدّم صورة برّاقة للفكرة الروسيّة ما لم يكن منفتحًا وبشكلٍ خلاّق مع إبداعات وإنجازات الحضارات الأخرى. ويرى دوستويوفسكي هذا النموذج ممثّلاً تحديدًا بالروسيّ بوشكين. فهذا الشاعر الذي وجد نفسه خارج دائرة الإغتراب التي عاشتها فئات من الروسية والتي كانت بعيدة عن نبض الشعب وهمومه وهواجسه وآماله. في إحدى مقالاتها تحت عنوان «يوميّات مؤلف»، يرى دوستويوفسكي في إبداع بوشكين صورة من الصور التي تكشف عن بعض أسرار النفس الروسيّة، عن رؤيتها لنفسها وللعالم وللكون.

فبوشكين الوطنيّ الروسيّ الأصيل، كان مواطنًا عالميًّا بامتياز. استطاع بموهبته أن يتفهّم ويتذوّق الخلاّب والمشرق في روح كلّ شعب وشعره على هذا الكوكب. النقاط الجوهريّة التي استخلصها دوستويوفسكي من إبداعات بوشكين الشعريّة والنثريّة هي رؤيته للشعب الروسيّ العاشق للحريّة، الكاره للعبوديّة أيًّا كان مصدرها. وهو الذي يخشع أمام جمالات شعبه وأمام نبض قلبه ونور عقله، يرى في نبض النشاط الإبداعيّ لكلّ الشعوب مصدر إعجاب وإلهام إضافيّ له شخصيًا ولكلّ الشعب الروسيّ. وهنا يكمن البعد العالميّ للشعب، للفكرة الروسيّة. هذه الروح الروسيّة التواقة للتنوير الداخليّ وللعناق مع المبدع

العالميّ، كانت حاضرة في معظم أعمال بوشكين وبالذات في مؤلّفه الخالد «يفغيني أنيغين». فبوشكين الذي صوّر في هذه الملحمة كلّ الجوانب القلقة والمتّقدة في النفس الروسيّة، أراد أيضًا أن يبيّن رسالة شعبه في العالم. ويقول دوستويوفسكي في معرض حديثه عن بوشكين النموذج الوطنيّ المبدع: «قلّما نجد موهبة مبدعة على المستوى العالميّ كما هي متمثّلة عند بوشكين. لقد تميّز بقدرة هائلة على التماثل الخلاّق لإبداعات الأمم الأخرى وأعاد صياغتها وكأنّها جزء لا يتجزّأ من دائرة الخلق الأكثر تألّقًا في ثقافته، وهذا ما لم يصل إليه أي عبقريّ آخر. لقد قلت في كلمتي إنّ أوروبا أعطت للعالم نوابغ فنيّة عالميّة أمثال شكسبير وسرفانتس وشيلر. ولكن لم تكن لأيّ واحد منهم تلك الطاقة التي تميّز بها بوشكين. فهو الذي استطاع بإبداع قلّ نظيره أن يقدّم تلك الصورة المتفاعلة والمتناغمة بين نور الذات ونور الآخر».[١٢] فالصور التي كانت تكشف النموذج أو الوجه الوطنيّ وجاءت على ذكرها أعمال هذا العبقريّ أو ذاك كان يتقمّصها بوشكين حتّى ليبدو وكأنّها منبثقة من الروح الروسيّة نفسها. يكرّر التأكيد على هذا دوستويوفسكي عندما يقول: أضحت صور «فاوست» و«الدون جوان» و«الفارس» وصور أخرى من إبداعات شعوب الشرق والغرب وكأنّها من داخل نسيج الموهبة الروسيّة نفسها...[١٣]

وفي هذا السياق يحضرني الكلام عن القصائد الرائعة التي كتبها بوشكين عن القرآن الكريم وعن النبي العربي محمّد. فهو الذي كان شديد الإعجاب بموسيقى الآيات القرآنيّة وبالشخصيّة الفذّة للنبي محمّد، خطّ يراعه قصائد كثيرة تحت عنوان «محاكاة القرآن» وتمكّن بموهبته الفذّة أن يعكس نورانيّة الرسالة الإسلاميّة وروحانيّتها. وفي قصيدة معروفة له تحت عنوان «النبي»، تقمّص الطاقة النورانيّة المنبثقة من النصّ القرآنيّ، فإذا هي تُنشر ويُعاد نشرُها عشرات لا بل مئات المرّات، الأمر الذي أثار إعجاب كل المتذوّقين للشعر الجميل في بلاده، وأدّى بالتالي ببعض النقّاد وبالكثير من القرّاء التي تزايد حبّهم لشعره حتّى الولع القويّ، وإلى رفعه إلى مقام الشاعر «النبي».[١٤]

١٢- راجع مقالة دوستويوفسكي "يوميات كاتب" من نص منشور له في كتاب "فكرة روسيا: مجموعة مختارة من اعمال "المفكرين الروس". موسكو ٢٠٠٤، ص ١٦٤-١٦٥. (بالروسية)

١٣- المرجع نفسه ص ١٨٥.

١٤- راجع بهذا الصدد كتاب مالك صقور. بوشكين والقرآن، دار الحارس، دمشق، ٢٠٠٠. (بالعربية)

وبعد هذه الجولة في أفكار دوستويوفسكي وأعماله والتي حاولنا فيها أن نحلّل عددًا من جوانب الفكرة الروسيّة، بنقاط قوّتها وضعفها، فإنّ لهذه الروسيّا المترامية على المدى الأوراسيّ الواسع والمميّزة بشخصيّتها الحضاريّة الخاصّة، لها سمة أو نكهة خاصّة تطبع معناها ومصيرها، وهي التي كان دائمًا يردّدها دوستويوفسكي بالقول:» أن تكون روسيًّا حقيقيًّا، أن تكون روسيًّا بالتمام، يعني أن تكون في نهاية المطاف أخًا حقيقيًّا لكلّ الناس، لكلّ العالم... وهنا يكمن الهدف الأسمى للفكرة الروسيّة». دوستويوفسكي الأديب والمواطن العالميّ كان يطمح عن حقّ لأن تكون فكرته الروسيّة كليانيّة وعالميّة. ولعلّه لم يكن الوحيد بين أدباء روسيا ومفكّريها الذين كانوا يؤمنون بصدق بهذا الخيار.

د. نيكيتا ستروفه

دكتور في العلوم اللغوية. أستاذ الأداب الروسية والسلافية في جامعة السوربون

روحانية روسيا في إبداع دوستويفسكي

بداية أودّ أن أستبق موضوع البحث الذي طلب منّي بعدد من الملاحظات العامّة. فممّا لا شكّ فيه أنّ دوستويفسكي إنسان روسيّ بكلّ ما في الكلمة من معنى: بالشكل والتربية والطبع والحماس المفرط أحيانًا. وقلّما نجد فيه صفات العقلانيّة والوسطيّة المعروفة لدى الغربيّين. ومن ناحية روسيّته يشبه دوستويفسكي تولستوي، أمّا بالنسبة لمعاصرينا فهو أشبه بسولجينيستين. بيد أنّ هؤلاء الكتّاب الثلاثة الروسيّين حتّى النخاع، والذين لا يمكن تصوّرهم في تمظهر غربيّ، حقّقوا شهرة عالميّة، وغدا صوتهم مسموعًا في كلّ العالم وسيبقى طويلاً كذلك: تولستوي هو هوميروس الروسيّ، ودوستويفسكي هو أسخيل الروسيّ، أمّا سولجينيستين فهو فوكيديد الروسيّ مع إضافات من دانتي. هذا الواقع يدفعنا إلى فكرة متناقضة: يصبح عالميًّا ذاك الذي يتجذّر عضويًّا وبشكل عميق جدًّا في بلاده وشعبه وروح وطنه وبالتالي في روحانيّته.

ومن جهة أخرى نرى أنّ طريق دوستويفسكي نحو الله والمسيح كان شخصانيًّا وذاتيًّا للغاية، ولم يكن مرتبطًا بالضرورة مع البيئة والجذور، الأمر الذي يميّز العباقرة الذين يقودهم الوحي والإلهام ويضع عليهم ختمه. (وهذه هي الحال مع سولجينيستين حاليًّا).

إنّ مسيرة دوستويفسكي الواعية مرّت في بداياتها عبر الخصائص الفريدة للحياة الدينيّة الروسيّة، لكن من دون الانغماس فيها كما يبدو، لا بل إنّ العكس هو الأصحّ. والواقع، كما أقرّ به الكاتب نفسه، أنّ الشعور الدينيّ لديه زرع فيه منذ طفولته بواسطة مربّيته وأمّه والصلوات وزيارة الأديرة، ومنها على سبيل المثال مجمّع الكنائس في مدينة سرغييف. ومن ثمّ خفت بريق الإيمان الطفوليّ، وتمّ نسيانه، وحلّ مكانه الاهتمام بالأفكار الاجتماعيّة التي كان للمسيحيّة دور أو مكانة ثانويّة فيها.

---

* ترجم النص الى العربية وليد عيتاوي

إنّ تحوّل القناعات حدث عبر المأساة الشخصيّة، عبر القصاص الرهيب بدون ذنب واضح، وعبر الرؤيا السحريّة عام ١٨٤٩ قبل إعدامه رميًا بالرصاص والذي ألغي في الدقائق الأخيرة ووضع دوستويفسكي وجهًا لوجه أمام الأبديّة.

استمرّ هذا التحوّل خلال عذابات طويلة في المنفى والإهانات وانعدام الشهرة، وخلال القلق الروحيّ، وبعد دخوله المنفى عبر لقائه «المباشر» بالمسيح الموجود على صفحات الإنجيل. والمعروف أن زوجة الثائر الديسمبري (نسبة إلى ثورة شهر كانون الأول – ديسمبر) فون فيزين قد أهدته كتاب الإنجيل في مدينة توبولسك حيث منفاه. ولم يفارقه هذا الكتاب فيما بعد طوال حياته.

إنّ صورة المسيح لم تفارق دوستويفسكي حتّى مماته: لذا يمكننا بكلّ جرأة أن نؤكّد أنّ رؤيا دوستويفسكي تعتبر بمجملها مسيحانيّة، مع العلم أنّه كان يفهم المسيح ليس فقط كإله ولكن في إطاره الإنسانيّ كشكل من أشكال الكمال الذي يصعب تحقيقه.

إلى جانب تعرّفه بالمسيح، ينبغي أن نضيف أن دوستويفسكي كان يعاني بعد سنوات المنفى من مرض القدّيسين (الصرع) فيشعر أثناء نوباته بإحساس التناغم مع الوجود، وبنشوة الجنان (الأمر وهو الذي لا يتّفق وهذا المرض؛ بالمناسبة ما دفع فرويد لنفي هذا المرض عن دوستويفسكي).

كان دوستويفسكي يعي أنّ شعور النشوة يرتبط بمرضه. وعلى الرغم من هذا كان يعتبر أنّ هذه النشوة وإن كانت ذاتيّة مجرّدة، إلاّ أنّها لا تقلّ واقعيّة.

في تلك اللحظات من حياة دوستويفسكي وفي محاولة للتركيز على الموضوع الذي نتطرّق إليه، أذكر بما يشبه التأكيد أنّ العالميّة يلزمها التجذّر، كما يلزمها بالنسبة نفسها بعض من الحريّة الديالكتيكيّة عن هذا التجذّر عبر إلهام سماويّ وعبر المساس بالعوالم الأخرى.

وقد انعكس هذا كلّه في نتاج دوستويفسكي. ويمكن اختصار الرسالة التي نقلها الكاتب للعالم عبر خماسيّته الأدبيّة الروائيّة الرائعة: في أوّل روايتين يحضر المسيح من دون علاقة بالروحانيّة الروسيّة المميّزة: في «الجريمة والعقاب» عبر قراءة سونيا مارميلادوفا لأعجوبة إحياء أليعازار في الإنجيل. وفي «الأبله» عبر محاولة بالغة الجرأة بإدخاله صورة واقعيّة للإنسان الكامل في نتاج أدبيّ، صورة قريبة للغاية من المسيح نفسه. سونيا مارميلادوفا تُطلّ على الشخصيّة الشهيرة لدى فيكتور هوغو للبؤساء من النساء، فتصبح

انعكاسًا روسيًّا لكوزيت المكلّفة بمهمّة مسيحيّة. أمّا الكونت الميشكين فيظهر من الغرب المتنوّر، الغريب عنه، ليجسّد أمام المجتمع الروسيّ «نور المسيح الذي يطهّر الجميع». كما يظهر انسلاخه عن العالم وانغماسه في آن واحد، نجاحه وفشله المأساويّ. كلّ هذا يفوق كلّ المفاهيم الروحانيّة وتلوّناتها القوميّة.

إن عملية البحث عن قديسين روسيين بدأت عمليًا في رواية «المسكونون»، حيث كان على دوستويفسكي أن يضع في مواجهة الكفار الروس الذين يدمرون الوطن ما أسماه Fraternité ومليوني رأس بشري، وكأنّها نبوّة حقيقيّة (والخطأ كان فقط في عدد الضحايا الذي يجب أن يكون ٢٢ أم بالحريّ ٦٢) حول تجلّيات واقعيّة محدّدة قوميّة للخير والقداسة.

حتّى تأليف دوستويفسكي لروايته «المسكونون» لم يكن لديه لقاءات حيّة بممثّلي الكنيسة الروسيّة. لكنّه كان مطّلعًا على الكتب التي تؤكّد اهتمامه بالتقليد الأرثوذكسيّ للرهبنة.

وأثناء إقامته في باد إيمس (ألمانيا) كانت مكتبته تحتوي على مؤلّف للقسّ (الراهب) بارفيني، صدر في موسكو عام ١٨٥٦ ويحكي عن رحلاته بين الأديرة في مولدافيا والشرق وروسيا، وعن لقاءاته بعدد من الأخيار ومن ضمنهم لقاء عابر بالقدّيس سيرافيم ساروفسكي. إنّ إنتماء هذا الكتاب لمدار الحياة الروحيّة لدوستويفسكي – كما كتب فوديل أحد أهمّ الباحثين في القناعات الدينيّة للكاتب – لهو دليل قاطع أنّ الكاتب فتح أمامه بوّابة كنيسة المدينة الضائعة (المدينة الفاضلة) وأدخله إلى عالم أولئك الأخيار والقدّيسين الذين عاشوا في القرن التاسع عشر، هذا العالم الذي تعلّم البحث عنه منذ الطفولة».

في رسائله ودفاتر مسوّداته عن رواية «المسكونون» يذكر دوستويفسكي مرارًا كتاب الراهب بارفيني، بيد أنه استعمل منه في روايته مشهدين فقط ويتمتّعان بروح النكتة.

ولكي يضع صورة الرجل الخيّر المنيرة ابن الشعب بوجه المسيح الدجّال ستافروغين ومن حوله من مدّعي الرسوليّة، يلجأ دوستويفسكي للقدّيس تيخون زادونسكي (١٧٨٣–١٧٢٤): «أريد أن أظهر تيخون زادونسكي كشخصيّة رئيسيّة. وطبعًا تحت اسم مستعار لراهب آخر، يعيش في سلام، لعلّي أتوصّل إلى ماهية هذه الشخصيّة القدّيسة الإيجابيّة والعظيمة.

إنّه ليس كوستانجوغلوس، وليس الألمانيّ في رواية «أوبلوموف»، وليس من صنف آل لابوخين ولا آل رحميتوف... والحقيقة أنّني لا أخلق شيئًا جديدًا وإنّما أُظهر تيخون الحقيقيّ الذي تقبلته أنا بقلبي منذ زمن طويل وبكل إعجاب وتقدير. ولكن إن استطعت فسأعتبر هذا الأمر إنجازاً هامًّا بالنسبة لي. هذا ما كتبه دوستويفسكي في رسالة عام ١٨٧٠ على ضوء فشل خطّته الأدبيّة لرواية «حياة خاطئ كبير» التي تحوّلت فيما بعد إلى رواية «المسكونون».

من الصعب اكتشاف لحظة تعارف دوستويفسكي بصورة القدّيس تيخون. والأرجح أنّها حدثت في عام استرداد رفاته وإعلانه قدّيسًا (١٨٦٢–١٨٦١) عندما أعيد إصدار مؤلّفاته؛ فثمّة مقاطع عن تيخون تسربت إلى «المسكونون» وكان ينبغي لها أن تشكّل البنية التشكيليّة للرواية. بيد أنّ مشكلة ظهرت لدى دوستويفسكي تجاه واقع الكنيسة المتناقض والثقافة الكنسية في روسيا المعاصرة له آنذاك.

لم تسمح الرقابة بإدخال ثلاثة مقاطع عن حياة القدّيس الروسيّ في رواية مدنيّة، ما حرمها فيما بعد من النور. ولا غرو أن دوستويفسكي كان يعتبر الكنيسة الروسيّة في وقته «مشلولة» لشدّة ما تحميها الدولة. ولم يكن لجوؤه لشخصيّة القدّيس تيخون عبثًا لقربه من الشعب، ولأنّه رافض لسلطة رجال الدين، ولأنّه كان يفضح في كتاباته «الإيمان الرسميّ الفاتر»، والتديّن الكاذب للمجتمع الروسيّ، ولأنّه كان يركّز كلّ مواعظه على الإيمان الفاعل بواسطة الحبّ والرضا.

ومن الجائز أنّ الحظر على مقاطع تيخون المذكورة (والتي أصبحت معروفة لدى القارئ عام ١٩٢٢) حفزّت دوستويفسكي في روايته الرابعة «المراهق» لأن يلجأ لقدّيس لا مكانة له مطلقًا في الكنيسة ولا علاقة له البتّة حتّى بحياة الأديرة ألا وهو الراهب الشعبيّ ماكار ايفانوفيتش. لقد كان دوستويفسكي على معرفة بمفهوم الهيمان (من فعل يهيم على وجهه) ليس فقط من كتاب الراهب بارفيني الذي أشرنا إليه أعلاه، وإنّما من صديقه الحميم في سنوات الشباب شيدلوفسكي، المحامي ذي الأصل الرفيع والذي ارتدى لبوس الهيمان وأخذ ميثاق الرهبنة الصغرى.

الهيمان – ليس فقط حجًّا إلى أماكن مقدّسة معروفة وتنتشر ليس فقط في كلّ العالم المسيحيّ، وإنّما هو هيمان دائم وإحساس بعدم الارتباط بأيّ شيء في المجتمع أو بأي مكان. ولعلّ هذه هي أهمّ ميزة في الروحانيّة الروسيّة. وهي ترتكز على التقليد الحرفي

لصورة المسيح في الإنجيل «الذي لم يكن لديه مكان ليركن إليه رأسه»، لكنّها من دون أدنى شكّ مرتبطة بضخامة الروابي والسهوب الروسية وبشعور وجود الله في جمال الخلق. «ما السر؟» يسأل ماكار في رواية «المراهق»: «كلّ شيء هو سرّ، يا صديقي. في كلّ ما تراه ثمّة سر الإله! في كلّ شجرة، في كلّ حكاية تجد هذا السرّ مخفيًّا. ذاك عصفور صغير يزقزق، وتلك نجوم تلمع في قبة السماء ليلاً – كلّ هذا سرّ... سرّ متشابه... جمال مطلق لا يمكن وصفه!»

في كتابه Magnum opus عن دوستويفسكي يسمّي موتشولسكي هذا الإعجاب المنتشي أمام سرّ الخلق وجماله بـ «الواقعيّة السحريّة»، فيبدو لنا أن دوستويفسكي قد استوعب برهافة إحدى أهم خصوصيّات الروحانيّة الروسيّة: الإحساس بالطبيعة الصوفيّة للعالم، التي لا تنفيها خطايا الإنسان، وتجربة الحبّ الكونيّ الذي يتفتح الوجود أمامه في جماله الأوليّ لدى أولى لحظات الخلق.

لقد بدأنا من تأكيد أن رؤيا دوستويفسكي منذ البداية وفي مجملها مسيحانيّة. ولكن مع مرور الوقت نراها تمتلئ بالكونيّة. وإذا كانت المسيحانيّة تشكّل جانبًا ذاتيًّا في تكوينه الدينيّ، فإنّ الكونيّة في الغالب أُوحيت إليه بفضل الروحانيّة الروسيّة. فالكون ليس فقط وببساطة طبيعة جامدة! إنّه أمّنا الأرض الطيّبة، وفي أمومتها يصبح الكون بداية أنثويّة للوجود. وعلى مثال الأبطال الخاضعين المشوّهين (الأعرج) والمعذّبين وأحيانًا الضائعين والمنتظرين (دون جدوى غالبًا) لمن يخلّصهم، يرى دوستويفسكي في النساء المشاركات في إنقاذ العالم شيئًا من أنوار والدة الإله. يمكن أن تكون تلك النساء خاطئات وحتّى أن يخضعن لليأس والقنوط لدرجة الانتحار (رواية «الخانعة») ولكن ما يثير انتباهنا أنّنا لا نجد مجرمات بين شخصيّات دوستويفسكي النسويّة.

الرواية الأخيرة لدوستويفسكي «الأخوة كارامازوف» يعتبرها الجميع محصلة لكلّ إبداعه. لهذا بقيت غير منتهية: حتّى العباقرة عاجزون عن نطق الكلمة الأخيرة! ولكن قبل أن يباشر الكتابة كان مقدّرًا لدوستويفسكي أن يمرّ من خلال تجربة أخيرة في حياته ألا وهي موت ابنه الصغير ألكسي، الأمر الذي حداه ليحجّ في حزيران يونيو ١٨٧٨ إلى «دير أوبتينا» قلب الحياة الروحيّة الروسيّة في ذاك الوقت، وللقاء شخصيّ بالراهب العجوز الشهير أمفروسي.

ومن غرائب الصدف أن يرافقه في حجّه صديقه الشاب فلاديمير سولوفيوف، واضع مبادئ البعث الفلسفيّ الدينيّ واللاهوتيّ مطلع القرن العشرين. ولم يترك دوستويفسكي ولا سولوفيوف لنا أيّة مذكّرات عن رحلتهما هذه، بيد أنّها أصبحت من دون شكّ حافزًا رئيسيًا لكتابة رواية «الأخوة كارامازوف»، التي ينتصب فيها شخص الراهب زوسيما وتلميذه إليوشا كارامازوف كعمود السفينة، بالإضافة إلى حياة الدير. ولكن، وكما أظهر فوديل بدقّة، فأنّه من التبسيط الفادح أن نعتبر الراهب أمفروسي هو الأساس المطابق لشخصيّة زوسيما، لأنّ مصادر خلق هذا العجوز الراهب متعدّدة (وهذا ينطبق بالمناسبة على كلّ الشخصيّات لدى كبار الكتاب). هنا نستذكر كتاب بارفيني مع لوحاته الكلاميّة التي تصف رهبان مولدافيا ومنطقة أفون، وشخصيّة تيخون زادونسكي، ولكن المصدر الرئيسيّ يمكننا تحديده بكتاب صدر عام ١٨٧٥ قبل مدّة وجيزة من زيارة دوستويفسكي لدير أوبتينا، وهو بعنوان «قصّة حياة الأب القديس ليونيد»، (وقد وجد هذا الكتاب في مكتبة دوستويفسكي، ولكن السؤال: هل قرأه قبل زيارة أوبتينا أم بعدها، ليس بذي أهميّة). كان الأب الراهب ليونيد من دير أوبتينا، وقد توفّي عام ١٩٤١ وهو مؤسّس الرهبنة الأوبتينيّة، التي أصبحت ظاهرة جديدة في معظم جوانبها الرسوليّة في الحياة الكنسيّة الروسيّة. وباختصار يمكن توصيف الرهبنة الأوبتينيّة كتوجّه يفتح أبواب الدير للعالم، لشعب الله بكلّ احتياجاته، ليس فقط الروحيّة وإنّما النفسيّة واليوميّة الحياتيّة. وبهذا أعلنت عن طريق جديد، مرغوب فيه جدًّا للرهبنة في العالم، كما في خضمّ الحياة العاديّة للبشر. رواية «الأخوة كارامازوف» وبشخص زوسيما وفيرابونت تضع شكلين من أشكال الروحانيّة بعضها مقابل بعض: الأوّل يرتكز على «الانجازات الشكليّة الخارجيّة» وهو قاسٍ يؤدّي إلى الكبرياء والعجب بالذات، وإلى خداع النفس وبالتالي إلى الموت. إنّ شخصيّة فيرابونت الذي ينتحر في آخر الأمر ليست من اختراع دوستويفسكي؛ فقد وجدها في كتاب «قصّة حياة ليونيد» حيث يجري الحديث عن راهب حبيس في دير سوفرونوف واسمه فيودوسي يعتبره الناس وليًا قدّيسًا يوحى إليه مباشرة من الروح القدس الذي يبدو له على شكل طائر. ولقد شكّك الراهب ليونيد في حقيقة هذه الروحانيّة وحذّر منها ذاك الحبيس والمشرف عليه. وبعد مدّة وجيزة علم أنّه شنق نفسه!...

إنّ الثنائي فيودوسي- فيرابونت في قصّة «حياة ليونيد» وفي رواية «الأخوة كارامازوف» يُواجه «بالسعادة الدائمة» للراهب ليونيد وبكلمات زوسيما القائل: «يا

إخوتي إطلبوا الفرح من الله!»، وبالمزاح و«بالبساطة الروحيّة الطفوليّة المسيحيّة»، وبالعلاقة الحرّة بقواعد وشروط الزهد.

ومثلما كان الأب ليونيد كان دوستويفسكي أيضًا واثقًا من أنّ الراهب لا تصنعه الثياب الخارجيّة، وإنّما رداء «التعفف الداخلي». ومن المعروف أنّ كثيرين كانوا يدينون دوستويفسكي على «المسيحيّة الورديّة الجديدة»، ومنهم على سبيل المثال قسطنطين ليونتيف المؤمن بالمسيحيّة البيزنطيّة، والذي كان حادّ الذكاء، لكنّه عبوس ومتشائم إلى درجة اليأس ويبدو ذا حياةٍ سعيدة خارجيًّا ومتناقضة جدًّا داخليًّا. مثل هذه الاتّهامات تظهر حتّى في أيّامنا الحاليّة. وعلينا أن نعترف أنّ الروحانيّة الروسيّة كسواها من الروحانيّات المسيحيّة ليست متجانسة، لا بل متناقضة من الداخل: فمن جهة نرى زهدًا قاسيًا، يصل إلى حدّ إنكار روعة لاوجود وفرح الحياة، زهدًا لا كَونيًّا ومعه التزام أعمى بتطبيق القواعد والقوانين على حساب الحريّة والإبداع والحبّ يضاف إليه التسلّط وشغف الأشياء (أو كما عبّر عنه بولغاكوف بـ: «حبّ الأشياء»)؛ ومن جهة أخرى هناك التشبّه بالمسيح في السعي الداخليّ وحبّ التضحية والحبّ الكامل، ليس فقط للإله، وإنّما لكلّ مخلوقاته مع رفض التقديس للشكل، بعيدًا عن كلّ سلطة أو تسلّط وعن كلّ شيء استعراضيّ وخارجيّ. كان دوستويفسكي يعي هاتين الجهتين للروحانيّة الروسيّة، وأنّ ثمّة حالات ممكنة تندمج فيها الجهتان بطريقة ما، وتتوافقان وتتضافران، لكنّه في نتاجه الإبداعي قام بإعلاء شأن الروحانيّة الداخليّة الحرّة والسعيدة والناظرة إلى الوجود، كما قام بفضح الطرق المسدودة والعقم لدى «الروحانيّة» المعاكسة.

في هذا المعنى يمكننا القول بأنّه ليس فقط وريث ورسّام الروحانيّة المسيحيّة الروسيّة، ولكنّه شريك حيّ لها ومبدع فيها.

Joseph R. Yacoub
Ph.D in Philosophy of Education

Children in Dostoevsky: The Case of the Idiot and The Brothers Karamazov

Abstract

Children in Dostoevsky are not limited to an age group. We are all the children of God. Childhood refers to birth and rebirth: it is a new beginning whether in the psychological or the spiritual realm. When children explore the world they come to apprehend it with unmediated intuition. They live the indefinable, i.e., the inner tranquility. In time, this apprehension becomes intertwined with the rational faculties. Allying the "indefinable" with the rational qualities in one human force leads the human beings to a state of transformation exemplified by regaining the inner tranquility, which is the spiritual characteristic of childhood. This is simply understood in the French proverb "Reculez pour mieux sauter". This means that one must go backward that he /she might have a better jump. Regaining the spiritual element of childhood means bringing forth the state "closest to the divine" or the "Nirvana". The tranquil intuition of childhood joins forces with the rational faculties of the adult person and paves the way to a continuous birth and rebirth.

From Franz Kafka to Dostoevsky:

There is no doubt that the achievements of our contemporary time are admirable, but I fear its temper; and the speed of its pulse worries me. A temper expressed in speed hides a forgetfulness, which borders on amnesia. In this vein, R. P. Malagrida tells us, "Speech has been given to man to hide his thoughts" (Standhal, 153). This issue of hiding seems to be a serious business. When we were children we played hide and seek. With such thoughts in mind, I ask myself the question: what are we hiding, and what are we seeking? My answer is: the more we hide our childhood, the more we seek it.

Franz Kafka in his celebrated novel *The Metamorphosis* shows us that our functional-materialistic time not only hides what personhood means, but also paves the way to its nonexistence. Poor Gregor, the bread provider, when he got to the point of being dysfunctional, even his family wished his nonexistence. Kafka teaches me to ask questions about our contemporary time: are we conceived as dutiful people with certain functional roles, which by breaking in on

our lives rob us from our personhood? Are we confirmed as persons or as instruments for materialistic productivity? Are we put in a situation where the inexpressible meanings derived from the archetypal representations will ever be pushed away into the land of the forgotten? Are we being normalized in such a way that a falsified peaceful monotony evades the conflicts that necessitate the revelations of a transcendental solution?

Many literary figures say that Kafka's literature is a "psychological-mirror-writing". If so, we cannot but consider Kafka as a rebel who desires a "repair" or a "turning back" to the point where he could say " Once I was a tranquil child", and this, despite his own oppressed childhood—a childhood that was tainted by an oppressive father. Since childhood is tranquility, I assume that his childhood helped him bear tranquilly the whips of an oppressive father. It is the tranquille patience, the essence of childhood, which has persisted in the life of such persons.

From Kafka's psychological mirroring, I looked to Dostoevsky that I might find answers to my questions. Like Kafka, Dostoevsky was also a child who suffered the oppressive treatment of his father. He ventured to dive into the depth of the human ocean that he might discover the tranquil-patience of the child. Should I go back to the beginning of this paper, I venture to condense all the questions I asked into one question: is our functional-materialistic time pushing our childlike nature into the land of the forgotten? Our contemporary time necessitates such a question; for persons are not only coming face to face with the absurdity of life, but also coming face to face with the deadly normalization of the absurd and the mechanization of the human being. In other words, our contemporary life robs us of our childlike nature, i.e., childhood. So, what is this childhood, and who are those children in Dostoevsky's masterpieces, *The Idiot and The Brothers Karamazov?*

Reading Dostoevsky:

Reading Dostoevsky we come to know that the more we understand the more our understanding becomes impertinent. It is like a task I am willing to undertake, but which I don't really understand. Or like a journey I intend to make to a destination not clearly seen. Like life, Dostoevsky's ideas keep surprising us, and the more we are surprised, the more his ideas fade away. Unending details blend themselves in a totality, which reveals itself in as much as it conceals itself. Dostoevsky resuscitates our childhood in us; and like children we scan life with an astonishing calm pause. He exhausts our intellect and brings our faculties to a blissful rest. I call this blissful rest: presence.

In *The Idiot* this blissful rest is represented in the person of Prince Myshkin, and in *The Brothers Karamazov* it is represented in two characters: Alyosha and Father Zossima. These three characters bring freshness to the people they

encounter and also assume a delicate presence through which "mysterious wordless" relationships are revealed. In this paper, only Prince Myshkin and Alyosha are going to be considered. Father Zossima, despite his saintly character, is not conveyed to the reader as having a special relationship with children, although we might say that Father Zossima appears as a child himself.

For Prince Myshkin and Alyosha children are the poetry of life. In them life is not constrained by norms and rules as it is the case with adults. Children teem with life; and because they teem with life, oftentimes, we experience them as hanging between the lack of inner constraint and the impinging accidental arbitrariness of life. In *The Idiot*, Dostoevsky describes children as birds. In their flying, birds use space as space-less. Frontiers are not familiar to their nature, nor are visas given to them for their emigration; they are welcome everywhere. Truly, children are like birds; their strength lies not in their fragile receptive nature, but in their ability to accept and live their weaknesses in a harsh and absurd world. Novalis, shortly before his death, says, "To be childlike: that is best of all. Nothing is more difficult than bearing one's own weakness"(Von Balthasar, Epigraph). Bearing one's own weaknesses is a strength in itself because of the capability for patience from which springs the desire for perfectibility.

Influences on Dostoevsky:

That said, it is worthwhile to examine the influences, which made Dostoevsky search for such childlike qualities. Dostoevsky's soul is thoroughly "Russian", and this leads him to search for what is universal in the soul of children. This universality escapes the individual experience. Konstantin Mochulsky in his book *Dostoevsky* teaches us that the mystical-pragmatic thought of Nicolai Fyodorov polished Dostoevsky's thought.

In his letter to N.P. Peterson, Dostoevsky writes, "I will say that in essence I am completely in accord with [Fyodorov's thought]. I read his [thought] as though I might have written it myself". (Mochulsky, 567) Fyodorov has the philosophy of the "common task" which fully acknowledges human being's creative power in social, scientific and technical innovations. Religion for him is a spiritual force, which binds all these creative powers. This is to say that the kingdom of God is the culmination of "God-manhood" process, which is the antonym of the situation where human beings are divided upon themselves; for divisions among the human beings paralyzes the spiritual force of religion. Accordingly, the purpose of the human task, for Foydorov, is the "brotherhood" of all human beings; from the feeling of "brotherhood" stems the feeling of "sonship". "Brotherhood" and "sonship" cannot be accomplished without being tied to parenthood. Like Fyodorov, Dostoevsky declared war on the socialists and the communists of his time claiming that one cannot build the "brotherhood" among human beings on bread alone apart from "fatherhood", i.e., God. One can understand that what the socialists and the communists were building was an orphanage for the human

beings wherein the "Father" would be absent.. Here, religion is understood in terms of a mystical relationship with God as well as with all the human beings. Through this relationship the quality of life is transfigured: the human being becomes a child permanently desiring the Father.[1] Such a desire implies psychological and spiritual transfiguration, which act as the antithesis to the normalization of the absurd in our contemporary life. This type of transformation transfigures biological love into filial love. In other words, the child in us, or should I say, being permanently children of the "Father" makes transformation possible. Hans Von Balthazar teaches us that whenever we experience spiritual rebirth we experience it as children (Von Balthasar, 11). It is a return to one's own beginning (Ibid,9). Every transformation is a new beginning. It is childhood.

Children for Dostoevsky:

On this account, we understand that childhood for Dostoevsky is not only a stage as it is the case with Piaget and Kholberg. Childhood as a beginning provides the person with the "instrument of his striving". It is to the person as a moment is to time. It is the readiness, which acts as a "refuge" as well as an anticipation. Refuge denotes a place; readiness points to activity; an activity to "being-for", and an activity that the child is and will be his/her own person. Also, childhood in the person is the ground on which the life of the person finds repose. In Christian theology, it is the ground closest to God and in Freud's psychoanalysis it is the ground closest to the "Nirvana" time, which is extended to the presence of the mother in the child's life. Closer to God, or closer to the state of "Nirvana", childhood forms a unity with life the same way the moments form the unity of time. This is best exemplified in the person of Prince Myshkin in *The Idiot* and in the person of Alyosha in *The Brothers Karamazov.* This is how Dostoevsky describes Alyosha.[2]

In his childhood and youth he was by no means expansive, and indeed, talked little, but not from shyness or a sullen unsociability; quite the contrary, from something different, from something different, from a sort of inner preoccupation entirely personal and unconcerned with other people, but so important to him that he seemed, as it were, to forget others on account of it... he did not care to be a judge of others... He seemed, instead, to accept everything without the least condemnation though often grieving bitterly; and this was so much that no one could surprise or frighten him even in his earliest youth. (Karamazov, p.13).

1- I would like to remind the reader that Freud's psychoanalysis is not a stranger to this religious concept. It is explained in the concept of the Father in Totem and Taboo and also the desire of the child to complete himself in being a father.

2- It is worth noting that all literary critiques agree that *The Brothers Karamazov* is the end result of Doetoevsky's thought. Accordingly, one can understand that Alyosha is the final portrayal of what Dostoevsky alluded to in the character of Prince Myshkin in *The Idiot*. The only difference is that Alyosha is portrayed as a healthy person who is unlike Prince Myskin who suffers from epilepsy. So one can assume that whatever is spiritually said about Alyosha applies to Myskin.

Alyosha as well as Prince Myshkin gained the hearts of all the members of their families. They acted from no design or artfulness. Though they looked dreamy and solitary, they always seemed bright and good tempered. Finally, they captivated the hearts of the children around them. They are both a pleasure to anyone who receives them. Simply speaking, the bravado attitude is not part of their character, and the bravado statements are not part of their language. What matters to both of them is life/Life not her meaning, "Life is a paradise and we are all in paradise, but we won't see it, if we would, we should have heaven on earth the next day" (Ibid, 267).(3) This tells us that life/Life is the meaning one has to have.

Based on the above, I claim that both Alyosha and Myshkin live the mystery of life/Life. Unlike Shakespear's character Hamlet in his disquieting soliloquy "To be or not to be", both live the beyond without asking for it. That is why both characters put up with everything. Like children they find repose in their nature despite all the pains they go through; and the place where they find repose is holy. Here Dostoevsky's brilliance simply shines. Here the human being not only lives by the suggestion of mystery, but, the "human being is the suggestion of mystery" (Ibid, 701). And just as time without the continuous mystery of its moments is empty and fragmented and not really 'time' at all, as it has no unity, so human life without the continuous mystery of childhood, is not really a human life at all. Again, I repeat that childhood is closer to the ground and mystery of Being. This closeness makes both Myshkin and Alyosha approach the world with filial love. With love I accept the past, i.e., forgiveness, with love I accept the present, i.e., realism and with love I accept the future, i.e., courage. Love as grounded in the divine, forms the unity between our past, present and future, i.e., our adulthood with our childhood will ever give us the ability to live with joy; for "fear is the consequence of falsehood (Ibid, 49). Dostoevsky rightly says that we are "all babes" (Ibid, 560) as long as our childlike nature escorts the movements of our living time.

An Ideal is Needed: Life:

I apologize to my reader if I have led you to a farfetched, ideal realm of living—possible only for mystics, but my interest in the ideal is not without a reason. I am trying to find ways, with the help of Kafka and Dostoevsky, to recover authentic "personhood" in an absurd modern world that reduces the human person to external, material function. In addition to Dostoevsky and Kafka,

---

3- John O'Donohue in his book *Beauty: the Invisible Embrace* introduces the concept of Terra Illuminata, " Eros is the light of wisdom that awakens and guides the sensuous. It is the energy that illuminates the earth. Without it, the earth would be bare, cold planet; for Eros is the soul of the earth. In the embrace of Eros the earth becomes the terra illuminata. Amidst the vast expanse of fields and seas, the providence of Eros awakens and sustains the (...) of the earth... Eros is the mother of life, the force that brought us here (152)

Rousseau's *Emile* and *The Social Contract* have also aided me (I am particularly indebted to Leo Damrosch's interpretation). He tells us that Rousseau offers us an ideal situation, against which we might be able to measure our actions. The same is true for our contemporary time. We need an ideal against which we measure our compromises as well as our situations. Still governments fight for their power and for their interest; still mystics pray for themselves as well as for the world, and still they do benevolent actions that they may bring comfort for this distressed world; still many of the students of science search for facts that they may bring security to their searching minds; still our academic world glorifies the intellectual and gives little attention to the spiritual; and finally, still many fall victims to rejection and abjection. Here on this spot of a broken time, Franz Kafka would look with a wondrous pity at Ivan Karamazov, whose life, despite his implicit childlike nature, is isolated in his intellectual endeavors. As Gregor in Kafka's *The Metamorphosis* is isolated by his family, Ivan is led to a similar isolation by his intellect which led him to his torturous dream. Since Ivan is the prototype of characters who isolate themselves from their childlike nature, I would like to focus upon him briefly in order to shed more light on the point I am investigating, i.e, the importance of childhood in our striving lives, and how its absence diverts persons from the ground of their spiritual being.

Contrary to Myshkin and Alyosha, Ivan refers to the suffering of children not out of compassion, but in order to justify both the absurdity of life and his inability to accept God's world. Ivan approaches life/Life from an individualistic, intellectual stance rather than from a universalistic sense. True, Ivan wants to eliminate the suffering of the human beings, particularly children; his ideal is not life/Life, but the human life; a human life perfected not by the sacred and the perfect, but by an individualistic intellectuality. In this sense, reason takes over mystery. Ivan diagnosis, but he does not cure. His superb logic and attractive rationality inspire his brother Smerdyakov to become a murderer. Ivan's exhaustible intellect causes the devil to visit him in his nightmares. Not that Ivan is incapable of love, on the contrary, he has great compassion for his accused brother Dimitry. His weakness lies in the irresistible promptings of his cold individualistic rationality. He cannot trust the universal. Although his inner childlike nature remains inhibited, occasionally, like a slip of the tongue, his great trust in his brother seeps out. What is drowsy in Ivan is his inner sense of penitence, which gives way to the awakening of a despairing nightmare as the expression of his inner guilt. Ivan is rational, responsible, and humane, but he consciously does not give way to the sacred. He resists childhood for the sake of the intellect. He resists the pure sensation of living. He defines situations rationally, rather than by mere living, as children do. In *The Idiot*, we encounter Ivan's types. For example, Nastasya Filipovna who keeps running away from her impending situations, Ganya in his reckless ambition to be counted as a member of the high class, Roghozin in his unrestrained desire for Nastasya Filipovna—a desire as intense as his conviction that money can buy talent. None

of these characters prudently use their passions. Their image of themselves is built on a shallow entanglement of their psychological individualistic self with the absurdities of the world. They comprehend the world through their ambition, their greed, and their psychological turmoil; they unconsciously starve for the ideal. Starvation for the ideal, as I understand it, is the same as starvation for love. What these characters have in common is that they inhibit the ideal against which they measure their intentions and their actions.

Between Ivan and Alyosha we have the third brother, Dimitry, who is falsely accused of his father's murder. Dimitry opens himself to the universal and to what the universal reveals to him. As a child he experiences rebirth, which like a purifying river, washes away his sins. He experiences penitence and moves forward using his consciousness to experience all living things, particularly the container of all living things: Existence. He eloquently unfolds to his brother Alyosha his transfigured heart, " Yes, life is full, there is life even underground", (Karamazov, 560). He continues, "You would not believe, Alexey, how I want to live now, what thirst for existence and consciousness has sprung up in me within these peeling walls... What is suffering? I am not afraid of it, even if it were beyond reckoning. I am not afraid of it now. I was afraid of it before" (Ibid,560). In this quotation one sees how joy and tranquility exist in the midst of suffering and unhappiness. It is a freedom not bestowed on us from somewhere, but it is what makes us alive and makes us choose life at any cost. It is the stuff of life. I repeat, life in us is the suggestion of mystery, and it is in this mystery that we experience our freedom. From Nicholai Berdayev's perspective, freedom is the essence of being. It is what makes us persons. Here, emotions, feelings, and mind blend together to make us feel the world within us and the world external to us. As such, the absurdity of the world with its profanity is not transformed by only ideas, but by the will to live, which unfolds out of love. Josef Pieper, in his book *Faith, Hope, Love,* teaches us that love is the primal act of willing. Through this love of life/Life the profane for Dostoevsky can only be transformed through the sacred. Dimitry is a child again. He is reborn again. The "defenseless heart" of children as well as their powerlessness has their inexorable readiness for transformation. With more enthusiasm Dimitry continues:

Do you know, perhaps I won't answer to the trial at all... and I seem to have such a strength in me now that I think I could stand anything, any suffering, only to be able to say and to repeat to myself every moment, 'I exist.' In thousands of agonies – I exist. I am tormented on the rack – but I exist! Though I sit alone on a post –I exist! I see the sun, and if I don't see the sun, I know it is there. And there is a whole life in that, in knowing that the sun is there. Alyosha, my cherub, all these philosophies are the death of me. Damn them! (Ibid, 561).

At these moments reason loses some of its power. It is the moment when a person surrenders to the feeling of 'I exist.' It is a feeling, which is effortlessly felt. It lies in the depth of us. It is like the depth of the ocean, which is not effect-

ed by the raging storms, which disturbs its surface. The feeling of 'I exist' is the peaceful and tranquil ground on which all the yoke of suffering rest: the blissful presence of our being. In other words, it is the exuberance in life/Life, which makes freedom and existence identical. It is the realm, which is free from any exigencies of life; it is the stuff of life and the quality of the sacred. Outside this glowing feeling of existence the unending details of the maze of philosophy comes to bow to the indefinable. At this point, the indefinable becomes the precondition to the definable—just as silence becomes the precondition to speech, and apprehension becomes the precondition to comprehension.

Apprehension:

In his play *Midsummer Night's Dream* Shakespeare says,

Lovers and madmen have such seething brain,
Such shaping fantasies, that apprehend
More than cool reason ever comprehend (ActV, Sc.I).

In the same scene he tells us how a lover apprehends things,

The lover, all as frantic
Sees Helen's beauty in a brow of Egypt.
The poet's eye, in a fine frenzy rolling,
Doth glance from heaven to earth, from earth to heaven,
And as imagination bodies forth
The form of things unknown, the poet's pen
Turn them to shapes, and gives the airy nothing
A local habitation and a name.

Of course, there is no doubt that Shakespeare identifies the lover with the poet, and the poet with the love.(4) Alyosha and Prince Myshkin are living poetry to the people they encounter; they bring love. In their action they reveal the indefinable. Though Alyosha does not have any concrete evidence for the innocence of his brother, he says to his brother Dimitry, as if he is giving the oath of truth at the temple of God, "I've never for one instant believed that you were the murderer... and he raised his right hand in the air as though calling for God to witness his words. Mitya's whole face was lit with bliss" (Karamazov, 565). Also, after Ivan gives Alyosha his masterpiece, *The Grand Inquisitor*, which is a rational argument against all that is called faith, Alyosha, as a response to this masterpiece of rationality, approaches his brother, kisses him on the lips, and leaves. Alyosha, in his silence, grasps Ivan's intellectual riddle, which inhibits

4- Iris Murdoch in her book *Metaphysics as a Guide to Morals*, Chapter, Art emphasizes the notion of love in the formation of art; for virtue is the outcome of love and art is the outcome of virtue.

Ivan's ability to love. In a previous discussion Ivan reveals his ability to love, which surfaced like a divine revelation coming from the abyss of his soul. He says: I have a longing for life, and I go on living in spite of logic. Though I do not believe in the order of the universe, yet, I love the sticky little leaves as they open in the Spring. I love the blue sky. I love some people, whom one loves... without knowing why. I love some great deeds by men, though I've ceased perhaps to have faith in them, yet from old habit one's heart prizes them... And I shall not weep from despair, but simply because I shall be happy in my tears, I shall steep my soul in my emotion... It is not a matter of intellect or logic, it is loving with one's inside, with one's guts... Do you understand anything of my tirade, Alyosha(Karamazov, 211).

The riddle has become an intellectual, emotional ordeal for Ivan. Beneath this ordeal, Alyosha apprehends one fact: it is the impossibility of atheism. God dwells in everyone, and therefore, we love God through everyone despite all the sins persons may commit. Even the atheists feel God without even knowing "Him". At this point they experience the blissful presence without being able to give it a name. Here Ivan experiences an "unmediated intuition" which does not speak through knowledge, but through an encounter. Von Balthazar teaches us that we encounter a revealing reality despite what seems to us to be invisible (Von Balthazar, 18-19). In addition to his inner unconscious prompting, one must admit that the childlike spiritual presence of Alyosha inspires Ivan's apprehension of God and it breaks down some of the inhibitions in Ivan, which prevent him from returning to childhood.

Parallel to this, we find this "unmediated intuition" expressed by Prince Myshkin in *The Idiot*. During his conversation with Madame Epanchin and her three daughters, he tells them how through simplicity he overcame the crushing strangeness he experienced at Bale in Switzerland. He says, "... I was aroused by the bray of an ass in the market place. I was immensely struck with the ass, and for some reason, extraordinarily pleased with it, and suddenly everything seemed to clear up in my head" (The Idiot, 49). Myshkin becomes fond of asses because they are "... useful creatures... industrious, strong , patient, cheap, long-suffering. And so, through the ass, all Switzerland began to attract me, so that my melancholy passed completely" (Ibid, 50). This is exactly what Dostoevsky teaches us in the Brothers Karamazov that transformation is the result of a loving/living relation with all things: animals, plants, human beings, nature, and even with the sins of the human beings (Karamazov, 262-266). This is exactly what is meant by consciously stepping out from the egotistical self to the universal self. Stepping into this universal Self, may not be learned as many of the learning theorists tells us. For Dostoevsky, so it seems, learning stems from inner innocence in the same way that children learn how to speak their language without knowing how they learned it. Myshkin felt happy in Switzerland, but he does not know why. He knows that the cue was the braying ass. "I don't know", Myshkin replies to Madame Epanchin and her three daughters who gig-

gled because of the story about the ass, "I simply got better abroad; I do not know whether I learnt to see things. But I was almost all the time happy" (The Idiot, 51). Like Dimitry after his spiritual rebirth, Myshkin finds beauty simply in the mere existence of all living things, he even says "But afterwards I fancied one might find a wealth of life even in prison" (Ibid, 52). For the condemned person, even the last few minutes of living become a rebirth: the moments unite with the eternal. At the last moment of life, even the rays of light become the person's new nature, Myshkin tells the Epanchins. This is exactly what I mean when I say consciousness to consciousness, being to being/Being, and heart to heart. It is the blissful presence, i.e., the living presence of the person to the revealing presence of mystery. I know, only because I live, not because I know about living or about the living things. There is no logical conclusion when we consider the whole process as a continuity of the presence of the mystery. This is to say, the beginning is always there, and the rebirth is continuous for those who wonder at the marvelous. It is apprehension itself.

Dostoevsky goes further. Being faithful to his "Russian Soul" art for him is very much akin to what Tolstoy says art is: apprehension of the universal,[5] i.e., that which appeals not to a special class, but to the "common man". As the "common man" is united in "brotherhood", so art must posses a similar unity, and this must reflect universal brotherhood. Myshkin asks Adelaida, one of the three Epanchin sisters, to paint "the face of a condemned man the moment before the blade falls, when he is still standing on the scaffold before he lies down on the plank" (Ibid, 56). I have no doubt that this is Dostoevsky's way of saying that the art of living is the highest form of art. Only the person who goes through an experience like this can apprehend it; it is the certainty of truthful subjectivity.

There is no doubt that living is the highest from of art, but our attempts to verbalize and rationalize the experience of living can never capture the essence of living. A logical or a rational conclusion cannot suffice in this respect. Dostoevsky believes more in the narrative process as a means of expressing the mystery of living. The motive behind narration is to mirror the explicit and the implicit reality, and not to understand, as one seeks to understand in the hard sciences. In mirroring reality one has to apprehend how life/Life can penetrate the person despite the intensity of the problem, and also despite the illogicality of the relationships between the events. In *The Brothers Karamzov*, he psychologically describes the implicit mechanism, "His scattered thoughts came together; his sensations blended into a whole and threw a sudden light into his mind (Karamazov, 412). In a metaphorical way, he describes, "...for all is like an ocean, all is flowing and blending; a touch in one place sets up movement at the

5- Tolstoy in his book *What is Art* tells us, " And universal art, by uniting the most different people in one common feeling, by destroying separation, will educate people to union, will show them, not by reason but by life itself, the joy of universal union reaching beyond the bounds set by life (186).

other end of the earth... .treasure this ecstasy, however senseless it may seem to men" (Ibid, 299).True, it may be senseless to human beings, but a spiritual experience, as I said before, is not a matter of knowing, but it is a matter of a living-knowing. It's certainty lies in the fact of experiencing it. Here we are dealing with the subjective, which oftentimes makes people who do objective research uncomfortable; the subjective realm is a private and intimate realm of the heart. for what is in the heart is something intimate and private. From this subjectivity apprehension emerges by giving a form to what seems formless or unbounded. Dostoevsky heartily chiseled out his own subjective apprehension from his encounter with the unbounded ocean of life. Figuratively speaking, apprehension is the speaking-silence of knowledge. That said, one could heartily chisel out his apprehension of the communal soul not only of humanity, but also of its achievements in the past, present and future as they are revealed in religion, art, and science. Here we see the great influence of Fyodorov on Dostoevsky.

The communal soul of Dostoevsky expresses itself in this, "Every blade of grass, every insect, ant, and golden bee, all so amazingly know their path, though they have not intelligence, they bear witness to the mystery of God and continually accomplish it themselves (Ibid, 273). Though not within the same religious context, science points the same way. In his book *Looking for Spinoza*, Antonio Damazio, the disguinshed professor of neurology, teaches us that "Organisms can produce advantageous reactions that lead to good results without deciding to produce those reactions, and even without feeling the unfolding of those reactions"(Damasio, 51). This encourages us not to be fanatic about the achievements of our time; for when we patiently wonder and meditate on the issues, the future may bring us much better results than what we think we have at the present; for "what grows lives and is alive only through the feeling of its contact with our mysterious worlds" (Karamazov, 299). From this we know that for Dostoevsky the word "mystery" implies a revelation of the living. It is not something we will never "know". It is what preceds knowledge. Mystery is the event of transfiguration, particularly spiritual transfiguration. It is a newly born consciousness. It is childhood. From this perspective we come to understand children in Dostoevsky.

The communal soul exemplifies itself in the "common task". It is the opposite of the individualism in Ivan Karamazov and Nastasya Fillipovna. Alyosha and Myshkin go to the people with a blissful presence. Both characters go to the children first. Going to the children first means meeting themselves in them. Childhood is a part of all of us, and to be present to the children one has to be present to oneself. This brings me to the question: what qualities do we find in children?

In *the Idiot* Prince Myskin tells us about the basic natural elements, which impel children to act virtuously. To be sure of such a subjective experience, one has to go back to his/her own childhood. He tells us, Children can be told anything... I've been struck by seeing how little grown-up people understand chil-

dren, how little parents understand their own children. Nothing should be concealed from children on the pretext that they are little and that it is too early for them to understand... how ready the children detect that their fathers consider them too little to understand anything...Grown up people do not know that a child can give exceedingly good advice even in the most difficult cases (The Idiot, 60).

Reading this quotation, I cannot but refer to Freud wherein children make a valuable contribution the formation of his theory. There is no doubt that Freud's interrogation centers itself on the known-unknown, or absence-presence. The imaginary in this case is thought of in terms of what goes beyond it, or, should I say, in what negates it. The imaginary exists within the realm of the symbolic. Within this conception we notice that the mastery of the known is inseparable from the revelation of the unknown.

Let us consider the "Fort-Da" game, which attracted Freud's attention when he observed his nephew playing. The young boy throws the ball and says "o-o-o-o" Freud calls this the first step toward civilization; for the "Fort" and the "Da" signify absence and presence of the mother. This means that the mother, though not seen by the child still exists as lost; for the child to throw away signifies the absence of the mother and "o-o-o-o" signifies the act of throwing away. Accordingly, we are able to relate Freud to Dostoevsky. Both deal with the known-unknown. The child defines his play simply by living it. The "comprehensive" knowledge we have about the child is completely unknown to his "apprehension" of how his life defines his play. The child lives the know-unknown. The notion of "participation mystique" introduced by C.G. Jung is a great help here. This means that children unknowingly incorporate their parents' hidden feelings within themselves. Within the system of incorporation and signification, children start to apprehend the world. This is exactly what is meant when we encounter the undefined in Dostoevsky. In the process of transformation the person may "...not understand or explain what had suddenly arisen in his soul...strange impulses of sudden feelings and sudden thoughts are common". (Karamazov, 16-17). In a later context, he also shows us how the ambiguity of apprehension acts as a guiding light to more apprehension, "And the vagueness of his apprehension increased the apprehension itself" (Ibid, 90). This is similar to what Freud suggests is necessary to better understand the client. He calls it "hovering attention". In frustrated children, apprehension takes place as silence mixed with pride and a truthful understanding protected not by their mind, but by their "defenceless hearts". Dostoevsky tells us, "... when children are silent and proud, and try to keep back their tears... they are in great trouble and suddenly break down, their tears fall in streams, Sir" (Ibid, 190).

In general, children have not distanced themselves from the "Nirvana", and the exigencies of life have not taken hold of their tender soul and mind. They

still have an easy and fresh access to the archaic, i.e., the archetypal as an "authentic dimension of experience". In other words, children are still close to the ground of their being, which gives existence its authentic quality. At this point of their lives, children are receptive to psychological and spiritual growth. Their receptivity to adulthood appeals to them as being the fulfillment of their potentials. Prince Myshkin, tells us, "Later on, when everybody blamed me...for talking to them like grown up people and concealing nothing from them, I said that it was a shame to deceive them; that they understand everything any way, however much things were concealed from them, and that they learnt it perhaps in a bad way" (The Idiot, 64).

This quotation has wonderful educational implications. Oftentimes, teachers convince themselves that they have surpassed childhood, and it is belittling to be childlike. For Dostoevsky, childlikeness is a quality of life that cannot fully be explained by laws, policies or traditions. It is the life of virtue, which does not have a system. Schneider, the school principal, argued with Myshkin about what he called Myshkin's "pernicious system" with children. "As though I have a system" Myshkin says (The Idiot, 67). He continues, "At last Schneider uttered a very strange thought... He told me that he had come to a conclusion that I was a complete child myself, altogether a child..."(Ibid, 67). What is so obvious in Myshkin's character is his ability to stimulate the will to love in the children whether in implementing policies or in acting according to duty; Schneider lives, however, in a constipated adulthood ruled by policies, laws and some meaningless traditions. Both Alyosha and Prince Myshkin teach children how to love: to love even the insulted and the humiliated. Alyosha taught the children to love Ilyushka, whose father was publicly insulted by Dimitry Karamazov, and Myshkin taught the children to love and respect Marie the wretched girl who was rejected not only by the people of the town, but also by her mother. As a result, the children loved marie, took food for her, and when she died, Dostoevsky tells us, "she died almost happy. Thanks to [the children] she forgot her bitter trouble; they brought her...forgiveness" (Ibid, 66). He continues:

These children could not be restrained. They decked her coffin with flowers and put a wreath on her head... but when the coffin had to be carried out, the children all rushed forward to carry it themselves. Though they were not strong to bear the weight of it alone, they helped to carry it, and all ran after the coffin crying. Marie's grave has been kept by the children ever since. They planted roses round it and decked it with flowers every year (Ibid, 66).[6]

6- Kay R. Jamison in her book *Night Falls Fast* is another witness for the deep apprehension of children. The same as Dostoevsky, she shows us that children apprehend situations more than their parents assume. Here is what Cynthia Pfeffer, a ten-year-old girl writes, "I often think of killing myself... I worry a lot about my family. Mom is always depressed and sometimes she says she will die soon. My brother becomes very angry, often for no reason....I worry a lot about my family... I feel sad about this (38) This is very similar to Kolya in *The Idiot* who shows a constant concern for his family.

Here Dostoevsky teaches us that teachers can act as the children's spiritual parents. It is worth noting that Monsieur Thibault, the children's formal teacher, also verbally abused Myshkin for teaching the children to love Marie. Through love, Myshkin and Alyosha endowed the children with the spirit of "brotherhood:" a "communal feeling" in a "common task".

Contrary to Alyosha and Myshkin, we have the character, Rakitin, in *The Brothers Karamazov*. Through his articles in the newspaper, he becomes an informal teacher. He is a careerist who possesses no idea of his own, as Dostoevsky describes him. The only driven force he has is prestige expressed in fame and money. This reminds me of what Barnave, the French orator, says, "Prestige! Why Sir, is that nothing? A thing that fools revere, and children gape at, that rich men envy and wise men scorn" (Standhal, 27). With teachers like Rakitin, children learn how to gape at prestige and struggle to attain it. Under such conditions, education distorts children's positive nature.

Having these two contradictory styles of education, one can firmly say that, if love affirms the beloved, then, the children were affirmed as morally equal to the adults. As Josef Pieper teaches us: love tells the other that he or she exists. This means that the subject of ideas, feelings and emotions is existence/Existence.

From this we learn that Existence/Life, permeates our individual lives. Self-centered individualistic ambition should not replace the effortless feeling that one simply exists. This is exactly why, in the light of Kafka's *The Metamorphosis,* I questioned and challenged the reduction of persons to productivity. The question is this: what quality does the agent of productivity have, and at what expense are we prioritizing it? Productivity becomes authentic when its roots stem from the "brotherhood of man" and from the energy derived from the "common task", not from the roots of an ambitious greedy individualism. Greed may bring a momentary happiness, but it will never bring the inner tranquility of the soul. We crave for high positions and we convince ourselves that we are adult achievers. As a result, we overlook the rich continuity of our childlike nature. We come to prefer the "insolence of office", as Shakespeare puts it in Hamlet, over the kind tranquility of our souls whose roots bloom from the time of childhood when we were closer to the divine/the Nirvana. Poor Gregor, Kafka's hero in *The Metamorphosis,* stops being a son and a brother, when he stops being functional. To be a son or a brother only for the sake of functional productivity takes away childhood even from "sonship" and "brotherhood". Transformation or rebirth becomes estrangement.

Children as Our teachers:

The child in us is our teacher. The child defines by mere living, and knowledge is brought out simply from this mere living. This should not surprise us at

all should we look at how a child playing "Fort-Da" taught Freud the concept of the known-unknown, as it is the case with the Fort-Da game explained earlier in this paper. Also, a child's toy taught Freud how the nature of the psyche operates. I refer the reader to Freud essay "*Notes on the Writing Mystic Pad*". Children, despite their differences in temperament or capabilities, remain porous to life. Being porous, their psyche becomes soaked with life. Life breathes through them. Adults convince themselves that childhood is one of the bygone stages of life. In a child there is a pure consciousness of the self. Von Balthazar says, "The child has an interior participation with the eternal"(7) (Von Balthazar, 58). This means that children present themselves as they are presented to this world. Everything in them swells from Life; a life which makes them genuine persons rather than the mere products of functionalism and individualism. In both novels, Dostoevsky present children as:

a- having a great tendency to be good,

b- having ideals,

c- knowing stereotypes,

d-knowing their mistakes,

e- responding to love, f- liking the adult's respect and finally doing things without "peevish sentimentality".

From these qualities we notice that children could be our teachers in the same way that Kolya and Ilyushka are teachers in *The Idiot* and in *The Brothers Karamamzov*. They both teach dignity and honor to their fathers by showing them understanding, respect and care. Kolya, after the death of his mother, takes care of his father, the retired general, and covers up for his drunkenness. He says to the people who make fun of his father, "It is nothing, but irregularity and wine" (The Idiot, 124). Yet, privately he says to Prince Myshkin, "It is strange you should expect anything of him" (Ibid, 121). He also warns his father from the aggressiveness of Nastasya Fillipovna, "She will give it to you" (Ibid, 121). This does not stop here. Kolya is a peacemaker. He goes out of his way to sooth Myshkin after his reckless brother Ganya slapped Myshkin on the face (Ibid, 109). However, sometimes his fragility cannot contain the pressures he has to take. Dostoevsky tells us that children shed tears of shame and vexation (Ibid, 106). In the same vein, Ilyushka, the sick son, teaches his father Snegiryov not to equate money with honor and dignity. He asks his father to refuse the money Dimitry Karamazov sent him as a way of reconciliation after Dimitry publicly insulted him. Dostoevsky goes even further. Children teach us even in their death. This is to say that the death of children transfigures and purifies their parents. Expressing the pain a mother feels for her dead child will lead her to her salvation,

---

7- See Prophet Isaiah 29:23, Psalm 127:3.

And if only I could look upon him one little time, if only I could peep at him one little time, without going up to him, without speaking, if I could be hidden in a corner and only see him for one little minute, hear him playing...calling in his little voice, 'mummy, where are you?' If only I could hear him pattering his little feet about the room just once... But he's gone, Father... and I shall never see him again (Karamazov, 41).

Father Zossima replies to this unconsoled mother:

Weep and be not consoled, but weep. Only every time that you weep be sure to remember that your little son is one of the angels of God, that he looks down... at you... and rejoices at your tears, and points at them to the Lord... But it will turn in the end into quiet joy, and your bitter tears will be only tears of tender sorrow that purifies the heart and deliver it from sin (Ibid, 42).

Also, Ilyushka seeing his father being insulted by Dimitri Karamazov taught his father how a person feels vengeance, but at the same time crave for peace. His father says, "...but at that moment my Ilyushka grasped all that justice mean, Sir" (Ibid, 188). Dimitry remembers young Illyushka telling him, "Let go, let go, its my dad, forgive him"(Ibid, 186). The teasing of Ilyushka by his school mates stirred up "... a gallant spirit... he stood up for his father against them all: for his father, for truth and justice, Sir" (Ibid, 188). Ilyushka teaches his father and kids around him truth, forgiveness and justice. Finally, Dimitry, after his transformation, apologizes to Snegiryov as well as to Ilyushka. Dimitry becomes a child again that he begins to understand how a child apprehends.

We need also, though, to know that education is both ways: as children teach us to comprehend what they already apprehend, we need to teach them how to comprehend what they apprehend. Teaching must preserve apprehension and articulate it with comprehension so that we may be able to transform ourselves. Cold reason should be tempered with love and compassion. Teachers who enter their classes with no love and compassion for their students should not venture into the profession of teaching. In other words, teachers should not be like the ostentatious Rakitin. Maybe it is very hard for us to understand what Dostoevsky tries to teach us; but, along with Dostoevsky, I would like to ask the reader to take a few moments and reflect on how he/she was when he/she was a child. Then, I presume that the reader would subjectively know what educative value childhood could be for us all. Here, one must focus on the spiritual nature of childhood rather than on the psychological entangled events of childhood. It is childhood, which is embedded in us, that helps us to continuously transfigure eternity into time, and again, time into eternity. Let us hear what Alyosha has to say to the children, "People talk to you a great deal about your education, but some good, sacred memory, preserved from childhood, is perhaps the best education" (Ibid, 734). Talking to children we need to address their apprehension. We cannot address their apprehension of the world without hav-

ing this apprehension in us. Listen to what Alyosha says to them after Ilyushka's funeral, "I have a place in my heart for you all, and I beg of you to keep a place in your heart for me. Well, and who has united us in this kind good feeling, which we shall remember and intend to remember all our lives? Who, if not Ilyushka, the good boy, the dear boy, precious to us forever! Let us never forget him. May his memory live forever in our hearts from this time forth (Ibid, 735). At this point, the children wept, and under the leadership of Kolya cheered Alyosha, "Hurrah!! Karamazov". Alyosha has become the hand that has moved the ocean, and this movement has stirred our hearts.

Conclusion:

I started this paper with my admiration for the achievements of our contemporary time, yet, I expressed fear and uneasiness about its pulse and temper. Its temper is "dissecting and dissolution". In his wonderful essay, Donatus Hohenzollern, tells us how Schiller foresaw our present world, "... instead of hastening upward into organic life, society set free was collapsing into its elements" (Hohenzollern, 7). In line with his thought one wonders about the instruments our intellect uses: analysis or synthesis? Or, should I say, are we living for being or for doing? Have we become like Gregor in Kafka's *The Metamorphsis* whose existence is valued for his productivity rather than for his being—a doing infected by speed, which is the agent of forgetting ourselves and our being as Milan Kundera would have it in his novel *Slowness*? Dostoevsky tells us that if the revelation of mystery does not shine through us and we do not shine through it, then we are living abject lives. Childhood exalts our existence with an unceasing birth and rebirth. We need to admit that we are continuously the children of an eternal "Parent" whose Existence makes the conversation of our existence. In this sense, our completion which we all desire can only be accomplished through a perfect Other. Our childhood becomes the threshold on which we live our imperfect desiring humanity along with a perfect Being. It is at this threshold that we are graced with a new rebirth. Though our childhood is a small point in our lives, yet, it is the important ground on which we need to "...quietly, and unceasingly [direct] the greatest force upon this smallest point" (Meditation on the Tarot, 8). At this smallest point the elements are mixed rather than analyzed. At this point, there is the synthesis of speech and silence, of doing and blissful rest, and of the beginning and the end. It is a living narration from which the blessed eternal (Existence) shines through the developing journey of our own desiring existence. Having this in our lives one would continually live the ever known-unknown without coming to the point where Holderline said "O, would that I were as children are" (Von Balthasar, epigraph). Childhood stays with us. As for the Gregor generation of our time, one sees no option but to revolt against our own abjection. By revolt, I mean exactly

8- Dostoievsky in his *Notes From Underground* explains how desire is life.

what Psalm 118 means when it instructs us to return back to the rejected stone (Childhood where existence is effortlessly felt) so that it may become the corner-stone of our lives. This also teaches us not to intensely live with the concepts of psychological stages prescribed to us by modern psychology, but to live with receptivity and obedience to the breeze of the Holy which unites our elements rather than dissecting them. This receptive fragile obedience to the eternal, which is the cause of spiritual birth and rebirth, is what Dostoevsky calls child-hood. After all, I remind the reader of Dimitry's words, "We are all babes"

Bibliography

Anonymous Author (2002), *Meditations on the Tarot*, trans., Robert Powell, Jeremy P. Tartcher/Putnam, New York.

Damasio, Antonio (2003), *Looking for Spinoza*, A harvest Book, Harcourt, INC, London.

Damrosch, Leo (2005), *Jean Jaques Rousseau: Restless Genuis* (advanced uncorrecred proof), Houghton Miffin Company, New York.

Dotoevsky, Fyodor (1976), *The Brothers Karamazov*, trans., Constance Garnett, Edited Ralph Matlaw, W.W. Norton and Company, London.

Dostoevsky, Fyodor (1996), *The Idiot*, Wordsworth Classic, Great Britain.

Freud, Sigmund (1959), *Collected Papers*, Vol. 5, edited James Strachey, Basic Books, New York.

Kristeva, Julia (1993), *The Sense and the Nonsense of Revolt*, trans., Jeanine Herman, (2000), Columbia University Press, New York.

Mochulsky, Konstantin (1967), *Dostoevsky*, trans., Michael A. Minihan, Princeton University Press, Princeton.

Murdoch, Iris (1993), *Metaphysics as a Guide to Morals*, Penguin Books, New York.

O'Donohue, John, (2004), *Beauty: The Invisible Embrace*, HarperCollins Publishers, New York.

Pieper, Josef (1991), *Faith-Hope-Love*, Ignatius Press, San Fransisco.

Shakespeare, William (1976), *The Portable Shakespeare*, Penguin Books, New York.

Stendhal (1953), *Scarlet and Black*, trans., Margeret R.B. Shaw, Penguin Books, New York.

Von Balthasar, Hans (1991), *Unless You Become Like a Child*, trans., Erasmo Leiva-Merikakis, Ignatius Press, San Fransisco.

Von Hohenzellorn, Donatus (2005), *The Constance in the World*, Cornelia Goethe Akademie, Frankfurt.

Yacoub, Joseph, (2004-2005), *Children in Dostoevsky: The Case of The Idiot and The Brothers Karamazov*, Proceedings of The Mid-West Philosophy of Education Society, Bloomington Authorhouse Publishers, Indiana Press, USA.

القسم الثاني

مختارات من أعمال دوستويوفسكي

المفتش الكبير*

أراد أن يظهر للشعب، ولو للحظة. أراد أن يظهر للمتألّمين والمعذّبين والخطأة الذين يحبّونه بقلوب نقيّة كقلوب الأطفال. فأحداث هذه القصيدة النثريّة مستوحاة من عهود محاكم التفتيش التي كانت تجري في حديقة إشبيلية في إسبانيا، حيث كانت المحارق توقد يوميًا باسم الربّ. لقد كان يتمنّى، ولو للحظة واحدة، أن يزور أبناءه في ذلك المكان حيث كانت تتعالى زفرات مواقد الهراطقة.

«ظهر الربّ خفية من دون ضوضاء. والغريب في الأمر أنّ جميع الناس سرعان ما عرفوه. إنجذب إليه الجمهور بقوّة لا تقاوم، وأحاط به، واحتشد حوله، وتابع خطواته. فسار هو بين الجمهور صامتًا، وهو يبتسم ابتسامة عطف لا نهاية له. إنّ شمس المحبّة تتّقد في قلبه، ويشعّ من عينيه الضياء والقوّة فينتشران بين المؤمنين ويشعلان المحبّة فيهم. وهو يمدّ ذراعيه نحو الشعب ليباركه. إنّ التقرّب منه، وملامسة ثيابه، تملك القدرة على شفاء المرضى. فهذا شيخ من الجمهور، أعمى منذ سنوات الطفولة يصرخ، على حين غرّة: «أعد ياربّ إليّ البصر، حتّى أستطيع أن أراك»! فما هي إلاّ لحظة حتّى سقطت الغشاوة عن عينيه، فإذا هو يرى الربّ. وبكى الشعب تأثّرًا، قبّل الأرض التي مشى عليها. وأخذ الأطفال يرمون الأزهار أمامه منشدين «المجد لله».

وتعالت الصيحات تقول: «إنّه هو، لا يمكن إلاّ أن يكون إيّاه». ووقف في الساحة أمام كاتدرائيّة أشبيلية في اللحظة التي أحضر فيها المصلّون، وسط البكاء، تابوتًا صغيرًا مفتوحًا أبيض اللون، يرقد فيه جثمان طفلة في السابعة من عمرها، هي البنت الوحيدة لرجل من أعيان سكّان المدينة. إنّ الميتة مغطاة بالأزهار. صاح الجمهور يقول للأمّ الباكية: «سيقيم لك ابنتك». وكان كاهن الكنيسة قد تقدّم نحو التابوت، فظهرت عليه الحيرة وقطب حاجبيه. فأجهشت بالبكاء أمّ الطفلة الميّتة وارتمت على قدمي المسيح وضرعت إليه وهي تمدّ نحوه ذراعيها قائلة: «إذا كنت أنت حقًّا، فَأَحي طفلتي». توقّف الموكب، ووضع

* النص مأخوذ من رواية دوستويوفسكي "الأخوة كارامازوف".

التابوت على الأرض عند قدميه. فألقى على جثمان البنيّة نظرة تفيض بالعطف، وتحرّكت شفتاه برفق تقولان مرّة أخرى: «طاليتا قوم». فما أن نطق بهذه الكلمات حتّى خرجت الطفلة من التابوت وجلست مبتسمة، ونظرت حولها بعينين دهشتين محملقتين وفي يديها باقة من الورود البيضاء التي كانت تغطي جثمانها.

عمّ الاضطراب الجمهور وصاح وبكى، وعبر في تلك اللحظة أمام الكاتدرائيّة المفتّش الكبير. إنّه شيخ في التسعين من عمره، طويل الجسم منتصب القامة معروق الوجه غائر العينين، بيد أن شعلة كانت تسطع من عينيه. لم يكن يرتدي ثوب الكاردينالية الأرجوانيّ الفخم الذي ظهر فيه للشعب الليلة البارحة حين كان يرمي إلى النيران أعداء الكنيسة، وإنّما يلبس في هذه المرّة ثوب الكاهن، المصنوع من الصوف الخشن. وعلى مسافة منه يتبعه معاونوه المتّجهمون وخدمه والحرس «المقدّسات». وقف الكاردينال أمام الجمهور وتأمّله من بعيد. لقد رأى كلّ شيء رأى التابوت عند قدميه، ورأى الطفلة كيف بعثت من الموت، فتلبّد وجهه واكفهرّ، وعقد حاجبيه الكثيفين الأبيضين، وومض في عينيه بريق متوحّش شرير. وهو يشير إلى المسيح بسبابته، أمر الحرس بأن يعتقلوه. وكانت قوّة هذا الرجل كبيرة بحيث استطاع أن يُخضع الشعب الخائف المرتجف. وسرعان ما ابتعد الجمهور وفتح الطريق أمام الحرس التابع له، فإذا بهؤلاء، وسط صمت الموت الذي أرخى بثقله على الجوّ، يضعون أيديهم عليه ويقتادونه. وسجد الجمهور بحركة واحدة أمام المفتّش الكبير الذي بارك الجمهور صامتًا وانصرف.

أخذ الحرس السجين إلى مبنى المحكمة المقدّسة العتيق، وحبس في زنزانة مظلمة ضيّقة مقبية. انقضى النهار، وهبط الليل. إنّها ليلة من ليالي إشبيلية الثقيلة الحالكة الخانقة الحارّة. « الهواء معطّر بعبق أشجار الرّند والليمون». وفجأة، وسط العتمة العميقة، ينفتح الباب الحديديّ، ويتقدّم المفتّش العجوز يسير في الممرّ ببطء حاملاً بيده شعلة. وقف لحظة على عتبة الزنزانة، وتفرّس في وجه السجين طويلاً. ثمّ اقترب منه آخر الأمر بخطى صامتة، ووضع الشعلة على المنضدة وخاطب السيّد المسيح قائلاً: أهذا أنت إذن؟ أهذا أنت؟ وعندما لم يتلقّ جوابًا، أسرع يضيف: لا تقل شيئًا، وما الذي يمكنك أن تقوله على كلّ حال؟ إنّني أعرف سلفًا كلّ ما قلته من قبل. يبدو أنّك لا تريد أن تضيف شيئًا آخر إلى ما سبق أن قلته؟ لماذا تجيء اليوم تزرع الاضطراب في حياتنا؟ إنّك جئت لتعيق عملنا، لا ريب في ذلك. وأنت تعلم ذلك. فهل تعلم ما الذي سيحصل غدًا؟ أنا لا أعرف من أنت. ولا أريد أن أعرف هل أنت هو حقًّا، أم إنّك لست إلاّ طيفه؟ لأنّني سأحكم عليك

بالإعدام، وسآمر بإحراقك مثلما آمر بإحراق اسوأ الزنادقة. وذاك الجمهور نفسه الذي كان يقبّل قدميك منذ بضع ساعات، سيهرع غدًا، بإشارة بسيطة منّي، ليزيد من لهيب النار. هل تعلم ذلك؟ لا شكّ أنّك تعلم ذلك. ألقى عليه الكاردينال هذا السؤال، ثمّ أضاف يقول شارد الفكر نافذ النظرة من دون أن يحوّل بصره عن سجينه لحظة واحدة.

قال أليوشا وهو يبتسم، وكان إلى ذلك الحين يصغي إلى أخيه صامتًا: ما الذي تقوله، لست أفهم جيّدًا يا إيفان؟

«أهذه تهويمات مضطربة أنشأها خيالك المحموم، أم أنت تريد أن تقول إنّ الشيخ قد أخطأ وخدعه ظنه، شيء من هذا القبيل «ui proquo؟

قال إيفان ضاحكًا: لنسلّم بأنّ هناك خطأ ما، ما دامت واقعيّة هذا العصر قد أثّرت عليك أنت أيضًا إلى حدّ لا تستطيع معه أن تقبل مثل هكذا مخيّلات غريبة. لنفرض أنّ هناك غموضًا ما، إذا كنت تحرص على ذلك. ثمّ أردف إيفان وهو يضحك مرّة شفتيه ابتسامة مفكّر، ها أنت اليوم قد رأيتهم بأمّ عينيك أحرارًا. إنّ الحريّة هي من صنعنا، وقد دفعنا ثمنها غاليًا. ثمّ تابع العجوز وهو يلقي عليه نظرة قاسية: «ولكنّنا أتممنا عملنا أخيرًا بإسمك خمسة عشر قرنًا ونحن نعاني من هذه الحريّة، إلاّ أنّ الأمر قد انتهى الآن، انتهى تمامًا! ألا تظنّ أنّه انتهى إلى الأبد؟ إنّك تنظر إليّ بوداعة ولين ورفق، فلا شكّ أنّك تقدّر أنّك إن أظهرت استياءك كنت تشرّفني تشريفًا لا استحقّه! إنّ البشر هم في هذا اليوم بعينه أشدّ اقتناعًا منهم في أيّ وقت مضى بحريّتهم الكاملة، ومع ذلك فالواقع أنّهم تنازلوا عنها ووضعوها بكثير من الطاعة بين أقدامنا. هذا ما فعلناه نحن. ألم تكن هذه الحريّة هي التي تنشدها لهم؟»

هنا قاطعه أليوشا وقال: أنا لا أفهم شيئًا، هل يسخر، هل يتهكّم؟

لا لا أبدًا. فهو يتباهى بنفسه وبمريديه. إنّهم انتصروا على الحريّة وقد فعلوا ذلك من أجل أن يجعلوا الناس سعداء، ذلك لأنّه في هذا الوقت بالذات، وهنا يتحدّث العجوز بلسان محاكم التفتيش، أصبحنا قادرين وللمرّة الأولى أن نفكّر بسعادة الناس. الإنسان مجبول على التمرّد والعصيان، وهل يمكن لهكذا إنسان أن يكون سعيدًا؟ لقد نبّهوك، قال العجوز مخاطبًا السجين، ولم تكن بحاجة لمثل هذه التنبيهات والنصائح والدلائل، بيد أنّك لم تصغ لأحد، ورفضت الدرب الوحيدة التي تجعل البشر سعداء، ومن حسن الحظّ أنّ مجريات الأمور جاءت لمصلحتنا بعد رحيلك. لقد وعدت وأكّدت وعدك بالكلمة،

ومنحتنا الحقّ بأن نحلّ ونربط الأمور. ولن يكون بإمكانك حتّى مجرّد التفكير بنزع تلك الصلاحيّات والمهامّ منّا. لذا، ما هو سبب مجيئك؟ هل تريد إعاقة عملنا؟

وهنا سأل أليوشا، ما الذي يعنيه قوله: لم تكن بحاجة لمثل هذه التنبيهات والنصائح والدلائل؟

وفي هذا السياق يكمن المعنى الأساسيّ الذي يريد أن يعبّر عنه العجوز فيتابع كلامه قائلاً: لقد تحدّثت اليك في الصحراء الروح الرهيبة العميقة، روح الدمار والعدم. وتروي لنا الكتب المقدّسة أنّه حاول إغواءك، أليس كذلك؟ هل تستطيع في الواقع أن تتذكّر حقائق أكبر من الحقائق التي عرضها لك في أسئلته الثلاثة؟ تلك التي رفضتها أنت، وتصفها الكتب المقدّسة لنا بأنّها إغواءات. ومع ذلك، لئن وجدت على هذه الأرض في يوم من الأيّام معجزة صادقة كبرى، فإنّ تلك المعجزة إنّما تحقّقت في ذلك اليوم بعينه، وفي تلك الإغواءات الثلاثة. فالمعجزة تتمثّل في ظهور تلك الأسئلة الثلاثة. لنفترض مثلاً، أنّ هذه الأسئلة الثلاثة قد تبدّدت من دون أن تترك أثرًا في الكتب المقدّسة، وأنّ علينا أن نعثر عليها اليوم ونعيد بناءها وأن نكتشفها من جديد حتّى نحيلها إلى النصوص المقدّسة؛ لنفترض أنّنا نعمل جميعنا لتحقيق هذا الهدف، حكماء الأرض، ورؤساء الدول وأمراء الكنيسة والعلماء والفلاسفة والشعراء، وقلنا فكّروا بمليّة وصوغوا لنا أسئلة ثلاثة لا تكون على مستوى الحدث فحسب، بل تلخّص، إضافة إلى ذلك، مستقبل العالم والإنسانيّة في ثلاث جمل بسيطة؟ فهل كلّ حكمة الأرض المجتمعة في هؤلاء الرجال تستطيع أن تفعل شيئًا يشبه بقوّته وعمقه، تلك الأسئلة الثلاثة التي ألقاها عليك في الصحراء ذلك الروح القوي العميق؟ إنّ تلك الأسئلة الثلاثة، وتلك الحادثة المعجزة، تشهد بأنّ الأمر لم يكن مجرّد عقل إنسانيّ عادي، بل أمر عقل خالد مطلق. ذلك أنّها تضمّ في ذاتها، كلّ التّاريخ المقبل للإنسانيّة، وتقدّم رموزاً ثلاثة تنحل فيها جميع تناقضات الطبيعة الإنسانيّة، التي لا سبيل إلى حلّها. يومها، لم تكن تلك الحقائق واضحة بقدر، لأنّ التطوّر الذي حدث في العالم بعدئذٍ لم يكن معروفًا. أمّا الآن، وبعد أن مرّ خمسة عشر قرنًا، فإنّنا نرى أنّ كلّ شيء تنبّأت به تلك الأسئلة الثلاثة، قد تحقّق تحقيقًا يبلغ الكمال والتمام. إنّنا لن نستطيع أن نضيف إليها شيئًا، أو أن نحذف منها شيئًا بعد اليوم.

«فاحكم على الأمر بنفسك: من ذا الذي كان على حقّ، هل أنت أم سائلك؟ تذكر السؤال الأوّل بمعناه وليس بحرفه: أتريد أن تذهب إلى الناس خالي اليدين إلاّ من وُعدوا بحريّة لا يستطيعون بحكم ما فطروا عليه من بساطة وجهل أن يفهموها، عدا أنّهم بالإضافة

إلى ذلك يخشونها ويخافون منها، لأنّه ليس هناك ولم يكن هناك في يوم من الأيّام حالة لا يتحمّلها البشر والمجتمع مثلما لا يتحمّلون الحريّة؟ هل ترى هذه الحجارة في الصحراء الوعرة الحارقة؟ حوِّلها إلى خبز سترى كيف تهرع إليك الإنسانيّة كقطيع جائع، وتصبح شاكرة لك مطيعة إيّاك، ولكنّها ستظلّ ترتجف خوفًا من أن تسحب يديك وتحرمها من خبزك». غير أنّك لم تشأ أن تحرم الإنسان من الحريّة، فرفضت العرض قائلاً لنفسك لا حريّة صادقة حيث تُشترى الطاعة بالخبز. لقد أجبت بقولك: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان. هل كنت تجهل أنّ روح الأرض ستثور عليك باسم هذا الخبز الأرضي نفسه، وأنّها ستقتلك وتغلبك؟ وأنّ الجمهور سيهرع حينئذ نحوها هاتفًا: «من ذا الذي يستطيع أن يقيس نفسه بهذا الوحش الذي وهب لنا نار السماء؟» وهل تعلم أن قراراتنا ستنقضي، ويأتي يوم تنادي فيه العالم الإنسانيّ بأنّ الشرّ لا وجود له، وأنّ الخطيئة تبعًا لذلك لا وجود لها، بل يوجد فقط جائعون. «أطعمهم تجعلهم فاضلين!». وبهذه النصيحة إنّما سيحملون الراية ضدّك وسيقوِّضون معبدك، وسيقيمون على أنقاضه مبنى آخر، هو «برج بابل» الرهيب. صحيح أنّ البناء لن يتمّ، كما لم يتمّ في المرّة الأولى، ولكن كان في وسعك مع ذلك أن توفّر على الإنسانيّة آلام المحاولة الجديدة وأن تختصر من عذابها ألف سنة. ذلك أنّ البشر إنّما سيجيئون إلينا نحن مرهقين بعد أن يجتهدوا في بناء برجهم خلال ألف عام! سيجيئون باحثين عنّا كما فعلوا في الماضي، وسيجدوننا في الأقبية التي كنا قد لجأنا إليها (لأنّنا سنضطهد ونعذّب من جديد)، سيجيئون قائلين لنا: «أطعمونا، لأنّ الذين وعدونا بنار السماء قد خدعونا». وسننهي عندئذٍ بناء البرج، لأنّ الذين سيطعمون البشر يستطيعون وحدهم أن يتمّوا العمل حتّى النهاية. وسوف نطعمهم، سوف نطعمهم نحن ولا أحد سوانا، وسوف نفعل ذلك باسمك، وسنكذب عليهم، مستمدّين سلطتنا منك. بدوننا لن يستطيعوا أن يعيشوا في هذا العالم، وسيظلّون دومًا جائعين. ما من علم يستطيع أن يقدّم الخبز ما داموا يرغبون في أن يمتلكوا حيرتهم، ولكن سينتهي بهم الأمر بأن يرموا بحريّتهم على أقدامنا قائلين: «استعبدونا ولكن أطعمونا». سيدركون هم أنفسهم أنّ الحريّة لا تتّفق وخبز الأرض، لن يتاح لواحدهم أن يحصل على كفايته من الخبز، لأنّهم لن يتوصّلوا إلى اقتسامه بالعدل أبدًا. وسيقتنعون كذلك باستحالة أن يكونوا أحرارًا، لأنّهم ضعاف، فاسدون صغار النفوس، عصاة.

لقد وعدتهم بخبز السماء، ولكنّني أسألك مرّة أخرى: هل يقارن خبز السماء بخبز الأرض في نظر الكثرة التي ستظلّ إلى الأبد فاسدة عاقة؟ إذا كانت ألوف من الناس أو كانت

عشرات الألوف من الناس مستعدّة لأن تتبعك باسم الخبز السماويّ، فماذا تفعل الملايين والمليارات من الكائنات التي تحسّ بأنّها قادرة على أن تتنازل عن خبز الأرض في سبيل خبز السماء؟ أتراك لا تعطف إلاّ على بضع عشرات من ألوف النفوس الكبيرة القويّة وهل يجب على ملايين البشر، هل يجب على الجموع الهائلة العدد كرمل البحر، هل يجب على هؤلاء الضعفاء الذين يحبونك، أن لا يكونوا إلاّ مادة مسخّرة للكبار والأقوياء؟ إنّنا نحن نرى غير هذا الرأي وإنّنا نهتمّ بالضعفاء، إنّهم شرّيرون عصاة، ولكنّهم سيصبحون في آخر الأمر أكثر الناس طاعةً وخضوعًا. سوف يُعجبون بنا ويعدُّوننا آلهة، لأنّنا نكون قد رضينا، حين صرنا قادة لهم، أن نحمل عنهم عبء حريّتهم وأن نسيطر عليهم، فإلى هذا الحدّ ستكون هذه الحريّة قد أصبحت كريهة في نظرهم! وسوف نوهمهم مع ذلك بأنّهم إنّما يطعمونك أنت وبأنّنا نحكمهم باسمك. سنكذب عليهم من جديد، لأنّنا لن نسمح لك بعد الآن بأن تتدخّل في شؤوننا. وسيكون هذا الكذب الضروري عذابنا. ذلك ما كان يعنيه السؤال الأوّل في الصحراء، وذاك ما رفضته لقاء الحريّة التي وضعتها في أعلى منزلة، وفضلتها على كلّ شيء. ولقد كان ذلك السؤال يخفي السرّ الأكبر للعالم. فلو رضيت أن تعطي الخبز، لكنت لبّيت ما تنتظره الإنسانيّة انتظارًا أبديًّا منذ عهود سحيقة، وهو أن تجد من تعبده. وكلّما كان الإنسان حرًّا، كلّما سعى من دون توقّف، وتحمل المشاق والعذاب من أجل أن يسجد له ويعبده. ولكنّ الإنسان يتطلّع للخضوع لحقيقة مؤكّدة لا تجحد، حقيقة يحترمها جميع الناس برضى جماعيّ. إنّ حاجة هذه المخلوقات الضعيفة ليست اكتشاف قوّة يمكن أن يطيعها هذا الفرد أو ذاك من الأفراد، وإنّما إلى اكتشاف حقيقة عليا يمكن أن يؤمن بها الجميع ويمكن أن ينحني لها «الناس كافّة». فهذه الحاجة إلى «الاشتراك»، هي بعينها الهمّ الرئيسيّ الذي يعذّب كلّ فرد ويعذّب الإنسانيّة جملة منذ الأزل. فباسم هذا التطلّع إلى العبادة الجماعيّة المشتركة، إنّما أفنت الشعوب بعضها بعضا بالسيف. صنعت الشعوب آلهة وأخذت تقذف الشتائم فيما بينها «اتركوا آلهتكم وتعالوا اعبدوا إلهتنا. وإلاّ فالموت لكم ولآلهتكم!». وسيبقى الحال على هذا المنوال إلى نهاية العالم. وحتّى بعد زوال الآلهة سيظلّون يسجدون لأصنام جديدة. ولقد كنت تعلم هذا السرّ الجوهريّ من أسرار الطبيعة الإنسانيّة، ما كان لك أن تجهل هذا السرّ، ولكنّك رفضت الراية الوحيدة التي تملك قوّة الجذب المطلق، والتي قدّمت لك لكي تدفع بجميع البشر إلى الانحناء أمامك بغير تردّد، أعني راية الخبز الأرضي. ولكنّك رفضت هذه الراية باسم الحريّة وباسم الخبز السماويّ. فانظر الآن في ما صنعت! أنظر في ما فعلت باسم الحريّة!

أعود فأقول لك إنّه لا همّ أرسخ في قلب الإنسان من همّ الحاجة إلى العثور على من يستطيع أن يضحّي له سريعًا بالحريّة التي وُهبت له، ذاك المخلوق التعيس، منذ الولادة.

ولكن لا سبيل إلى التصرُّف بحريّة البشر إلاّ بكبت ضميرهم. ولقد كان في وسعك أن تتّخذ الخبز راية لا تقهر. أطعم الإنسان فينحني لك، فلا شيء في هذا العالم أعزّ على الجَحود من الحاجة إلى الأكل. ولكن اذا استولى غيرك عندئذ على ضمير البشر تركوك وعدلوا حتّى عن خبزك وتبعوه. في ذلك كنت محقًّا لأنّ سرّ الوجود الإنسانيّ لا يتلخّص بأن نعيش، بل إرادة الحياة تتمثّل في فكرة لأيّ شيء نعيش. فالإنسان ما لم يكن على يقين من هدف حياته، لا يقبل أن يوجد في العالم، بل يؤثِرُ أن يدمِّر نفسه، حتّى لو عاش في بحبوحة. تلك هي الطبيعة الإنسانيّة. ولكن ما الذي حدث؟ حدث أنّك بدلاً من أن تسيطر على الحريّة الإنسانيّة أردت لها مزيدًا من النموّ. وكأنّك ترى أنّ الإنسان يؤثر راحة البال، بل الموت على أن تكون له ملكة حريّة الاختيار في معرفة الخير والشرّ! ما من شيء يخلب لب المرء في الوهلة الأولى أكثر من حريّة الضمير، ولكن لا شيء في الواقع يعذّب الإنسان أكثر ممّا تعذّبه هذه الحريّة. فبدلاً من أن تحمل للإنسانيّة الأسس الراسخة الثابتة الباقية للهدوء النفسيّ إلى البد، عرضت عليها كلّ ما هو سرّي وغامض ومحيِّر. لقد اخترت ما يتجاوز طاقة البشر، كما لو أنّك لا تحبّ البشر، أنت الذي جئت تفتديهم بحياتك!

إنّك بدلاً من أن تسيطر على الحريّة الإنسانيّة وسعتها، وبذلك حملت العالم الروحيّ للبشريّة بالآلام التي تولِّدها هذه الحريّة في نفوس البشر. أردت من البشر أن يمنحوك حبّهم بحريّة، وأن يتبعوك بإرادتهم، مفتونين بشخصك. ألغيت القانون القديم الذي كان قاسيًا، فأصبح على الإنسان أن يميِّز الخير والشرّ بنفسه، مستلهمًا حكم قلبه، غير مسترشد في تردّده إلاّ صورتك أمام عينيه. أفلم تتنبّأ، إذًا، بأنّ البشر سينوؤون بهذا الحمل الرهيب، حمل حريّة الإرادة، فينبذوا في يوم من الأيّام صورتك ويشكّوا في تعاليمك؟ إنّ البشر سيصرخون في النهاية بأنّ الحقيقة لم تكن فيك، فمن المستحيل دفعُهم إلى تحمل اضطراب وعذاب أشدّ من ذاك الذي دفعتهم إليه حين تركت لهم كلّ هذه الأنواع من القلق، وكلّ هذه المشكلات التي لا حلّ لها.

«لقد وفّرت أنت الأسباب اللازمة لهدم مملكتك، وما من مذنب سواك! فهل هذا ما عرض عليك؟ ليس على الأرض إلاّ قوى ثلاث تستطيع وحدها أن تتغلّب على ضمير هؤلاء المتمرّدين الضعاف، وأن تخضعه في سبيل سعادته نفسها، ألا وهي: المعجزة، والسرّ، والسلطة. ولقد رفضت هذه القوى الثلاث جميعها، وأعطيت الناس مثلاً من أجل أن

يحتقروها. فحين وضعك الروح الرهيب (إبليس) على سطح المعبد وقال لك: إذا أردت أن تتأكّد أنّك ابن الربّ إقفز إلى الأسفل، لأنّه كتب أنّ الملائكة ستتلقفه وتسنده فلا يقع ولا يتحطّم، وعندئذ تعلم أنّك ابن الله وتبرهن على قوّة إيمانك بأبيك»، ولكنّك رفضت هذا العرض ولم تقذف بنفسك إلى الأسفل. صحيح أنّك تصرّفت في تلك اللحظة تصرّفًا ليس من عظمة الألوهة وجلالها، ولكن هل تعتقد أنّ البشر، وهم جنس ضعيف متمرّد، يملكون من القوّة الروحيّة ما يملكه إله؟ لقد فهمت ساعتها أنّ قيامك بحركة بسيطة تجاه نفسك إلى الأسفل سيعني ذلك إغراء الربّ، فلو قمت بها لكنت بطلب المعجزة تبرهن على قلّة إيمانك، فإذا حُرمت من الإيمان تهشّمت أسوأ تهشّم على الأرض التي جئت لتخلّصها وتنقذها، وعندها كان الروح الذي سيهلّل جذلاً، قد أغواك.

ولكنّني أعود فأسألك: هل أمثالك كثيرون في هذا العالم؟ هل تعتقد ولو للحظة واحدة أنّ البشر يمكن أن يقاوموا هذا النوع من الأغراء؟ هل في طبيعة البشر أن يتنازلوا عن المعجزة وأن يعتمدوا على حكم القلب وحده في الساعات العصيبة من الحياة، أمام المشكلات الخطيرة الأليمة التي تعرض للنفس؟ لقد كنت تعلم أنّ موقفك البطوليّ سينتقل بالكتب المقدّسة إلى آخر العصور، وكنت تأمل أن يقتدي البشر بك فيقبلون أن يظلّوا وحيدين مع الله لا يطلبون معجزة من المعجزات. ولكنّك لم تقدّر أنّ الإنسان متى أنكر المعجزة أسرع في نكران الربّ، لأنّه يبحث عن العجائب وليس عن الربّ، ولكونه لا يستطيع أن يحيا بغير معجزات، سيخلق بنفسه معجزات، وسيتّبع أباطيل السحرة وخزعبلاته، ولو كان متمرّدًا وملحدًا مئة مرّة.

إنّك لم تنزل عن الصليب حين صاح بك الجمهور ساخرًا: «إنزل عن الصليب فنصدّق أنّك أنت». إنك لم تنزل، لأنّك مرّة أخرى لم تشأ أن تستعبد البشر بالمعجزة، وإنّما أردت أن يجيئوا إليك بدافع الإيمان لا بتأثير العجائب، وكنت تريد أن يهبوك محبّتهم أحرارًا لا أن ينصاعوا لك عبيدًا. أذهلتهم قوّتك. هنا أيضًا أسرفت في تقدير البشر وأنزلتهم منزلة أعلى من منزلتهم، ذلك أنّ البشر عبيد وإن كانوا قد خُلقوا على المعصية. أنظر من حولك واحكم: ها قد مضى خمسة عشر قرنًا؟ ما عدد أولئك الذين رفعتهم إلى مقامك؟ أحلف لك أنّ الإنسان أضعف وأسوأ ممّا ظننت! هل يستطيع هو الوضيع أن يحقّق ما حقّقته أنت؟ إنّك حين منحته ذلك الاحترام كلّه تصرّفت كمن فَقَدَ عطفه عليه، لأنّك حملّته فوق طاقته، أنت الذي أحببته أكثر من نفسك! فلو أنّك قدّرته أقلّ ممّا فعلت لطلبت منه أقلّ ممّا طلبت، ولكن موقفك عندئذ أقرب إلى المحبّة، لأنّ العبء عليه يكون عندئذ أقلّ ثقلاً. إنّ الإنسان

ضعيف وجبان. لا يهمّني أن يكون الآن قد ثار في كلّ مكان على سلطتنا، وأنّه يرى في عصيانه الأثم مصدر اعتزاز له. ذلك غرور الأطفال. إنّ البشر يشبهون تلامذة صغارًا ثاروا في الصف على معلّمهم وطردوه.

ولن تدوم فرحتهم، وستكلّفهم ثمنًا باهظًا. سوف يهدمون المعابد، ويسفحون الدماء على الأرض. وسوف يدرك هؤلاء الصبية الأغبياء أنّ ضعفهم لن يتيح لهم أن يعيشوا زمنًا طويلاً في التمرّد والعصيان. وسيعترفون وهم يذرفون الدموع الغبيّة، أنّ الذي وهبهم روح العصيان قد غرّر بهم وسخر منهم. سيقولون هذا بحزن، وسيكون تجديفًا يجرّ عليهم المزيد من الشقاء، لأنّ الطبيعة الإنسانيّة لا تحتمل التجديف، ولا بدّ أن تثأر لنفسها منه آخر الأمر. القلق، الاضطراب، العذاب، ذلك المصير الذي كُتب على البشر الآن، بعد أن تحمّلت أنت كلّ ما تحمّلته من أجل أن تهب لهم الحريّة!

يروي رسولك الكبير أنه قد أبصر، في رؤيا جميع المشتركين من البعث الأوّل، فرأى إثني عشر ألفًا من كلّ سبط. لقد كانوا، مهما يكثر عددهم، أقرب إلى آلهة منهم إلى بشر. وقد حملوا صليبك وعاشوا عشرات السنين في الصحراء القاحلة، وأضناهم الجوع، واقتاتوا بالجراد والنبات. إنّ في وسعك أن تعتزّ بأبناء الحريّة هؤلاء الذين وهبوك محبّتهم أحرارًا، وارتضوا طائعين مختارين أن يُضحّوا في سبيلك بأنفسهم بصورة رائعة. ولكن تذكّر أنّ هؤلاء ليسوا إلاّ بضعة آلاف، وأنّهم أشبه بآلهة منهم ببشر. والآخرون؟ ما ذنب الآخرين إذا هم لم يستطيعوا أن يحتملوا ما احتمله الأقوياء من محن؟ هل تأثم النفس الضعيفة حين لا تعرف كيف تسمو إلى فضائل مخيفة إلى هذا الحدّ؟ أتراك جئت من أجل هذه الصفوة وحدها؟ هل أنت لا تفكّر إلاّ فيها ولا يخطر ببالك سواها؟ إذا كان الأمر كذلك فلا بدّ أنّ في القضيّة سرًّا لا يتاح لنا أن ندركه، ومن حقّنا في هذه الحالة نحن أيضًا أن نلجأ إلى السرّ، وأن نُعلم البشر أنّ الأمر الأساسيّ ليس هو المحبّة ولا الخيار الحرّ للقلب، وإنّما هو الخضوع الأعمى لما لا سبيل إلى معرفته، وأن يطيعونا إذن ولو عارضهم في ذلك ضميرهم. وهذا بعينه ما فعلناه.

لقد قمنا بإصلاح العمل الذي قمت به، فبنيناه على «السر» و«المعجزة» و«السلطة». وابتهج الناس إذ رأوا أنفسهم يُقادون من جديد كما يُقاد قطيع، ورأوا أنفسهم يتحرّرون من تلك الهبة المشؤومة التي وهبتها لهم، والتي حملت لهم عذابات لا تحصى. هل كنّا على صواب حين عملنا على هذا النحو؟ هل يمكن أن يؤخذ علينا حقًّا أنّنا لم نحبّ الإنسانيّة

حبًّا كافيًا، لعلمنا بضعفها الروحيّ، وخففنا عنها الحمل في كثير من الإلحاح حتّى لقد أبحنا لها أن ترتكب الخطيئة، شريطة أن تستأذننا في ذلك؟

فلماذا تجيء الآن تعرقل عملنا؟ ما لك تحدّق بي هكذا صامتًا بعينيك الرقيقتين النافذتين؟ من الأجدى بك أن تغضب. إنّني لاأريد محبّتك لأنّني أنا نفسي لا أحبّك. ولست أحاول أن أخفي عنك ذلك، لأنّني أعلم من ذا الذي أخاطب، أليس كذلك؟ ثمّ إنّك تعرف كلّ ما قد أقوله لك، أقرأ ذلك في عينيك. ففيم المواربة والحالة هذه؟ إنّ سرّنا لن يخفى عنك. فلعلّ ما تريده إذن هو أن تسمع هذا السرّ من شفتي؟ ليكن لك ما تريد: ألا فاعلم أنّنا لسنا معك، بل معه «هو». وذلك هو سرُّنا. لقد كففنا عن أن نكون معك منذ زمن طويل، وتحيّزنا له «هو». منذ ثمانية قرون قبلنا منه ما سبق أن رفضته أنت بقوّة، أعني الهبة الآخيرة التي عرضها عليك وهو يشير إلى ممالك الأرض كلّها. لقد قبلنا أن نأخذ من يديه روما وأن نأخذ السيف من قيصر، وأعلنّا أنفسنا ملوك العالم الوحيدين، رغم أنّنا لم ننجز إلى الآن عملنا. ولكن، من المذنب في هذا؟

إن هذا العمل لا يزال في بدايته، ولكنّه بدأ ولا مفرّ من الصبر طويلاً قبل أن نصل به إلى غايته، ولكنّنا سنبلغ هدفنا وسنصبح قياصرة العالم. وسيتاح لنا عندئذ أن نفكّر في سعادة مشتركة تنعم بها الإنسانيّة. لقد كان في وسعك أن تقبل السيف من قيصر في الماضي، فلماذا رفضت تلك الهبة الآخيرة؟ لو اتّبعت الوصيّة الثالثة التي نصحك بها الروح القويّ، لكان في وسعك أن تحقّق كلّ ما تتمنّاه الإنسانيّة، وهو أن تعرف من تطيع، وإلى من تعهد بقيادة ضميرها، وبأيّ وسيلة توحّد جميع البشر في خليّة جامعة مانعة كخليّة النمل. ذلك أنّ الحاجة إلى الوحدة الشاملة هو ثالث هموم النفس البشريّة وأكثرها قوّة. لقد حاولت الإنسانيّة في جميع الأزمان أن تنظّم نفسها على أساس شامل. لقد عرفنا أممًا كثيرة عظيمة كان لها تاريخ مجيد، ولكنّ شقاءها كان كبيرًا على مقدار نبلها، لأنّها أحسّت أكثر من غيرها من الشعوب بالحاجة إلى توحيد النوع البشريّ. إنّ الغزاة الكبار، من أمثال تيمورلنك وجنكيز خان، الذين مرّوا على الأرض مرور إعصار مخرّب وعاصفة مدمّرة، كانوا يتوقون إلى أن يصبحوا سادة العالم بأسره، ولكنّ شوقًا عميقًا واحدًا إلى توحيد جميع الشعوب كان يحرّكهم من دون أن يشعروا بذلك. فلو أنّك قبلت قانون القياصرة، لكان في وسعك أن تبني الإمبراطوريّة الشاملة، وأن تكفل السلام للإنسانيّة إلى الأبد. على من يقع عبء حكم البشر إن لم يقع على أولئك الذين يحكمون النفوس منذ الآن ويقضون على مصادر رزقهم؟ لقد أخذنا السيف إذن من قيصر. وإذا فعلنا ذلك فقد انكرناك أنت لنتبعه

«هو». ستنقضي قرون طويلة يغيب فيها الفكر الحرّ وتنتشر نظريّاتهم العلميّة وأكل لحوم البشر، ذلك أنّهم ما داموا قد شرعوا في بناء برج بابل بدوننا لا بدّ أن ينحدروا حتمًا إلى أكل لحوم البشر. ولكن «الوحش» سيأتي بعد ذلك إلينا زاحفًا، وسيلعق أقدامنا التي سيغسلها بدموعه الدامية. وسوف نركبه، ونرفع نحو السماوات كأسًا نقشت عليها هذه الكلمة: »السر». وساعتها إنّما ستدقّ ساعة السلام والسعادة للإنسانيّة.

إنّك فخور بصفوتك المختارة، ولكنّ الصفوة وحدها معك؛ أمّا نحن فسوف نعرف كيف نحمل الطمأنينة إلى جميع النفوس. ما أكثر الذين كانوا يتطلّعون إلى خدمتك، بين أبناء الصفوة المختارة، وهؤلاء الأقوياء، فانتظروك عبثًا، ثمّ سئموا من هذا الصبر الطويل العقيم، فوقفوا قوى فكرهم وحماسة قلبهم على غايات أرضيّة صرفة، وانتهى بهم الأمر إلى رفع راية حريّتهم عليك! ألست أنت الذي أعطيتهم راية الحريّة هذه؟ أمّا نحن الذين نهشّ على البشر بعصانا، فإنّ البشر سيكونون سعداء منّا، وسيعزفون عن التمرّد علينا، ولن يبيد بعضهم بعضًا كما يفعلون بفضل الحريّة التي تركتها لهم.

وسوف نعرف كيف نقنعهم من جهة أخرى بأنّهم لن يكونوا أحرارًا إلاّ متى تنازلوا عن حريّتهم، وسنكون قد ألزمناهم بخضوع لا رجعة عنه. هل ما نقوله لهم هو الحقيقة أم هو كذب؟ إنّهم لن يلبثوا أن يدركوا أنّه الحقيقة، لأنّهم سيتذكرون العبوديّة والآلام التي قادتهم إليها حريّتك. إنّ العلن وحريّة الفكر ستؤدّي بهم إلى طريق غير نافذة، لأنّه سيلقيهم في اضطراب لا مخرج منه، زاخر بالمعجزات المحيِّرة. فأمّا العصاة الأقوياء منهم فسيدمّرون أنفسهم، وأمّا العصاة الضعاف فسيقتل بعضهم بعضًا. ولكنّ الجمهرة الكبرى من الضعاف، فأنّهم سيزحفون على أقدامنا قائلين لنا: «أنتم على حقّ. إنّنا نعترف بهذا الآن، لأنّكم كنتم وحدكم تملكون أسراره. نحن نعود إليكم، أنقذونا من أنفسنا!

وعندما يتلقّون الخبز من أيدينا، سيرون بوضوح أنّهم هم الذين أنتجوه بعملهم، وأنّنا أخذناه منهم لنوزّعه بعد ذلك بدون أيّة معجزة. سيفهمون أنّنا لم نحوّل الحجارة إلى خبز، ولكنّهم سيغتبطون بأنّهم أطعموا على أيدينا وليس من الخبز نفسه، لن ينسوا قط أنّ الخبز الذي صنعوه كان، بدوننا، يتحوّل في أيديهم إلى حجارة، حتّى إذا رجعوا إلينا تحوّلت الحجارة خبزًا لهم. سيعرفون كيف يقدِّرون بعد الآن قيمة الخضوع النهائيّ! وحتّى يعرف الناس ذلك لن تكون حياتهم إلاّ شقاء. فمن ذا الذي ساهم أكثر من غيره في قلّة الفهم تلك؟ من الذي خرّب تلاحم القطيع وبعثره في طرق مجهولة؟ ولكن القطيع سيجتمع من جديد وسيعود إلى الطاعة، ولكن إلى الأبد في هذه المرّة. وسوف نهب عندئذ لهذه الكائنات

الضعيفة الجبانة سعادة هادئة وادعة هي السعادة الوحيدة التي تناسبهم. سنعلّمهم أخيرًا أن لا يزهوا بأنفسهم، لأنّك قد رفعتهم فجعلتهم متكبّرين. سنبرهن لهم على أنّهم لا حول ولا قوّة لهم ، وأنّهم أطفال مساكين، ولكنّ سعادة الأطفال هذه هي أعذب سعادة. سوف يصبحون خجولين وينظرون إلينا نظرتهم إلى حماة يحمونهم، وسوف يتراصّون حولنا خائفين كما تتراصّ أفراخ الدجاجة حول أمّها. سوف يدهشهم ويرعبهم أن يلاحظوا قوّتنا، فخورين بأنّ لهم سادة يبلغون هذا المبلغ من القوّة والذكاء، عرفوا كيف يسيطرون على هذا القطيع المكوَّن من آلاف الملايين من البشر. سوف يرتعشون خوفًا أمام غضبنا، تشلّ عقولهم وتدمع أعينهم كالنساء والأطفال. ولكنّهم بإشارة منّا، سوف ينتقّلون بمثل هذه السرعة إلى الفرح والمرح والغبطة، ضاحكين مغنّين كالصبية الصغار. وسنجبرهم على العمل طبعًا، نهّيىء لهم ساعات فراغهم حياة مليئة باللعب والغناء والرقصات البريئة.

وسنسمح لهم أيضًا بأن يرتكبوا الخطيئة، فهم ضعفاء وأشقياء. وسيحبوننا كالأطفال سبب تسامحنا. سنقول لهم إنّ كلّ إثم يمكن التوبة عنه إذا هو ارتُكب بموافقتنا. سنبيح لهم أن يأثموا لأنّنا نحبّهم، أمّا العقاب فسنأخذه على عاتقنا. سوف يحبوننا على أنّنا مخلصون لهم، لأنّنا نقبل أن نكون مسؤولين عن خطاياهم وذنوبهم أمام الربّ. ولن يكتموا عنّا سرًا. سنبيح لهم أو نحظّر عليهم، تبعًا لدرجة طاعتهم، أن يعيشوا مع نسائهم أو خليلاتهم، وأن يُنجبوا الأطفال أو لا ينجبوا، وسيخضعون لتوجيهاتنا فرحين. سيُفضون إلينا بأسرارهم وما يعانونه من آلام، وأخفى ما يضطرم في ضميرهم من أنواع العذاب. سنحكم في جميع الحالات، وسيرتضون حلولنا سعداء، لأنّها ستحرّرهم من القلق الذي يعانيه المرء متى كان عليه أن يتّخذ قرارًا حرًّا. وسيكون جميع الناس سعداء، جميع هؤلاء الملايين من البشر، باستثناء بضع مئات من الألوف الذين ستقودهم، سنكون وحدنا أشقياء، نحن الذين نملك السرّ. سيكون في هذا العالم مئات الملايين من الأطفال السعداء، لن يكون فيه إلاّ مائة ألف من الأشقياء هم الذين أخذوا على عاتقهم تحمُّل عذاب المعرفة، معرفة الخير والشرّ. وسوف يموت أولئك موتًا غامضًا، ينطفئون باسمك وادعين مسالمين، فلا يجدون في الحياة الآخرة إلاّ العدم. ولكنّنا سنعرف كيف نحتفظ بسرّ الموت ومن أجل سعادتهم سوف نصف لهم جمال المكافآت السماويّة والحياة الأبديّة. لئن كان بعد القبر حياة أخرى فلا شكّ أنّ هؤلاء ليسوا ممن ستوهب لهم تلك الحياة.

إنّ النبوءات تقول إنّك ستعود في يوم من الأيّام لتحقّق نصرًا جديدًا على الشرّ، وأنّك ستظهر محاطًا بالذين اخترتهم من أصحاب النفوس القويّة المتكبّرة الذين أنقذتهم. لسوف

نجيب عندئذ بأنّ هؤلاء إنّما أنقذوا أنفسهم وحدها، أمّا نحن فقد جئنا بالخلاص للناس كافّة. يُقال إنّ الزانية الدنيئة التي تعتلي ظهر «الوحش» وتحمل بيديها «كأس السر» سيجلّلها الخزي والعار ذات يوم، وأن الضعاف سيثورون من جديد فيمزّقون رداءها ويعرّون جسدها «النجس». ولكنّني سأنهض عندئذ فأشير إلى آلاف الملايين من الأطفال السعداء الذين يجهلون كلّ خطيئة، ونحن الذين نكون قد أخذنا على عاتقنا خطاياهم لأجل سعادتهم، سوف نمثل أمامك ونقول لك» «احكم علينا إذا كنت تستطيع، إذا كنت تجرؤ!». إعلم أنّني لا أخشاك، وأنّني عشت أنا أيضًا في الصحراء اقتات بالجراد وجذور النبات، وباركت الحرية التي وهبتها للبشر. وكنت أتهيأ لأن أدخل سلك صفوتك المختارة، وأن أكون واحدًا من الأقوياء المتكبّرين الذين يتألّف منهم جيش أتباعك الصغير، وكنت أحترق شوقًا إلى أن «أكمل عددهم». ولكنّني رجعت إلى صوابي، ورفضت أن أخدم الجنون. لقد عدت وانضممت إلى صف أولئك الذين يعملون في «إصلاح ما قمت أنت به». تركت المتكبّرين وانضممت إلى المساكين لأجل تحقيق سعادتهم. إنّ ما أعلنه لك اليوم سيتحقّق، وإنّ مملكتنا ستُبنى في هذا العالم. أعود فأكرّر لك: إنّك سترى غدًا هذا الجمهور المطيع يسرع بإشارة منّي إلى إضرام ألسنة اللهب، لأنّي سآمر بحرقك لأنّك جئت لإعاقة ما نقوم به من عمل. لئن وجد من استحقّ أن يهلك في النار، فهو أنت. سوف تُحرق غدًا. انتهى كلامي.

صمت المفتّش الكبير، وأخذ ينتظر من سجينه ردًّا. ولكنّ صمت السجين أثقل على نفسه. لقد اكتفى أسيره طوال مدّة كلامه بأن يحدّق إليه بنظرة رقيقة نافذة، عازمًا على أن لا يدخل في سجال معه. كان العجوز يرغب لو أن يجيبه السجين ولو بكلمات لاذعة أو رهيبة. ولكنّ السجين لم ينطق بكلمة واحدة. وها هو يقترب من العجوز فجأة فيطبع قبلة رقيقة على شفتيه الشاحبتين شحوب شفتي من بلغ من عمره التسعين، كان ذلك جوابه. ارتعش العجوز بتأثير هذه القبلة، واختلج شيء ما في طرفي شفتيه، واتّجه نحو الباب ففتحه وقال لسجينه: «إذهب الآن، ولا تعد بعد اليوم أبدًا!» وأومأ بيده إلى «الشوارع المظلمة المقفرة من المدينة» وانصرف السجين.

ماذا حصل للعجوز؟

لقد حرقت القبلة قلبه، ولكنّه لم يعدل عن موقفه».

الحلم المهادن خارج العلم*

سأضع أوّلاً أكثر الفرضيّات حساسيّة وإثارةً للجدل، ومنها سأبدأ: «على كلّ شعب عظيم أن يؤمن – ويجب أن يؤمن – إذا أراد أن يعيش طويلاً، بأنّ فيه وحده يكمن إنقاذ العالم، وأنّه إنّما يعيش لكي يقف على رأس الشعوب ويجذبها إليه سويّة، فيقودها في جوقة متناسقة إلى الهدف النهائيّ الملقى على عاتقها».

إنّني أؤكّد بأنّ هذا ما حدث لكلّ الأمم العظيمة القديمة والمعاصرة. وأؤكّد أنّ هذا الاعتقاد قد رفعها لتمتلك في زمنها تأثيرًا عالميًّا عظيمًا على مصير الإنسانيّة؟

هذا ما كان من دون جدال من شأن روسيا القديمة، وفيما بعد بالنسبة لروما أثناء المرحلة الكاثوليكيّة، ثمّ حدث لفرنسا عندما ورثت الفكرة الكاثوليكيّة، فاعتبرت نفسها ولمدّة قرنين من الزمن على رأس العالم، أخلاقيًّا على الأقل، وأحيانًا سياسيًّا، تقود تحرّكاته وتدلّه إلى المستقبل، حتّى أدركتها الهزيمة والاكتئاب أخيرًا. وبهذا كانت ألمانيا تحكم دائمًا، واضعة نفسها ضدّ الفكرة الكاثوليكيّة العالميّة، متسلّحة براية البروتستانتيّة وبحريّة الضمير اللانهائيّة. وأكرّر أنّ هذا ما يحدث لكلّ الأمم العظيمة في ذروة تطوّرها كبيرةً كانت أم صغيرة. ستقولون لي بأنّ ما أقوله خطأ، ولا صدق فيه، وستستشهدون بوعي تلك الأمم نفسه، وبوعي وإدراك علمائها ومفكّريها الذين كتبوا بشكل خاصّ عن الأهميّة الشاملة لكلّ الأمم الأوروبيّة التي شاركت جميعها في تأسيس الحضارة الأوروبيّة وانجازاتها. وأنا بالطبع لن أنكر مثل هذا الوعي، بغضّ النظر عن أنّ مثل هذه الاستنتاجات النهائيّة للوعي تبدو وكأنّها تعلن نهاية الحياة الحيّة للشعوب، لكنّني سأشير إلى أمر واحد فقط: إنّ هؤلاء المفكّرين والمحلّلين، ومهما كتبوا عن تناسق الأمم الهارموني العالميّ، يؤمنون في الوقت نفسه ويحسّون بشكل صادق وحيّ – مثلهم مثل شعوبهم – بأنّ في جوقة الأمم هذه التي تشكّل التناسق العالميّ، والتي صنعت مجتمعة الحضارة توجد أمّة ما

* هذا النص الذي ترجمه الدكتور ثائر زين الدين منتقى من عمل لدوستويوفسكي تحت عنوان "من يوميات كاتب". فيه يركز على أهمية البعد الروحي للفكرة الوطنية. (س.ف.)

«هي أمتهم بلا شك»، تمثّل رأس هذه الجوقة وهي الأكثر تطوّرًا، ولتكن الأمّة الفرنسيّة مثلاً ويقع على عاتقها قيادة الأمم الأخرى التي ستتبعها بالتأكيد. وهي وإن كانت تأخذ من تلك الأمم شيئًا، فإنّ مقدار ما تأخذه ضئيلٌ جدًّا. أمّا شعوب تلك الأمم فهي التي تأخذ من الأمّة القائدة كلّ شيء، كلّ ما هو جوهريّ ومهمّ، وتعيش بروحها وأفكارها. نعم ليس لشعوب تلك الأمم أن تفعل شيئًا إلاّ ملامسة روح الأمّة القائدة والانصهار فيها عاجلاً أم آجلاً. أنظروا إلى فرنسا الحاليّة الكئيبة والمجزّأة روحيًّا، إنّ فيها اليوم واحدة من تلك الأفكار التي ينظر إليها على أنّها جديدة، وهي حسب تصوّرنا طبيعيّة كامتدادٍ للفكرة الكاثوليكيّة العالميّة القديمة، وتطوير لها، لكن نصف الفرنسيّين تقريبًا يعتقد الآن بأنّ في هذه الفكرة ليس أنقاذهم فحسب، بل إنقاذ العالم أجمع. إنّ هذه الفكرة هي بالتحديد الاشتراكيّة الفرنسيّة، واشتراكيّتهم هذه بالطبع كاذبة ويائسة، والمسألة الآن ليست في نوعيّة هذه الاشتراكيّة، بل كونها موجودة وتعيش حياةً حيّة، ولا يشعر من يعتنقها بالشكّ أو الكآبة، كالجزء الأعظم من فرنسا. وانظروا من جهة أخرى إلى أيّ إنكليزي، أكان عاديًّا أم مهمًّا، لوردًا أم عاملاً، عالمًا أو غير متعلّم، وستتأكّدون أنّه يحاول أن يكون إنكليزيًّا قبل كلّ شيء، ويحافظ على إنكليزيّته في كلّ مراحل حياته الاجتماعيّة والخاصّة، السياسيّة والإنسانيّة، وحتّى عندما يحبّ الإنسانيّة يحبّها كونها إنكليزيّة. ستقولون لي إن كان الأمر كما تؤكّد، فإنّ هذا الغرور، هذا الاعتداد بالنفس، أمر مهين لتلك الشعوب العظيمة، وسيقلّل من أهميّتها بما ينطوي عليه من أنانيّة وشوفينيّة سخيفة، ولن يقدّم لها القوّة الحياتيّة، بل على العكس سيضرّ بها ويفسد حياة أبنائها، وستقولون إنّ مثل تلك الأفكار المجنونة والمتعجرفة لا تستحقّ التقليد، بل على العكس يجب إزالتها بنور العقل والقضاء عليها بالحكمة. ولنفترض أنّ ما تقولونه صحيح جدًّا من وجهة نظر معيّنة، لكن يجب علينا أن ننظر إلى الأمر من زاوية رؤية أخرى، وعندها لن نراه غير مذل فحسب، بل ستنقلب فكرتنا عنه رأسًا على عقب: ألا يحلم الفتى الصغير، الذي لم يعش من حياته شيئًا بعد أن يصبح بطلاً في المستقبل؟ ثقوا بأنّ مثل هذه الأحلام المتغطرسة والمتعجرفة ستكون أكثر حيويّة وفائدة من الأحلام العقلانيّة لهذا الفتى، الذي سيؤمن عندما يصبح في السادسة عشرة من عمره بالقول الحكيم: «السعادة خير من البطولة». ثقوا أنّ حياة هذا الفتى، وحتّى بعد أن يعاني من المصائب والفشل ما يعانيه ستكون بشكل عامّ أجمل من الحياة الهادئة لرفيق طفولته العاقل، على الرغم من أن الظروف كانت مواتية ليعيش فوق «ريش النعام». إنّ مثل هذه الثقة بالنفس ليست غير أخلاقيّة، وليست اعتزازاً بذيئًا بالذات...

وهكذا هو الأمر بالنسبة للشعوب، قد تكون هناك شعوب متبصّرة ونزيهة ومعتدلة وهادئة، معظم أبنائها من التجّار وصانعي السفن، يعيشون برخاء ورتابة غير عادية، فإنّ مثل هذه الشعوب لا تذهب بعيدًا، سوف تصل لا محالة إلى نهاية لا تخدم الإنسانيّة، إنّها تفتقد الحيويّة والاعتداد العظيم بالنفس، إنّها لا تقف «على ظهر تلك الحيتان الثلاثة المتحرّكة» التي تنتصب على ظهرها الشعوب العظيمة!

إنّ الإيمان بأنّك تريد «وقادر» أن تقول للعالم الكلمة الأخيرة، وأن تجدّد قواه الحيّة الكثيرة، الإيمان بقدسيّة مثلك، الإيمان بقوّة حبّك وتعطّشك لخدمة الإنسانيّة - إنّ هذا الإيمان رهن بالأمّة ذات الحياة الأسمى، الأمّة التي سيقدّمون باسمها أكبر الفائدة للإنسانيّة، التي سيقدّمون لها كلّ ذلك الجزء من قوّتهم الحيويّة، وأفكارهم وقدراتهم العضويّة التي منحتهم إيّاها الطبيعة عند تشكّلهم وخصّتهم بها على شكل موروثات للإنسانيّة القادمة.

إنّ أمّة ذات إيمان قويّ كهذه، تستحقّ الحياة السامية. لقد كان الفارس الخرافيّ القديم يؤمن بأن العقبات المختلفة ستعترض طريقه والأشباح والغيلان وأنّه سينتصر عليها، وسيصل هدفه إذا هو صان العهد بأمانة: «العدالة والعفّة والشقاء». ستقولون إنّ هذا كلّه أغانٍ وخرافات يؤمن بها فقط دون كيخوت، بينما قوانين الحياة الواقعيّة للأمّة ليست كذلك... إنّني عن عمد أمسكت بكم وكأنّكم مثل دون كيخوت، وتحملون الفكرة نفسها، التي يؤمن بها، والتي من خلالها ستجدّدون الإنسانيّة.

ما الذي تؤمنون به أنتم في حقيقة الأمر؟ إنّكم تؤمنون «وأنا معكم» بشموليّة الإنسانيّة، أي إنّ الحواجز الطبيعيّة والآراء الباطلة ستسقط في يوم ما، أمام نور العقل والمعرفة، ستسقط تلك الأشياء التي كانت حتّى الآن تعيق التعامل الحرّ بين الأمم بسبب المتطلّبات القوميّة الأنانيّة، وحينها فقط ستعيش الشعوب بوئام وروح واحدة، تمامًا كالأخوة، ستعيش الشعوب بحبّ وعقلانيّة، طامحة إلى التناسق الهارموني العامّ، أيّ إيمان أيّها السادة يمكن أن يكون أسمى وأقدس من إيمانكم هذا؟ والأهمّ أيّها السادة إنّكم لن تجدوا مثل إيمانكم هذا في العالم كلّه، لن تجدوه عند أحد حتّى على سبيل المثال - عند شعوب أوروبا، تلك التي تتمايز خصائص قوميّاتها بدقّة وترتسم بكثير من الخصوصيّة، فإن وجد كان على مستوى وعي متأمّل متوقّد وملتهب لشخص ما، لكنّه يبقى في إطار حجرات المكاتب الخاصّة. أمّا عندكم أيّها السادة، وعندكم هذه تعني: عندنا نحن الروس جميعًا، فإنّ هذا الايمان إيمان عامّ أساس وحي، الجميع عندنا يؤمنون بذلك عن وعي وببساطة، وستجد

هذا الإيمان في وسط المثقّفين بالتأكيد، وفي الغريزة الحيّة للشعب البسيط، الذي تأمره عقيدته الدينيّة حتّى بأن يؤمن بما ذكرته. نعم أيّها السادة ألم تعتقدوا أنّكم أنتم وحدكم «الإنسانيّين» من بين كلّ المثقّفين «الانتلجنسيا» الروس، أمّا الباقون فأصحاب نزعة سلافيّة وقوميّون؟ لا ليس الأمر كذلك، فالمتعصّبون للسلافيّة والقوميّون يؤمنون تمامًا بما تؤمنون به في هذا المجال. بل إنّ إيمانهم أقوى وأشدّ من إيمانكم نفسه.

فلنأخذ الآن أصحاب النزعة السلافيّة: ما الذي قد أعلنوه على لسان قادتهم ومؤسّسي حركتهم ممثّلي تعاليمهم؟ لقد أعلنوا من دون مواربة وباستنتاجات دقيقة وواضحة أنّ روسيا مع الشعوب السلافيّة، بل على رأسها، ستقول الكلمة الأعظم للعالم كلّه، تلك الكلمة التي سمعها في وقت ما، والتي ستصبح نداءً للوحدة الإنسانيّة الشاملة، بعيدًا عن روح الأنانيّة الخاصّة التي قد توحّد الناس والأمم بشكل مصطنع وغير طبيعيّ في إطار حضارة ما، وضمن آليّات الصراع من أجل البقاء. لقد كان المثل الأعلى لأصحاب النزعة السلافيّة هو الاتّحاد في روح الحبّ الشامل الصادق من دون كذب أو ماديّة على أساس الأنموذج السمح الخاصّ الذي قدّر للشعب الروسيّ أن يقدّمه لأوروبا على رأس اتّحاد الشعوب السلافيّة. ستقولون لي إنّكم لا تؤمنون بقولي هذا، الذي هو حصيلة تفكير خلف طاولة الكتابة فحسب. لكنّ المسألة ليست في سؤالنا: كيف يؤمن كلّ منّا، بل في كوننا جميعًا وبغضّ النظر عن كلّ الاختلافات نلتقي على هذه الفكرة النهائيّة العامّة للوحدة الإنسانيّة الشاملة ونخلص لها. هذه حقيقة لا يقترب منها الشكّ، وهي مدهشة بذاتها، لأنّ مثل هذا الشعور – بهذه الدرجة من الحياة والضرورة الملحّة – لا تجده عند أيّ من الشعوب. وإذا كان الأمر كذلك فإنّ لدينا – لدينا جميعًا – فكرة قوميّة صلبة ومحدّدة المعالم، وأركّز على كلمة «قوميّة». وعليه إذا كانت الفكرة القوميّة الروسيّة، تعني في نهاية المطاف وحدة إنسانيّة عالميّة، فهذا يعني أنّ فائدتنا جميعًا تكمن في أن ننهي خلافاتنا إلى حين، ونصبح بأكبر سرعة ممكنة روسيّين بل وطنيّين.

إنّ خلاصنا كلّه يكمن فقط في ألا نتجادل مسبقًا حول كيفيّة تجسيد هذه الفكرة وفي أيّ شكل، الشكل الذي تطرحونه أنتم أم الذي نطرحه نحن؟! يكمن في أن نخرج جميعًا من غرف المكاتب وننتقل معًا إلى الفعل مباشرة وهذه هي نقطة المصالحة.

خواطر من حياة وتعاليم الراهب زوسيما الاكبر*

أثناء شبابي، منذ أكثر من أربعين عامًا، طفت أرجاء روسيا بصحبة الأب أنفيم نجمع المعونات لديرنا الفقير. وتوقّفنا ليلاً في أحد الأيّام عند شاطىء نهر كبير من الأنهار الصالحة للملاحة، بين الصيّادين، فجلس إلى جوارنا فتى جميل المحيا ، هو فلاّح يقارب الثامنة عشرة من العمر، كان يتعجّل الالتحاق بعمله في الغد، لأنّه سيقوم بجرّ سفينة تجاريّة. كان الفتى ينظر أمامه حالمًا بعينيه الصافيتين الحلوتين. وكانت ليلة حارّة ومشرقة مضيئة من ليالي شهر تمّوز. وفي النهر العريض تتصاعد أبخرة تحمل إلينا طرواة منعشة. وتظهر سمكة كبيرة فوق سطح الماء من حين إلى حين. فتتلاطم الأمواج تلاطمًا خفيفًا. سكتت العصافير، فكأنّ الطبيعة كلّها تصلّي لله صامتة في هذا الهدوء، من حولنا على الأرض والسماء. كنت وحدي ساهرًا مع هذا الفتى، تحدّثنا عن جمال خلق الله وعن سرّه، عن الأعشاب والنمل والحشرات والنحل، عن جميع هذه المخلوقات التي تعرف طريقها جميعًا في هذا العالم، من دون أن يكون لها ذكاء ، فإذا هي بهذا العلم المعجز تشهد بعظمة صنع الله وتساهم في كلّ لحظة، بعملها المتواضع، في تحقيق الغايات العليا للخالق. فلاحظت أنّ قلب هذا الشاب اللطيف قد تأثّر تأثّرًا قويًّا بالجوّ. وأسر إليّ بأنّه يحبّ الغابات وطيورها، لأنّه كان هو نفسه يربّي الطيور ويعرف تغريد جميع أنواعها، ويعرف كذلك وسائل اجتذابها. قال لي: «لا شيء أروع من الغابة، وكلّ شيء في الطبيعة جميل.»

فأجبته قائلاً: «هذا صحيح . كل شيء في خليقة الله رائع ومؤثر، لأنّ كل شيء فيها حقّ. أنظر إلى ذات يوم كان طوباوي عظيم كان يعيش معتزلاً في حجرة وسط الغابة، فأشفق الناسك على الحصان مثلاً، هذا الحيوان النبيل المتعلّق بالإنسان والقريب منه، أو الثور الذي يخضع له ويطعمه ويعمل من أجله. ما أعذب هذه الحيوانات الأليفة، وما أكرم عاطفتها نحو أصحابها الذين كثيرًا ما يضربونها بغير شفقة. ما ألطف الوداعة والثقة اللّتين

---

* هذا النص الذي ترجمه الدكتور ثائر زين الدين مأخوذ من رواية دوستيوفسكي "الاخوة كرامازوف" وهو يروي صوراً من حياة وتعاليم أحد الرهبان الروس زوسيما الاكبر، الذي عرف بوقارته وحكمته وصرامته وأبوته الزوحية للأليوشا كارامازوف.

تتجلّيان في نظراتها! أليس هذا جميلاً؟ إنّه لأمر مؤثّر في النفس أن نتذكّر أنّ هذه الحيوانات بلا خطيئة، لأنّ كلّ ما في الكون بريء كامل إلاّ الإنسان. لقد كان المسيح مع الحيوانات، قبل أن يأتي ليكون معنا».

فسألني الفتى: «لماذا؟ هل المسيح معها أيضًا؟».

فأجبته قائلاً: لا بدّ أن يكون الأمر كذلك، ما دامت الكلمة للجميع . إنّ كلّ مخلوق، إنّ كلّ شيء، حتّى أصغر ورقة من أوراق الأشجار ، يشهد بعظمة الخالق ويسبّح بحمده. إنّ كلّ شيء في الطبيعة يندفع نحو المسيح، ويناديه على غير شعور منه، لأنّه يملك هذه الفضيلة السريّة، وهي أنّه بغير خطيئة. أنظر في الغابة إلى الدبّ المخيف الضاري فهو رغم ذلك يمتلك شيئًا من البراءة! قلت له هذا. وقصصت عليه أنّ دبًّا اقترب من الطوباويّ،

فهبّ إلى لقائه بغير وجل، ومدّ إليه قطعة من خبز قائلاً: «كل في سلام، وليكن المسيح معك»، فابتعد الوحش الضاري طائعًا من دون أن يلحق بالطوباويّ أيّ أذى. تأثّر الفتى تأثّرًا شديدًا من أن الدّب انصرف من دون أن يهجم على الطوباويّ ومن أنّ المسيح كان معه.

وصاح يقول: «ما أروع هذا! وما أروع كلّ شيء في خلق الله!» وظلّ مطرقًا مفكّرًا خلال مدّة طويلة، غارقًا في تأمّلات لطيفة وأحلام عذبة. رأيت أنّه يفهمني، ثمّ استلقى قريبًا منّي، ونام نومًا هادئًا. بارك الربّ في الشباب! صلّيت من أجله قبل أن أنام أنا أيضًا. ربّي إبعث السلام والنور إلى شعبك.

الراهب الروسيّ ودوره الممكن

أيّها الآباء والمعلّمون، ما الراهب؟ إنّ هذه الكلمة تتردّد على شفاه بعض الناس من الفئات المثقّفة بسخرية، وبعض الناس يعتبرها مسبّة ومصدر إهانة. وسوء الفهم هذا يتفاقم يومًا بعد يوم. والحقيقة أنّ عليّ أن أعترف بأسف شديد أنّ من الرهبان الكسالى والفاسقين والمخادعين، الذين دخلوا الأديرة لغاياتهم. وإلى هؤلاء يشير المتنوّرون المتعلّمون من أبناء مجتمعين قائلين: «أنتم كسالى، ولا نفع يرتجى منكم للمجتمع، طفيليّون شحّاذون لا تخجلون، وتعيشون على جهد غيركم». وعلى الرّغم من ذلك ما أكثر المجتهدين، الطامحين في الأديرة، أولئك المتعطّشين للصلوات الحارّة التي يرفعونها في عزلتهم إلى الربّ. لكنّ الناس لا يهتمّون بهؤلاء بقدر ما يلقون بالاً إلى أولئك، وعنهم لا يتحدّثون. وكم ستكون دهشة الناس كبيرة حين أقول إنّ هؤلاء الرهبان المتواضعين المتعطّشين إلى

العزلة والصلاة هم الذين سينقذون أرض روسيا مرّة أخرى، لأنّهم يستعدّون صامتين «لليوم والساعة، للشهر والسنة»، ويحفظون صورة المسيح بكثير من الخشوع والتقوى. إنّهم يعيشون وفق تعاليم الآباء والرسل والشهداء في حقيقة الربّ، حتّى إذا آن الأوان أظهروا صورته في وجه حقيقة العالم المترنّحة.

إنّها فكرة عظيمة. إنّها النجم الذي سيبزغ من الشرق.

هذا هو رأيي في الراهب. هل أنا مخطىء هل بنيت حكمي هذا على الغرور؟ أنظروا إلى الناس غير المتديّنين الذين يتعالون فوق خلق الله، ألم يدنسوا في العالم صورة الله وحقيقته، وقد خلقوا على هيئته لديهم العلم، لكنّ العلم يعرف ما تدركه الحواس فحسب. أمّا العالم الروحيّ، أمّا الجزء الأسمى من الحقيقة البشريّة فقد نقضوه ورفضوه، شاعرين بالغبطة والنصر، بل وبالحقد. لقد رفع العالم راية الحريّة، وبخاصّة في الأيّام الأخيرة. ولكن إلى أين تقود هذه الحريّة؟ إلى العبوديّة فقط والانتحار، لأنّ الناس يقولون : «إنّ لك متطلّبات وعليك أن تسعى إلى تحقيقها، لأنّك تملك الحقّ كالأغنياء والمشهورين الكبار. لا تخف من تحقيق رغباتك ، بل عليك أن تضاعفها. هذه تعاليم العالم، هذه الأيّام. وفي هذا يرون الحريّة. فما الذي تقود إليه مضاعفة الرغبات؟ إنّها تقود عند الأغنياء إلى «العزلة» والانتحار النفسيّ، وعند الفقراء إلى الحسد والجريمة، لأنّهم قد أعطوا الحقّ في مضاعفة الرغبات، لكنّهم لم يجدوا الوسائل لإشباعها. يزعمون أنّ العالم مع الزمن، سيزداد اتّحادًا، لأنّ الإحساس بالأخوة سيزداد مع المكتشفات الحديثة، والتواصل بنقل الأفكار عبر الهواء ويا أسفاه، لا تصدّقوا وحدة الناس هذه!

فلو فهمنا الحريّة على أنّها مضاعفة حاجات الناس وإشباعها، لكنّنا نعدل عن تشويه طبيعة الإنسان ، لأنّنا بذلك نثير فيه الكثير من الرغبات الغبيّة الباطلة، والعادات والأمنيات السخيفة. إنّ البشر اليوم يعيشون لأجل الحسد فحسب، إرضاء للرغبات والشهوات والغرور الشخصيّ. إنّ امتلاك الأطعمة، والخروج في الرحلات والنزهات، واقتناء العربات الفاخرة، وامتلاك الأقنان والخدم، واكتساب الألقاب، يعدّ اليوم أمرًا ضروريًّا جدًّا، أمراً يستحقّ أن يموت المرء في سبيله، وأن يضحّي بالشرف ومحبّة الإنسان للإنسان، حتّى أنّ الكثير من البشر يفضّل الانتحار على أنّ ذلك لا يحقّ له. وهذا التأكيد ينطبق على من لا يملك الثراء والغنى الفاحشين. أمّا بالنسبة للفقراء فإنّهم يخنقون رغباتهم الصعبة التحقيق وحسدهم بالسكر، ولكنّهم قريبًا وعوضًا عن الخمر سيسكرون بالدماء... إلى هذا إنّما يقودونهم. واسمحوا لي الآن أن أسألكم : هل هذا الرجل حرّ؟

لقد عرفت واحدًا من المناضلين في سبيل الفكرة، وقد حدّثني بنفسه أنّهم حين حرموه في سجنه من التدخين، شعر بعذاب شديد أوشك جرّاءه أن يخون «فكرته» لقاء السماح له بالحصول على التبغ. ومثل هذا الشخص يزعم أنّه يقول: «لأجل الإنسانيّة سأناضل». فأيّ مبلغ من النضال سيبلغ هذا الرجل، وعلى ماذا يقدر؟ ربّما يقدر على القيام بخطوات موقّتة سريعة، لكنّه لا يصمد طويلاً. ولهذا فليس غريبًا أن يحصل البشر على العبوديّة عوضًا عن الحريّة. وبدلاً من أن يخدموا الأخوّة والوحدة الإنسانيّة سقطوا في «العزلة» والوحدة الذاتيّة، كما قال لي تمامًا في شبابي معلّمي وضيفي السرّيّ الغامض. ولهذا نرى الكون اليوم وقد أوشك يفقد الإحساس بضرورة خدمة الإنسانيّة، بوحدة الإنسانيّة وبالأخوة بين البشر، بل إنّ مثل هذه الأفكار صارت تقابل بالابتسامات الساخرة... وكيف للإنسان أن يتحرّر من عادته التي ألفها، وتربّى عليها؟ إنّ هذا الإنسان سيجد نفسه في العزلة، ولن تغنيه الوحدة مع الآخرين. هذا ما وصل إليه الناس: لقد راكموا الثروات فوق الثروات، أمّا السعادة فقد تناقصت وتناقصت.

أمّا طريق الرهبنة فمختلف تمامًا. ربّما يسخرّ الناس كثيرًا من الطاعة والصيام والصلاة، مع أنّ في هذه الأسباب يتلخّص الطريق إلى الحريّة الحقيقيّة الأكيدة. أتحرّر من حاجاتي الزائدة ورغباتي غير الضروريّة، أسيطر على إرادتي الذاتيّة في الزهو والتعالي واستبدالها بالطاعة، أستطيع أن أحقّق ذلك بمساعدة الربّ، فأحقّق الحياة الروحيّة، ومعها الفرح الروحيّ! مَن إذًا أقدر على حمل فكرة عظيمة والنضال من أجلها: المنعزل الغني، أم ذلك «المتحرّر» من استبداد العادات والأشياء؟ أحيانًا يعيبون على الراهب وحدته: «لقد فضّلت العزلة كي تنقذ نفسك خلف جدران ديرك، ونسيت الخدمة المشتركة الأخويّة للإنسانيّة، ولسوف نرى بعد ذلك من الذي سيخدم قضيّة الأخوة الإنسانيّة أكثر من غيره. إنّهم هم الذين يعيشون في عزلة وليس نحن، ولكنّهم لا يرون ذلك. ومن بيئتنا ووسطنا نحن إنّما ظهر مناضل الشعب. وهكذا سيكون الأمر الآن؟ إنّ هؤلاء الرهبان المتواضعين والصائمين الصامتين، سيهبّون للقيام بعظائم الأمور، والشعب هو الذي سينقذ روسيا، وقد كانت الأديرة الروسيّة متّحدة دائمًا مع الشعب. فإن كان الشعب يعيش في عزلة فنحن كذلك. إنّ الشعب يؤمن بما نؤمن به نحن. أمّا «المثقّف» الذي لا يؤمن بروسيا، فلن يستطيع أن يفعل شيئًا حتّى ولو كان عبقريًّا صادق القلب والعاطفة. تذكّروا ذلك، إنّ الشعب سيتصدّى للملحدين، وستصبح روسيا أرثوذكسيّة موحّدة. حافظوا على هذا الشعب وصونوا طهارته

وقلبه. ربّوه بصمت. هذه هي مأثرتكم اليوم. لأنّ هذا الشعب يحمل الله في روحه، وعن الصلاة والجنّة ومعرفة العالم الآخر.

يا إخوتي لا تخافوا آثام الناس. أحبّوا البشر على الرّغم من أخطائهم، لأنّ مثل هذه المحبّة شبيهة بمحبّة الربّ، وهي قمّة المحبّة فوق الأرض. أحبّوا مخلوقات الربّ كافّة، مجتمعة. أحبّوا كلّ ذرّة رمل، كلّ ورقة شجر، كلّ شعاع ضوء. أحبّوا الحيوانات، النباتات، أحبّوا كلّ شيء. حين تحبّ كلّ شيء فستدرك سير الربّ في هذه الأشياء. وتنمو المعرفة التي تحصل عليها يومًا فيومًا، فتجد نفسك في النهاية تحبّ العالم كلّه ، الكون كلّه. أحبّوا الحيوانات، فقد منحها الربّ بذرّة من الفكر وفرحًا بريئًا، لا تثيروها ولا تعذبوها، لا تحرموها الفرح، ولا تخالفوا في ذلك إرادة الربّ. أيّها الإنسان لا تتعالى على الحيوانات ، فهي لا تعرف الإثم، أمّا أنت فعلى الرّغم من عظمتك تدنّس الأرض بظهورك عليها وتدنّسها بما تتركه بعد رحيلك – وأسفاه هذا! ما نفعله جميعًا بلا استثناء! أحبوا بخاصّة الأطفال لأنّهم بلا خطيئة أيضًا، إنّهم كالملائكة، وهم يعيشون ليبعثوا الفرحة في قلوبنا وليطهّروها، وليكونوا مثالاً لنا وقدوة! الويل لمن يسيء إلى الأطفال، لقد علّمني الآب أنغيم أن أحبّهم. كان متواضعًا ولطيفًا، يشتري بما يوهب لنا من مال حلوى يوزّعها على الأطفال. لم يكن يمرّ بهم إلاّ وتخفق روحه عميقًا. لقد كان هكذا.

نقف أحيانًا في حالة من الشكّ عندما نرى آثام الناس ونتساءل : «هل نرد بالقوّة، أم بالحبّ المسالم؟ وعليك دائمًا أن تحلّ الأمر هكذا: «أرد بالحبّ الحالم. أفعل ذلك دائمًا وأبدًا وسننتصر على الدنيا. إنّ الحبّ المتواضع والمسالم قوّة هائلة، وهي أشدّ من أيّ قوّة أخرى، ولا شيء يعدلها. راقب نفسك كلّ يوم، كلّ ساعة، كلّ دقيقة، لكي تكون صورتك مثالاً للطهارة، ها أنت تمرّ بطفل صغير، غاضبًا وتردّد عبارة فاحشة. وقد امتلأت نفسك حقدًا، أنت لم تلاحظ على الأرجح الطفل، لكنّه رآك وستبقى صورتك الخبيثة النجسة في قلبه البريء الذي لا أحد يحميه.

أنت لم تكن تعرف ذلك. ولكنّك ألقيت بذور الشرّ في نفسه، وقد تنمو هذه البذور. كلّ ذلك لأنّك لم تتنبّه لنفسك أمام الطفل، ولأنّك لم تربّ الحبّ اليقظ الفعّال في نفسك. يا إخوتي الحبّ معلّم، لكن من الواجب أن نتعلّم كيف نمتلكه ، لأنّ من الصعوبة بمكان أن نفعل ذلك، وثمنه غالٍ جدًا ، ثمنه العمل الطويل على النفس ولزمن طويل. لأنّ الحبّ هنا لا يعني أن يحدث الأمر مصادفة ومن اللحظة الأولى، بل يعني أن تحبّ طوال العمر. إنّ الحبّ اللحظي والعابر يقدر عليه كلّ الناس، حتّى المجرم.

لقد كان أخي الشاب يطلب المغفرة من العصافير، وربّما بدا الأمر جنونًا، لكنّ أخي كان محقًّا ، فالحياة أشبه بمحيط يختلط فيه ويمتزج كلّ شيء. إنّك ما إن تلمس جهة ما فيه، حتّى تستمع إلى صدى ذلك في الجانب الآخرمن العالم. ربّما كان طلب المغفرة من العصافير جنونًا، ولكن حال العصافير يصبح أفضل، وكذلك حال الطفل وسائر المخلوقات والبهائم من حولك، حين تكون أنت أكثر طيبة ممّا أنت عليه الآن. كلّ ما حولنا كالمحيط، أؤكّد لكم، ومتى تستوعب ذلك تستغفر العصافير، ويتملّكك حبّ شامل كما لو كنت في حالة وجد غامر، فإذا بك تسأل العصافير أن تغفر لك خطاياك. عليك أن تحافظ على وجدك هذا مهما بدا الأمر للناس غريبًا وبلا معنى!

أحبّائي أطلبوا من الربّ أن يمنحكم الفرح، وكونوا فرحين سعداء كالأطفال، كطيور السماء، ولا تدعوا آثام الناس تصرفكم عن شؤونكم وتشوّش أفكارهم، ولا تخافوا على أعمالكم من أن تضيّعها تلك الأيّام، أو أن تمنعها من التحقّق والوصول إلى غاياتهم، ولا تقولوا البتّة:

«قويّة الخطيئة»، قويّ الرجس، قويّة البيئة الخبيثة، أمّا نحن فوحيدون ولا قوّة لنا، ستدمّرنا هذه البيئة النجسة ولن تمكننا من القيام بالعمل الطيّب».

لا تتركوا اليأس يسيطر عليكم يا أبنائي، واعلموا أنّ أمامكم وسيلة واحدة لإنقاذ أنفسكم : أن يسيطر واحدكم على نفسه، وأن يعدّها مسؤولة عن كلّ خطايا البشر. وتلك هي الحقيقة. فبمجرّد أن تجعل نفسك مسؤولاً عن كلّ شيء وعن جميع البشر، تنكشف لك حقيقة مفادها أنّك فعلاً كذلك، وأنّ ذنبك ليس مجرّد وهم. أمّا إذا فعلتم عكس ذلك وألقيتم على سواكم كسلكم وتراخيكم، إنتهيتم إلى شرك التكبّر الشيطانيّ والزهو، فتمرّدتم على مشيئة الربّ. وفيما يخصّ التكبّر الشيطانيّ فسأقول لكم رأيي: إنّ من الصعوبة علينا على الأرض أن نفهم حقيقته، ولهذا نجدنا ميّالين للوقوع في الخطأ وتعميمه. بل ونفترض بغرور أنّ ما فعلناه هو من العظمة والروعة بمكان بحيث أنّ الكثير من أقوى أشكال مشاعرنا ومن تغيّرات طبيعتنا الشخصيّة يبقى غامضًا، عسيرًا على الإدراك ما دمنا في الحياة الدنيا. لكن لا تستسلموا لإغراء مفاده أنّ جهلكم هذا سيحميكم، لأنّ القاضي الأزليّ سيحاسبكم على ما كان بإمكانكم فعله وبلوغه، ليس على ما لم تبلغوه من المعرفة، وهذا ما ستدركونه بأنفسكم، لأنّكم عندئذ ستفهمون كلّ شيء وستضاء عقولكم فتكفون عن الجدال إنّنا – الحقّ أقول لكم – تائهون في هذه الأرض، ولو لم يكن نموذج المسيح وصورته الغالية أمام عيوننا فسنضيع تمامًا وننتهي كما حدث للبشر الذين عاشوا قبل الطوفان. إنّ الكثير من

الأشياء تظلّ مجهولة بالنسبة لنا في هذه الدنيا. غير أنّ لدينا بالمقابل شعوراً سرياً عالياً بالصلة الحيّة التي تربطنا بالعالم الآخر، بعالم أعلى وأسمى، حيث تمتدّ جذور أفكارنا ومشاعرنا وهناك وليس في هذا العالم. ولهذا السبب يرى الفلاسفة أنّ جوهر الأشياء لا يمكن أن يدرك في هذه الحياة. إنّما جمع الربّ بذوره من عوالم شتّى، فرماها في الأرض ليزرع حديقته، ونبت كلّ ما شأنه أن ينبت. إلاّ أنّ هذه النباتات النامية لا تحيا وتستمرّ في حياتها إلاّ بعمق إحساسها بالصلة السريّة مع ذلك العالم الآخر، فإذا ضعف هذ الإحساس في أعماقك أو اندثر ماتت النبتة فيك. فتصبح عديم الإكتراث بالحياة نفسها بل وكارهًا لها. هذا ما أراه.

وهل يجوز أن يحكم الإنسان على أقرانه عن الإيمان حتّى النهاية.

تذكر بخاصّة: إنّه ليس بإمكانك أن تكون قاضيًا في أمثالك، لأنّه من غير المعقول على هذه الأرض أن يكون المرء قاضيًا يقضي بشأن مجرم، قبل أن يعلم أنّه – وهو القاضي – ليس أيضًا إلاّ مجرمًا كالذي يقف أمامه، وأنّه ربّما كان أكثر الناس مسؤوليّة عن الجريمة الماثلة قبالته. ما لم يدرك المرء كلّ ذلك، فلن يستطيع أن يصبح قاضيًا. كم يبدو هذا الرأي غبيًا، لكنّه الحقيقة بعينها! فلو كنت أنا مثلاً قاضيًا وكنت عادلاً تمامًا، لما كان لهذا الرجل الذي يقف أمامي أن يرتكب جريمته. إذا كان بمقدورك أن تحمل على عاتقك جريمة الواقف أمامك، أن تجعل قلبك حكمًا فيصدر الحكم منه، فافعل ذلك ولا تتردّد وتألّم أنت عوضًا عنه، ثمّ اصرفه من دون أن توجّه اللوم إليه. حتّى ولو نصّبك القانون حكمًا عليه تصرّف بهذه الروح، لأنّه سينصرف من عندك ويحاكم نفسه بقسوة أشدّ ممّا كنت ستفعل أنت. وإذا شعرت أنّه سيقابل موقفك نحوه وحبّك له بالسخريّة منك، فلا تجعل موقفه هذا يغضبك. والأمر يعني أنّ ساعته لم تحن بعد، ولكنّها قادمة في ميعادها، وحتّى لو لم تأت فلا تهتمّ لذلك. إن لم يكن هو ، فشخص آخر بالتأكيد سيعترف بذنبه وسيتألم، وسيحاكم نفسه ويحملها الذنب كاملاً، وستتأكد الحقيقة في النهاية. صدّق هذا، صدّقه جازمًا، لأنّه الجوهر الذي يقوم عليه الأمل وإيمان القدّيسين.

لا تتكاسل، إذا تذكّرت وقد خلدت إلى النوم: «أنا لم أقم بهذا العمل، الذي كان عليّ أن أفعله». فانهض من فورك وقم بفعل ما لم تفعله. إذا وجدت نفسك محوطًا بأناس أشرار لا إحساس لديهم، ولا رغبة عندهم لسماعك، فارتم أمامهم واستغفرهم لأنّك في الحقيقة تحمل شيئًا من الذنب في عدم إصغائهم لك. وإن شعرت أنّك غير قادر على مخاطبة الأشرار، فاخدمهم صامتًا متواضعًا، ولا تفقد الأمل. وإذا انصرف عنك الناس وطردوك

بالقوّة، فأصبحت وحيدًا، أسجد عندها على الأرض واغمرها بقبلاتك واسقها بدمعك، فتحمل لك تلك الدموع ثمارًا، حتّى ولو كنت معزولاً لا سامع ولا مبصر لك. حافظ على إيمانك حتّى النهاية، حتّى ولو حدث أن كفر الجميع وبقيت المؤمن الوحيد؛ وعندها لا تتوقّف عن تقديم الأضحيات باسم الربّ، فإنّ حدث ولقيت شخصًا مثلك فستصحبان عندها إثنين، ضمّا واحدكما الآخر بمحبّة وصليا للربّ، وسينتعش الكون كلّه بالحبّ الحيّ، ذلك أنّ الحقيقة التي يريدها الربّ ستتحقّق بكما على الرّغم من أنّكما لستما سوى شخصين، شخصين فحسب.

وإذا حدث وارتكبت معصية ورحت تتعذّب نادمًا على ما فعلت، فليسعدك أن تتذكّر أنّ في الناس غيرك من لم يرتكب إثمًا، وعندها قل لنفسك: لئن أخطأت أنا، فهناك من لم يرتكب خطأ أو إثمًا وظل طاهرًا.

وإذا أثارتك شرور الناس وبلغت منك مبلغًا لا تستطيع احتماله، وأصبحت تتمنّى أن تنتقم من المجرمين، فاحرص بادىء ذي بدء أن تصون نفسك من هذه المشاعر، ثمّ إذهب من لحظتك وإبحث عن ألم خاصّ بك كما لو كنت مسؤولاً عن جرائم هؤلاء البشر. إقبل هذا الألم الخاصّ واحتمله، وعندما سيهدأ قلبك ويطمئنّ، ستدرك أنّ لك نصيبًا من الإثم، فقد كان بإمكانك بقوّة القدوة والمثال أن تهدي هؤلاء الخاطئين وكأنّك المؤمن الوحيد، لكنّك لم تفعل. فلو كنت قد أضأت لهم هذا الطريق بنورك لاستطاع غيرهم أن يسيروا على هدي هذا النور، ولما كان ذلك الآثم على الأرجح قد ارتكب الإثم الذي تراه، ولكان طاهرًا وشريفًا بفعل ضيائك.

وإن كنت قد قمت بدورك من الهداية وإضاءة الطريق للآخرين ولاحظت الناس لا يهتدون، ويظلّون على ما هم عليه، فلا تلن وليكن إيمانك صلبًا. فلا تشكّ بقوة النور السماويّ، واعلم أنّ الناس سينقذون يوم غد إن لم يحدث الأمر اليوم، فإذا ماتوا دون ذلك فسيتمّ إنقاذ أبنائهم، لأنّ نور الهداية الذي أطلقته لا يموت وإن متّ أنت! ربّما يزورك الرجل الصالح، لكنّ نوره يبقى وسيتمّ إنقاذ البشر حتّى بعد موت منقذهم، لا يقبل الجنس البشريّ الأنبياء ويضربهم. لكنّ البشر يحبّون الشهداء ويقدّسون أولئك الذين قاموا بأنفسهم بتعذيبهم. إعمل لأجل المستقبل، لأجل الإنسانيّة جمعاء، ولا تفكّر أبدًا بالثواب الذي ستحصل عليه لقاء ذلك، لأنّ ما ينتظرك في هذا العالم من العطاء كبير جدًّا حتّى دون هذا الثواب.

لا تخف العظماء والجبابرة، لكن كن حكيمًا وكريمًا دائمًا. واعلم أنّ لكلّ شيء معيارًا وأجلاً فأدرك هذا. صلّ في وحدتك. أحبّ الإنحناء على الأرض وتقبيلها. قبّل الأرض دون كلل، وأحبّها بعمق، أحبّ الجميع في كلّ شيء، واندفع في الحبّ من دون حدود. أسق الأرض بدموع حبّك وفرحك، وأحبّ تلك الدموع، ولا تخجل من حبّك وهيامك، بل ثمنهما غاليًا لأنّهما هبة من الربّ الكبير ، وهو لا يمنحها للكثيرين ، بل لمن اصطفاهم.

احاديث مع صديق قديم للّه*

يصعب على الإنسان أن يعرف الفرق بين ما هو إثم وما ليس بإثم. هذا سرّ يفوق العقل الإنسانيّ. وعلى الشيخ أن يكون دائم الرضى، وأن يموت مغموراً بضياء روحه، سعيداً بما قضى من أيّام، متطلّعًا إلى ساعته الأخيرة، فرحًا بالرحيل كسنبلة تنضمّ إلى باقة السنابل، بعد أن أتمّ قدره الغامض.

أراك تتكلّم دائمًا عن الغموض، فما الذي تعنيه بقولك: أتمّ قدره الغامض؟ سألته هذا السؤال وأنا ألقي نظرة على الباب.

كنت سعيدًا بأنّنا وحيدان، وأنّ كلّ ما حولنا سكون وهدوء، وكانت الشمس تسطع قويّة على النافذة قبل غيابها. كان الشيخ يتكلّم بشيء من المبالغة وكأنّه يشعر بالفرح لوجودي معه.

قال: ما هو السرّ؟ كلّ شيء سرّ يا صديقي. سرّ اللّه موجود في كلّ مكان. كلّ شجرة ونبتة تحتوي على سرّ. أن يغرّد طير صغير، وأن تسطع النجوم متلألئة في الليل، ذلك كلّه سرٌّ واحد. ولكن، ما ينتظر نفس الإنسان في العالم الآخر هو سرّ الأسرار، وأكبر الأسرار يا صديقي!

لا أدري ماذا تعني... وثِقْ أنّني لا أقول هذا الكلام لإغاظتك، وثقْ أنّني أؤمن بالله، ولكن هذه الأسرار جميعها قد كَشف عنها العقل منذ مدّة طويلة، وما لم يكتشفه العقل فسوف يكتشفه يومًا. هذا مؤكّد حتمًا، وربّما اكتشفه في وقت قريب. عالم النبات يعرف كيف تنبت الشجرة، ويعرف عالِما الفيلوجيا والتشريح لماذا يغرِّد الطائر. أمّا النجوم فقد أحصي عددها، وحُسبت كلّ حركة من حركاتها، حتّى ليمكن التنبّؤ بظهور أي مذنّب قبل ألف سنة من ظهوره بخطأ لا يتجاوز دقيقةً واحدة. وصار أبعد الكواكب معروفًا. خذ مجهرًا، وهو عدسةٌ مكبّرة تضخّم الأشياء مليون مرّة، وانظر في قطرة ماء، ولسوف ترى فيها عالمًا كاملاً يعجّ بالمخلوقات الحيّة. كان ذلك سرًّا، ولكن العلم اليوم قام بتفسيره.

---

* هذا النص مقتبس من رواية «الأخوة: ارامازوف».

سمعت أناسًا يتكلَّمون عن هذا مرارًا كثيرة يا بني. لست أنكر أنّ ذلك شيء عظيم مدهش. وهب الله الإنسان كلّ شيء بإرادته، وليس عبثًا أن يُعطي الله الإنسان نسمة الحياة: عش وأعرف.

إنّ هذه الأفكار، تتداولها بطبيعة الحال جميع الألسن، ولست أنت بعدوٍّ من أعداء العلم. هل أنت كذلك؟ هل أنت من أنصار أن تحكم الكنيسة الدولة، أو ...أعني، لا أدري إذا كُنت تفهم...»

لا يا صديقي، لقد احترمت العلم دائمًا منذ أن كنت صبيًّا. وإذا كنت لا أعرف من العلم شيئًا فإنّني لا أناصبه العداء، ما لم يوهب لنا ما وهب لآخرين. ولعلّ في هذا خيرًا. وبهذه الطريقة يكون لدى كلّ إنسان ما يرغب في فهمه، ولا يُجبر على فهم العلم. ولو كان الأمر على عكس ذلك، لظنّ كلّ إنسان أنّه بإمكانه أن يدهش العالم، فلو كنت عالمًا فقد أرغب في ذلك أكثر من سائر البشر. أمّا وأنّني جاهل فكيف يمكنني أن أفعل ذلك؟ ولكنّك أنت شاب متوقّد الذكاء. وذلك قدرك. فعليك بالدراسة. حاول أن تعرف كلّ شيء، فإذا لقيت رجلاً زنديقًا أو تافهًا كان في وسعك أن تردّ عليه، ولا يغرنّك بأقوال باطلة تعكّر عقلك الغضّ، أمّا تلك العدسة التي جِئتَ على ذكرها فقد رأيتها منذ مدّة ليست بالطويلة. قال ذلك واستردّ أنفاسه وتنهّد، ولا شكّ أنّه كان مسرورًا بالحديث إليّ، فقد كانت تسكن في نفسه حاجةٌ قويّةٌ إلى الكلام. وأظنّ أنّي لست مخطئًا إذا قُلت إنّه كان في بعض اللحظات ينظر اليّ نظرات غريبة مليئة بالعطف. كان يضع يده على يدي بحنان، ويلاعب كتفي... ويجب أن أعترف أنّه كان في لحظات أخرى يغفل عن وجودي، فكأنّه وحيد في الغرفة، فإذا واصل كلامه بحماسة كان كمن يكلّم نفسه.

تابع يقول: «إنّني أعرف رجلاً عظيم الذكاء ونبيل الأصل وواسع الثراء، برتبة مقدّم، يعيش في صحراء جناديفا. امتنع هذا الرجل عن الزواج منذ كان يعيش بين الناس. وهو يعيش حياة تنسُّكٍ منذ قرابة عشر سنوات. انفصل عن الناس حبًّا بالسكون والوحدة. وأراح حواسه من الرغبات الأرضيّة، ولكنّه لا يريد الالتزام بقواعد الحياة الرهبانيّة. وما أكثر ما عنده من كتب! لم أر هذا القَدرِ من الكتب في أيّ مكان إلاّ عنده! وقد قال لي أنّ ثمنها يبلغ ثمانيّة آلاف روبل. إنّ اسمه بطرس فالريانوفتش، وقد علّمني أشياء كثيرة في أوقات مختلفة، وطالما كنت أحبّ أن أصغي إليه. قلت له ذات مرّة: « كيف يا سيدي وأنت رجلٌ عظيمُ الفكر، تعيش منذ عشر سنين في طاعة النظام وهجر الإرادة والتنازل عن الرغبة. كيف لا تتمنّى أن ترتدي ثياب الرهبنة فتزداد كمالاً؟ فقال لي: كيف يا شيخ تجرؤ أن تزعم أنّ لي

فكرًا عظيمًا؟ لعلّ فكري هو الذي أسرني واستعبدني بدلاً من أن أروِّضه وأسيطر عليه. وما هذا الذي تقوله عن طاعتي؟ لعلّني منذ مدّة طويلة قد فقدت القصد والاعتدال! وتتكلّم عن هجري إرادتي وتنازلي عن رغبتي كمقدِّم، ولكن، ها أنذا منذ عشر سنين أحاول الاستغناء عن تدخين غليوني، إلاّ أنّني لا استطيع! فأيّ راهب يمكن أن أكون؟ وأين هجر الإرادة الذي تمدحه فيّ؟

دُهشت عندئذ من هذا التواضع. وقد مررتُ بتلك الصحراء في الصيف الماضي يوم عيد القدّيس بطرس، وهو الله أراد لي ذلك، فماذا رأيت في الحجرة؟

رأيت ذلك الشيء الذي حدّثتني عنه: مجهرًا، كان الرجل قد استقدمه من الخارج، وتحمّل في سبيله نفقات ضخمة. قال لي: «انتظر قليلاً، سوف أريك شيئًا مدهشًا لم تره في حياتك حتّى الآن. هل ترى هذه القطرة من الماء؟ إنّها صافية رائقة كالدمعة. فانظر إذن إلى ما في داخلها تجد أنّ علماء الميكانيكا سيكتشفون قريبًا جميع أسرار الربّ، فلا يتركون منها واحدًا». هذا ما قاله وقد حفظته. وكنت أنا قد نظرت في المجهر قبل ذلك بخمسة وثلاثين عامًا عند السيّد مالجاسوف، سيّدي القديم، خال السيّد فيرسلوف، الذي آلت إليه أملاكه بعد وفاته. كان سيّد عظيم الشأن، وجنرالاً كبيرًا، ويملك قطيعًا كبيرًا من كلاب الصيد، وقد عملت عنده صيّادًا بالكلاب مدّة طويلة. وكان قد أحضر هو أيضًا هذا الميكروسكوب، فكان يدعو جميع الناس الواحد تلو الآخر، رجالاً ونساءً، للنظر فيه، عارضًا تحت عدسته قملة وبقّة ورأس دبوس وشعرة وقطرة ماء. ما أكثر ما تسلّينا وضحكنا! كنّا نخاف أن نقترب من الميكروسكوب، ولكنّنا كنّا نخاف مولانا أيضًا إذا نحن لم نقترب، لأنّه كان شديد الغضب. وكان بعضنا لا يعرف أن ينظر، فهم يُغمضون أعينهم فلا يرون شيئًا. وكان آخرون يصرخون خوفًا وهلعًا، حتّى أنّ العمدة سافين ماكاروف وضع يديه على عينيه صارخًا: «إصنع بي ما شئت فلن أنظر!» فانطلق الضحك من كلّ صوب! كنت إذن قد رأيت هذا الميكروسكوب قبل ذلك بمدّة طويلة، قبل ذلك بأكثر من خمسة وثلاثين عامًا، كنت قد رأيت هذه المعجزة، ولكنّني لم أقل لبطرس فالريانوفتش، إذا كان يشعر بسرورٍ كبير وهو يعرضها عليّ، حتّى لقد تظاهرت بأنّني أدهش وأرتاع. فتركني لحظة ثمّ سألني: فما قولك يا شيخ؟» قلت موافقًا: «الربّ قال: كن يا نور فكان النور،» فأجابني فجأة: «لعلّ الظلمات هي التي كانت!» قال ذلك بطريقة غريبة من دون أن يبتسم. وشعرت في تلك اللحظة باستغراب، أمّا هو فقد غضب ولم يقل بعد ذلك شيئًا.

قلت له: إنّ الأمر بسيط جداً. إنّ صاحبك بطرس فالريانوفتش يقيم في الدير ليأكل الأرزّ والعنب، ويركع ويسجد، ولكنّه لا يؤمن بالله. وقد أربكته وهو في لحظة من لحظات صراحته تلك. وهذا كلّ شيء. ثمّ إنّه شخصٌ عجيبٌ جدًّا، فلا شكّ أنّه رأى هذا الميكروسكوب عشر مرّات، فلماذا جُنَّ به في المرّة الحادية عشرة؟ هذا توتّر للأعصاب أو حساسيّة مرهفة، أغلبُ الظنّ أنّه اكتسبها في الدير.

قال ماكار بقناعة كبيرة: »إنّه رجلٌ طاهر القلب رفيع الفكر، وليس زنديقًا. إنّ له عقلاً واسعًا، ولكن قلبه قلق. وما أكثر أمثاله الذين يَفِدُون علينا من عند هؤلاء السادة العلماء. ثمّ اسمع ما سأقوله لك: إنّ الرجل يُعاقب نفسه. يجب أن تترك هؤلاء الناس من دون عذاب، لأنّهم يستحقّون الاحترام، واذكرهم في صلواتك قبل النوم، لأنّهم يبحثون عن الله. هل تصلّي قبل أن تنام؟

«كلاّ، أنا أعتقد أنّ الصلاة طقس من الطقوس السخيفة لا طائل منها. ويجب أن أعترف لك أنّ صاحبك بطرس فالريانوفتش يُعجبني: فهو على الأقلّ ليس ألعوبة بل رجلٌ، ويشبه بعض الشبه رجلاً آخر قريبًا منّا نعرفهُ كلانا».

لم ينتبه الشيخ إلاّ إلى الجزء الأوّل من جملتي. وأردف يقول: خطأٌ منك يا صديقي ألاّ تصلّي، الصلاة شيء حسن يبهج القلب عند النوم، وعند الصحو في الصباح، وحين يستيقظ المرء في الليل... والآن دعني أخبرك شيئًا آخر: في الصيف الماضي، في شهر تمّوز، كنّا نحن الحجّاج نحثّ الخطى نحو دير العذراء احتفالاً بالعيد، فكلّما اقتربنا من المكان ازداد عددنا، حتّى أصبحنا مائتي شخص تقريبًا، مسرعين إلى تقبيل الرفات المقدّس للشهيدين آنيكي وغريغوار. كنّا قد قضينا الليل يا بني، في حقل من الحقول، وفتحتُ عيني في الفجر حين كان الجميع لا يزال نائمًا، ولم تكن الشمس قد ارتفعت فوق الغابة بعد. رفعت رأسي، ونظرت إلى الأفق نظرة شاملة وتنهّدت، كان كلّ شيءٍ جميلاً جمالاً لا يوصف! كلّ شيء هادىء، الهواء نسيم، العشب ينبت– أنبت يا عشب الربّ... والطائر الصغير يغرّد– غرّد يا طائر الربّ... والطفل الصغير يزقزق على ذراعي أمّه– ليحرسك الله أيُّها الرجل الصغير، إكبر وكن سعيدًا! لعلّني أدركت الجمال يومئذ أوّل مرّة في حياتي! وعدت أرقد، ونمت نومًا ما كان أخفّه وأحلاه! العالم جميل يا صديقي! إذا تحسّنت صحّتي فسوف استأنف تجوالي في فصل الربيع. إذا كانت هناك أسرار، فمرحبًا بها. صحيحٌ أنّ الأسرار تُرهب القلب وتُثير فيه العجب، ولكن هذا الخوف يُبهج القلب

أيضًا: «كلّ شيء متجمّع فيك أيُّها الربّ، أنا نفسي موجود فيك، فخذني إليك!». وأضاف يقول برقّة وحنان: لا تتململ يا فتى! إنّ السرّ يجعل الأشياء أجمل.

إنَّك تعني أكثر جمالاً لأنّ فيه سرًّا. سوف أتذكَّر هذا. لقد عبَّرت عن ذلك بصورةٍ غير واضحة، ولكنّني أفهم ماذا تريد أن تقول، إنّ ما يدهشني هو أنّك تعرف أمورًا وتدركها أكثر ممّا تستطيع التعبير عنها. وكأنّك تتكلَّم وأنت في حالة هذيان...

أفلتت منِّي هذه الملاحظة بصورةٍ غير متعمّدة، وأنا أنظر إلى عينيه اللامعتين ووجهه الشاحب. وأظنّ أنّه لم يسمعني.

واستأنف يقول كمن يتابع كلامه الذي انقطع: هل تعرف يا بنيّ أنّ لذكرى الإنسان على هذه الأرض حدًّا؟

إنّ هذا الحدّ لا يتجاوز مائة سنة. قد تبقى ذكرى المرء عند أولاده أو أحفاد الذين رأوا وجهه. وإذا بقيت ذكراه مدَّة أطول، فإنّما تكون بعد ذلك ذكرى غير مباشرة، لأنّ جميع الذين رأو وجهه الحيّ سوف يمضون وسوف يُخفي العشب قبره في المقبرة، وينكسر الشاهد، وينساه جميع الناس حتّى أحفاده، وأخيرًا ينسون إسمه أيضًا، لأنّ الذين تبقى أسماؤهم في ذاكرة البشر قلَّة قليلةً جدًّا. لا بأس! فلينس أعزّائي. ولكنِّي سأظلّ أنا أحبُّهم من دواخل قبري. أيُّها الأولاد الصغار، إنّني أسمع أصواتكم الفرحة، وأسمع أصوات وقع أقدامكم على قبور آبائكم في يوم عيد الأموات، وسوف أصلِّي من أجلكم، وأنزل إليكم في أحلامكم... لن يُحدث الموت فرقًا كبيرًا، ذلك أنّ الحبّ يبقى بعد الموت أيضًا!.

وبدا ماكار يتكلَّم، فقال وقد خفض عينيه قليلاً: «كنت أشعر بالخوف الكبير من هؤلاء المثقَّفين والأساتذة، وكانت الطريقة التي يشعرونني فيها بالخوف لا تسمح لي بأن أقول لهم أيّ شيء، ولم يكن هناك شيء يخيفني أكثر من الملحدين». كنت أقول لنفسي: «إنّني لا أملك إلاّ نفسًا واحدة، فإذا ضيَّعتها فلن أجد عوضًا عنها»، ولكنّني لم أعد أشعر بالخوف منهم فيما بعد، فقلت لنفسي: «ما هم آلهة على كلّ حال، هم بشر مثلنا، لهم ما لنا من أهواء!» ثمّ استبدّ بي حبّ الاطّلاع قويًّا شديدًا، فقلت لنفسي: «أريد أن أعرف أخيرًا ما هو الالحاد الذي يؤمنون به.» ولكن هذه الرغبة اختفت بعد مدّة.

وقف عن الكلام لحظة، ورغم أنّه بدا وكأنّه يريد أن يتحدّث من جديد، فإنّ ابتسامة وقورة هادئة ظهرت على شفتيه.

إنّ هناك سذّجًا يركنون إلى جميع الناس من دون أن تخطر السخرية لهم ببال. وهؤلاء يكونون على استعداد لأن يخرجوا من قلوبهم أثمن ما تُخفي. ويبدو لي أنّ ماكار كان يتّصف بشيء آخر غير السذاجة، وأنّ براءة البساطة لم تكن هي الشيء الوحيد الذي يدفعه إلى الكلام. إنّه يملك شيئًا من صفات المصلحين. وسرّني أن ألاحظ لديه استهزاء لا يخلو حتّى من بعض المكر، تناول به الدكتور، وربّما فرسيلوف أيضًا. وكان واضحًا أنّ هذا الحديث هو تتمّة لأحاديث سابقة جرت بينه وبينهم هذا الأسبوع. ولكنْ، شاء سوء الحظّ أن تفلت تلك الكلمة المشؤومة التي كهربتني بالأمس، وسقطت مرّة أخرى، وفي هذه المرّة فاجأتني بصورة ما زلت آسف لها إلى اليوم.

تابع ماكار كلامه بشيء من التركيز، فقال:»كنت أخشى دائمًا أن ألتقي برجلٍ ملحد، ولم يتّفق لي يا صديقي أن ألتقيت رجلاً مثلك. وكان الرجال الذين التقيت بهم من المشوّشين. وهذا ما يجب أن يُطلق عليهم. أناس من كلّ نوع، لا يستطيع المرء أن يرى رؤية واضحة ماذا يجعلهم بهذه الصورة، بينهم الكبار والصغار، الحمقى والعلماء، وأفرادٌ من عامّة الشعب. وهم جميعًا مشوّشون. إنّهم يقضون حياتهم كلّها في القراءة والاستدلال والتفكير، وقد امتلأت نفوسهم افتتانًا بالكتب، ولكنّهم يظلّون دائمًا في الشكّ، ولا يستطيعون أن يجدوا إجابة للأسئلة التي يطرحونها. تبعثروا تبعثرًا تامًّا فأصبحوا لا يلاحظون أنفسهم، وتحوّلت قلوب بعضهم إلى حجارة، رغم أنّها ما زالت تحتوي على أحلام. ومنهم من أصبح خاليًا من الإحساس والأفكار، ولكنّهم لا يزالون يطلقون السخريات حولهم. ومنهم من لا يأخذ من الكتب إلاّ الأفكار الجميلة التي تناسبه، ولكنّهم رغم ذلك يبقون مشوّشين لا يستقرّون على حال. وإنّني أرى سأمًا كبيرًا لديهم. الإنسان البسيط يعيش في عوز، فهو في حاجة إلى خبز، ولايملك ما يقدّمه للصغار، وينام على قشّ خشن ، ولكنّ قلبه فرحٌ خفيفٌ دائماً. قد يرتكب الخطايا ويقول كلامًا سيّئًا، ولكن قلبه يبقى مرحًا خفيفًا. أمّا الإنسان الغنيّ فيمكن أن يأكل وأن يشرب كثيرًا، وأن ينام على أكداس ذهبه، ولكن قلبه يبقى مترعًا بالضجر. إنّ بين هؤلاء من طافوا بجميع العلوم، ولكنّ الضجر بقي في قلوبهم. أعتقد أنّ الإنسان كلّما كان أكثر فكرًا كان أكثر ضجرًا.

فلننظر إلى الأمر بهذه الطريقة: لقد وجد التعليم منذ أن وجد العالم. فهل استطاع الإنسان بالتعليم أن يجعل هذا العالم مكانًا جميلاً عامرًا بالأفراح؟ مكانًا يجد فيه الإنسان الفرح الذي يتوق إليه؟ ما هي الأشياء التي يحتاج إليها الإنسان؟ إنّه الجمال. ولكنّهم لا يريدون الجمال. إنّهم أموات، ويتباهى كلّ واحد منهم بموته، ولا يخطر بباله أن يتّجه إلى

الحقيقة «الوحيدة». أن يعيش المرء بغير إله فذلك عذاب. وربّما لعن البشر ما قد ينير لهم الطريق، من دون أن يفطنوا إلى ما يفعلون. أين العقل والحكمة في هذا؟ لا يستطيع الإنسان أن يعيش بغير سجود. ولا تحتمل نفسه غير ذلك. وهذا ينطبق على الجميع. فإذا جحد الإنسان الله، سجد لمعبود من خشب أو ذهب، أو سجد لمعبود صنعه له الخيال. فهؤلاء الذين يقولون إنّهم ليسوا بحاجة إلى الله هم ملحدون حقيقيّون؛ هكذا يجب أن نسمّيهم. وهم أكثر خطرًا من غيرهم، لأنّهم يأتون إلينا واسم الله ماثل في أفواههم دائمًا. سمعت عن هؤلاء مرارًا، ولكنّني لم ألق أحدًا منهم. يوجد هناك مثل هؤلاء الناس يا صديقي، وأظنّ أنّهم لا بدّ أن يوجدوا.

إنّ ما كان يجذبني إليه قبل كلّ شيء آخر – كما سبق أن ذكرت ذلك– هو بساطته القصوى، وخلوّه من الأنانيّة خلوًّا تامًّا، حتّى ليشعر المرء أنّ له قلبًا بلا خطيئة تقريبًا. كان قلبه عامرًا بالفرح، ولهذا السبب كان عامرًا بالجمال، وكان يحبّ كلمة الفرح هذه حبًّا كثيرًا، وكان يستعملها في كلامه كثيرًا. صحيح أنّه كان يصاب بهياج غير طبيعيّ ويمتلىء بحماس غير عادي، بسبب الحمى التي لم تبارحه طوال هذه المدّة، ولكن ذلك لم يقلّل من الجمال الروحيّ في داخله. وكان يتّصف، عدا ذلك، بصفات متناقضة: فإلى جانب السذاجة الشديدة التي كانت تجعله عاجزًا عن ملاحظة السخرية عجزًا تامًّا (وهذا يحزنني)، كان يتصف بنوع من مكر مرهف يستعمله خاصّة في المناوشات الجدليّة. كان يحبّ الجدال بين الفينة والفينة، ويحبّه على طريقته الخاصّة. إنّ المرء يلاحظ أنّه تجوّل في مختلف أنحاء روسيا، وسمع كثيرًا. ولكنّني أعود فأقول أنّه يحبّ الحنان أكثر من أيّ شيء آخر، ويحبّ كلّ ما يؤدّي إليه. وكان يحبّ كثيرًا أن يقصّ. لقد سمعت من فمه عددًا كبيرًا من القصص عن أسفاره، وأنواعًا من الأساطير عن الحياة الخفية التي عاشها قدامى النسّاك. وهذه أمور ليست معروفة عندي أو مألوفة لي، ولكنّني أظنّ أنّه كان يمزج بهذه الأساطير أشياء مختلفة كثيرة جاءه معظمها ممّا يتناقله الشعب البسيط الجاهل. كانت قصصه تضجّ بأشياء لا يقبلها العقل حقًّا. ولكن إلى جانب هذه التحريفات الواضحة كانت توجد هناك دائمًا تلك الوحدة العضوية المدهشة، والعواطف القوية التي تعبّر عن مشاعر شعب بسيط بصورة مثيرة.

لقد حفظت من قصصه مثلاً، تلك الحكاية الطويلة التي تسمّى حياة ماريا المصريّة. لم أكن أعرف حتّى ذلك الحين شيئًا عن حياة ماريا المصريّة هذه، ولا عن حياة أحد غيرها تقريبًا. ولكنّي أستطيع أن أقول بصراحة: أنّه يستحيل على المرء أن يسمع قصّة حياة ماريا

المصريّة من دون أن تترقرق الدموع في عينيه، لما تثيره في النفس من حنان، بل بتأثير نوع من حماسة غريبة؛ إنّ المرء يحسّ في هذه القصّة بشيء خارق حارّ كرمل الصحراء المحرقة، التي كانت تجوبها ماريا وتمتلىء بالأسود. ولكن ليس هذا ما أريد أن أتكلّم عنه. ولست من أهل الاختصاص في هذا الميدان على كلّ حال.

وممّا أثار إعجابي به، إضافة إلى هذه العاطفة المليئة بالحنان، أنّه كانت له آراء أصيلة كلّ الأصالة في مسائل لا تزال موضع خلاف كبير بين الناس في عصرنا هذا. ففي ذات يوم، مثلاً، روى لي قصّة حديثة عن جندي انتهت خدمته، وقد شهد الحادثة بنفسه تقريبًا، فقال أنّ هذا الجندي حين عاد إلى بلده، وجد نفسه بين فلاّحين، لم يعجبوه ولم يعجبهم. فأخذ الرجل المسكين يفقد صوابه رويدًا رويدًا، وأخذ يسرف في الشراب، وقام ذات يوم بسرقة أحد الناس. ولم يكن ثمّة أدلّة قاطعة على ارتكابه هذه الجريمة، ولكنّه اعتقل أثناء ذلك وحوكم. وأخذ المحامي يدافع عنه وكاد يثبت براءته لعدم توفّر الأدلّة، فإذا بالرجل الذي كان يصغي إلى دفا ع المحامي ينهض فجأة فيقاطع المحامي قائلاً: « لا، إنتظر قليلاً، ثمّ طفق يروي الوقائع من أوّلها إلى آخرها، ويعترف بذنبه باكيًا نادمًا. فانسحب المحلّفون وأغلقوا عليهم باب القاعة، ثمّ عادوا يخرجون ليعلنوا بأنّ «المتّهم بريء». فتعالت صيحات الفرح من كلّ صوب. ولكنّ الجندي بقي جامدًا في مكانه كأنّه قد تحوّل إلى عمود من الخشب، لأنّه لم يفهم شيئًا، ولم يفهم ما قاله له رئيس المحكمة حين أفرج عنه. وانصرف الجندي أخيرًا وهو لا يصدّق عينيه ولا يدرك ما يحدث له. واستبدّ به الضجر، وغرق في التفكير والتأمّل، فهو لا يأكل ولا يشرب ولا يكلّم من الناس أحدًا. وبعد خمسة أيّام شنق نفسه. وقال ماكار خاتمًا حديثه: »فانظر كيف تكون الحياة حين تثقل الخطيئة على ضمير المرء».

صحيح أنّ القصّة لا قيمة لها، وأنّ أعمدة جميع الصحف في أيّامنا هذه تمتلىء بحكايات من هذا النوع، ولكنّ الشيء الذي أعجبني إنّما هو النغمة التي روى بها هذه القصّة، وما كان يستعمله ماكار من ألفاظ تعبّر عن فكرة جديدة حقًّا. من ذلك أنّه حين روى لي كيف أنّ أهل القرية كانوا يقولون عن هذا الرجل العائد: » الجندي فلاّح فاسد»، وحين تكلّم بعد ذلك عن المحامي الذي كاد يربح الدعوى: « معروف ما المحامي: المحامي ضمير للتأجير». لقد وقع ماكار على هذين التعبيرين عرضًا بدون أيّ عناء، وبدون أن ينتبه هو نفسه إليهما. ورغم أنّهما لا يعبّران عمّا يشعر بها عامّة الشعب الروسيّ، إلاّ

أنّهما يصوّران أحاسيس ماكار الحقيقيّة. إنّ هذه الأحكام الجاهزة التي يصدرها الشعب، تكون في بعض الأحيان حافلة بأصالة باهرة حقًّا.

سألته في هذه المناسبة:» ماكار، ما رأيك في خطيئة الانتحار؟ فأجابني وهو يتنهّد: الانتحار أكبر خطيئة يرتكبها الإنسان، ولكنّ الربّ هو الحاكم الوحيد، لأنّه وحده يعرف مدى حدود الاحتمال لدى الإنسان ويعرف كلّ شيء. وواجبنا نحن هو أن ندعو الله لا مثال هؤلاء الخطأة الكبار. فإذا سمعت عن خطيئة كهذه الخطيئة، فإدع لمرتكبها دعاء حنونًا قبل أن تنام، وتشفّع له عند الربّ ولو كنت لا تعرفه، فإنّ شفاعتك تكون أجدى أيضًا.

هل ينفعه الدعاء وقد حكم عليه؟

ما يدريك؟ إنّ أناسًا كثيرين لا يؤمنون، ويضلّلون من لا يعلمون، فلا تستمع لهم، لأنّهم لا يعرفون إلى أين هم ماضون. إنّ صلاة صادرة عن إنسان حيّ من أجل إنسان ميت تصل إلى الربّ فعلاً. ولكن ما عسى أن يصير إليه من ليس له أحد يصلّي من أجله؟ لذلك يجب عليك، حين تصلّي قبل النوم، أن تضيف هذا الدعاء:»ارحم يا يسوع أيضًا أولئك الذين ليس لهم أحد يصلّي من أجلهم». إنّ هذا الدعاء نافع جدًّا، مبهج جدًّا، بل صلّ كذلك من أجل الخطأة الذين لا يزالون أحياء. قل:»ربّ، أنقذ الغارقين في ذنوبهم بما تعرف من وسائل». هذه أيضًا صلاة حسنة.

وعدته بأن أتلو هذه الصلوات، لأنّني أحسست أنّ هذا الوعد سيسرّه سرورًا عظيمًا. وقد سطع الفرح في وجهه فعلاً حين قطعت له على نفسي هذا العهد. ولكن يجب عليّ أسارع فأضيف أنّ ماكار كان في مثل هذه الأحوال لا ينظر إليّ من عَلُ، كناسك يخاطب مراهقًا غرًّا، بل كان يحبّ في كثير من الأحيان أن يصغي إليّ، وأن ينصت إلى كلامي بدون كلل في مواضيع شتّى، وكان يرى أنّه إذا كان يتفوّق عليّ بالسنّ فإنّني أتفوّق عليه كثيرًا بالثقافة.

يجب في أحيان كثيرة أن يتكلّم عن النسّاك، وكان يضع «عزلة الصحراء» في منزلة أعلى كثيرًا من منزلة «جواب الآفاق»، فكنت أوجّه إليه اعتراضات شديدة، وأشدّد على أنانيّة هؤلاء الناس الذين يهجرون العالم، ويتركون ما يستطيعون أن يقدّموه للإنسانيّة من خير، لا لشيء إلاّ لخلاص أنفسهم. فلم يفهمني في أوّل الأمر، بل لعلّه لم يدرك ما كنت أتحدّث عنه، ولكنّه ظلّ يدافع عن عزلة الصحراء.

كان يقول: «إنّ المرء يشفق على نفسه في أوّل الأمر طبعًا، أي حين يستقرّ في الصحراء، ثمّ يغتبط يومًا بعد يوم، ولا يزال يزداد اغتباطه إلى أن يرى الربّ آخر الأمر».

ثمّ أخذت أصوِّر له تصويرًا كاملاً ما يقوم به العالم والطبيب وصديق الإنسانيّة عامّة من عمل مفيد، فاستطعت أن أصل به إلى حماسة صادقة، لأنّه أخذ هو نفسه يتكلّم عن هذا بحرارة، وكان يؤيّدني في بعض اللحظات قائلا: «نعم يا بني نعم، باركك الله، إنّك على حقّ!» ولكن، حين كنت أفرغ من كلامي، كان لا يوافقني على ذلك موافقة كاملة. وقال متنهّدًا تنهّدًا عميقًا: «هذا كلّه حسن، ولكن هل هم كثيرون أولئك الذين يصمدون ويواظبون على الاهتمام بسعادة الآخرين؟ إذا لم يكن إلهًا فهو نصف إله. إنّه إغراء كبير. ثمّ هناك وسائل أخرى للإغراء وهي: المرأة والزهو والحسد. فإذا بالمرء ينسى القضيّة الأساسيّة، ويمضي يهتمّ بالأمور الصغيرة. وكذلك في «عزلة الصحراء»، يقوّي المرء نفسه ويكون مستعدًّا للقيام بجميع الفضائل والأعمال المقدّسة. نعم يا صديقي. أمّا في العالم فماذا يحدث؟ » ثمّ هتف يقول بعاطفة قويّة: «أليس العالم حلمًا لا أكثر؟ إن ذلك يشبه الرجل الذي يحاول أن يبذر برش الرمل فوق الأرض الصخريّة، فإذا نبت الرمل الأصفر فوق الحصى فسوف يتحقّق حلم العالم». هذا ما يقولونه عندنا. أمّا عند المسيح فيقال: »إمض وزع ثروتك، واجعل نفسك خادمًا للجميع»، فتصبح عندئذ أغنى ممّا كنت ألف مرّة. ذلك أنّ السعادة لا يصنعها الطعام وحده، ولا الثياب الثمينة، ولا الزهو والحسد، وإنّما يصنعها حبّ لا نهاية له. إنّ ما ستكسبه حينذاك ليس ثروة ضئيلة، ولا مائة ألف، ولا مليونًا، وإنّما أنت ستكسب الكون بأسره! نحن الآن نجمع المال بدون شبع، ونتلفه بجنون. أمّا حينذاك فلن يبقى يتامى ولا فقراء، لأنّ الجميع لي أنا، لأنّ الجميع أقربائي، كسبتهم جميعًا، إشتريتهم إلى آخرهم. ليس بالأمر النادر أن نرى اليوم أناسًا أغنياء أو من أصحاب الشأن لا يهتمّون بعدد أيّامهم، ولا يعرفون هم أنفسهم الطرق المناسبة لقضاء هذه الساعات. أمّا حينذاك فإنّ أيّامك وساعاتك ستتضاعف ألف مرّة، لأنّك لن ترغب في ضياع دقيقة صغيرة واحدة، وستشعر في كلّ دقيقة من حياتك بالفرح في قلبك. وعندئذ سوف تكتسب الحكمة لا من الكتب وحدها، لأنّك ستكون مع الربّ نفسه وجهًا لوجه. وسوف تتألّق الأرض عندئذأكثر ممّا تتألّق الشمس، ولا يكون حزن ولا تأوّه، وسيصبح العالم كلّه جنّة».

الفهم الطوباوي للتاريخ*

بقينا طوال السنوات المئة والخمسين، التي تلت وفاة بطرس الأوّل، نعيش في وئام مع الحضارات الإنسانيّة ونتقرّب من تاريخها وأفكارها، فتعلّمنا، بل علّمنا أنفسنا أن نحبّ الفرنسيّين والألمان، قُل الجميع وكأنّهم إخوتنا، بغضّ النظر عن أنّهم لم يحبونا قط، نعم وكأنّهم قد قرّروا ألا يحبّونا أبدًا.

لقد تمثّلت كلّ إصلاحاتنا في مرحلة بطرس الأوّل: بأنّنا، وخلال ذلك الزمن الطويل، أخذنا عن تلك الحضارات «توسيع» وجهة نظرنا ورؤيانا، اللتين لم نعرف أنّهما وجدتا عند أيّ شعب من الشعوب في القديم أو في العالم الحديث. إنّ روسيا ما قبل بطرس كانت قويّة وعمليّة على الرّغم من إنّها كانت تتطوّر سياسيًّا ببطء، وقد أعدّت الوحدة، واستعدّت لربط أطرافها إلى المركز. لقد استطاعت أن تفهم ما ستجلبه لها اللؤلؤة المخبأة في أعماقها «الأرثوذكسيّة»، وهي المؤتمنة على حقيقة المسيح، ينبوع الحقيقة لشكل المسيح الحقّ؛ وهذا ما يتمّ التعتيم عليه في كلّ المعتقدات الأخرى، وعند كلّ الشعوب إنّ هذه الجوهرة الأبديّة المرتبطة بروسيا، والموكلة إليها لحفظ الحقيقة – حسب وجهة نظر النخبة الروسيّة في ذلك الوقت – خلّصت ضمائرهم من ربطة الالتزام بأيّ تعاليم أخرى. والأكثر من ذلك أنّهم فهموا في موسكو بأنّ كلّ اقتراب من أوروبا يمكن أن يضرّ العقل الروسيّ، وقد يخرّبه ويُمرض «الفكرة الروسيّة»، ويفرغ الأرثوذكسيّة من أصالتها، ويحمل روسيا إلى طريق الهلاك «على غرار الشعوب الأخرى كلّها».

وهكذا، فإنّ روسيا القديمة لم تكن محقّة، ومهّدت أن تُتهم أمام الإنسانيّة بذلك لأنّها خبأت جوهرتها « أرثوذكسيّتها» في قرارة نفسها عن أوروبا، أي عن الإنسانيّة، شأن أولئك المنشقّين الذين يرفضون الأكل من آنية غيرهم، معتبرين أنّ ملاعقهم وفناجينهم إنّما هي

---

* هذا النص الذي ترجمه الدكتو ثائر زين الدين مأخوذ من عمل دوستويوفسكي "من يوميات كاتب". وفيه يستقرأ دور الحضارة الروسية في العالم السلافي - الأرثوذكسي، وايضاً في المدى الأروبي ويعكس حلما غائرا في الذاكرة التاريخية للكاتب حول امكانية استعادة القسطينطنية. (س.ف).

أشياء مقدّسة. إنّ هذه المقارنة صحيحة، لأنّ العديد من أوجه العلاقات الروحيّة والسياسيّة مع أوروبا كانت قد نمت عندنا قبل بطرس الأوّل، ثمّ جاءت إصلاحات بطرس الأكبر لتؤكّد أنّ لا بديل من توسيع وجهة نظرنا، وبالتالي كانت المأثرة الكبرى لبطرس في انفتاح روسيا على أوروبا.

إنّ اللؤلؤة التي تحدّثت عنها أعلاه، هي نفسها التي تكلّمت عنها في أحد الأعداد السابقة من «اليوميّات»، والتي كنّا – نحن الفئة المثقّفة في روسيا – قد أعدناها إليها بعد مئة وخمسين عامًا من غيابها، والتي يتوجّب على الشعب الروسيّ أن يتقبّلها منّا Sine qua non، نحن الذين ننحني أمام حقيقته، «فدونها لا يمكن لوحدة طبقيّة أن تتحقّق أو تبدو ممكنة، ودونها سيموت كلّ شيء».

ما الذي تعنيه إذًا مسألة «توسيع الرؤيا أو وجهة النظر»؟ ما المقصود بها؟

إنّها ليست تنويرًا بالمعنى الدقيق للكلمة، وليست علمًا، وفي الوقت نفسه ليست خيانة لبدايات الشعب الروسيّ الأخلاقيّة من أجل الحضارة الأوروبيّة. لا. فهي ليست مسألة خاصّة بالشعب الروسيّ وحده، وإن كانت تعبّر أساسًا عن حبّنا الأخويّ للشعوب الأخرى التي عايشناها على مدى قرن ونصف القرن. إنّها حاجتنا لخدمة الإنسانيّة، ولو على حساب مصالحنا الكبيرة الخاصّة. إنّها المصالحة بين حضارتينا، مع إدراكنا عدم التوافق بين رؤانا وأفكارنا من جهة، ورؤاهم وأفكارهم من جهة أخرى، بل قلْ ذواتهم الأوروبيّة، مع محاولتنا إيجاد الحقيقة التي تتضمّنها فروع الحضارة الأوروبيّة، على الرّغم من أنّ الكثير ممّا لمسناه لا يمكننا أن نوافق عليه. وفي النهاية، هي الحاجة لأن نكون عادلين، وأن نبحث عن الحقيقة فحسب. وباختصار، يمكن لهذا الأمر أن يكون البداية، أو الخطوة الأولى لدور لؤلؤتنا « أرثوذكسيّتنا» في خدمة الإنسانيّة.

من خلال إصلاحات بطرس الأوّل توسّعت فكرتنا القديمة، الفكرة الموسكوفيّة الروسيّة، وازددنا فهمًا وتعمّقًا في حقيقة دورنا ومهمّتنا الكبرى، وخصوصيّتنا ضمن الإنسانيّة، ولم يكن باستطاعتنا أن ننكر أنّ مهمّتنا ودورنا لا يشبهان ما لغيرنا من الشعوب، لأنّ كلّ خاصيّة شعبيّة تعيش لنفسها وفي نفسها، ونحن نبدأ الآن عندما حان الوقت لأن نكون خدمًا للمصالحة العامّة، وهذا ليس شيئًا معيبًا بل العكس، ففي هذا تكمن عظمتنا حيث أنّ كلّ ذلك سيؤدّي إلى الوحدة النهائيّة للإنسانيّة، لأنّ كلّ من يريد أن يكون أعلى من الجميع في الملكوت الإلهيّ عليه أن يكون خادمًا. هكذا أفهم الرسالة الروسيّة في

فكرتها الأساسيّة. وكنت قد حدّدت بنفسي الخطوة الأولى لسياستنا الجديدة بعد بطرس الأوّل، وهي وحدة «كلّ الشعوب السلافيّة» تحت جناح روسيا، وهذا لن يكون احتلالاً أو باستخدام القوّة، وليس عبر القضاء على الخصوصيّات السلافيّة وإبدالها بالروسيّة، وذلك على طريق إعادة تأسيس علاقة وثيقة مع أوروبا ومع الإنسانيّة عامّة، وإعطائهما الهدوء والراحة في النهاية بعد كلّ المآسي التي مرّت بهما والتي لا تحصى. آه طبعًا يمكن أن تضحكوا وتسخروا من هذه «الأحلام القديمة!»، ويمكنكم أن تقولوا – فيما يتعلّق بهذه الرسالة الروسيّة – أنّ ليس كلّ روسيّ يتمنّى انبعاث السلافيّة على هذه الأسس من أجل حريّة الشعوب الكاملة وتجدّد روحها، وليس أيضًا من أجل أن تسيطر روسيا سياسيًّا على تلك الشعوب وبالتالي تقوّي قدراتها، وهذا ما تتّهمنا به أوروبا، أليس كذلك؟ وكأنّ الأمر تبرير لجزء من الأحلام القديمة؟ ومن أجل هذا الهدف يصبح من البديهي أن تكون القسطنطينيّة لنا أوّلاً وآخرًا...

يا إلهي كم هي مضحكة الابتسامة التي يمكن أن تظهر على وجه أيّ نمساويّ أو إنكليزيّ لو توفّرت لأحدهما أن يقرأ كلّ هذه الأحلام «المذكورة أعلاه»، وأن يصل في قراءته فجأةً إلى هذه الخاتمة الموضوعيّة: «القسطنطينيّة القرن الذهبيّ، هي أوّل مركز سياسيّ في العالم – فهل هذا احتلال؟

إنّنا لم نتجنّب أيّام بطرسبورغ التشيخونيّة بتأثير جيراننا الألمان. ومع أنّ هذا التأثير كان بصورةٍ ما مفيدًا لنا، لكنّه شلّ إلى حدّ كبير التطوّر الروسيّ الواعد. وقد تجنّبنا تأثير اليونانيّين – الأكثر رقّة من الألمان الأغبياء – أيّام القسطنطينيّة العظيمة الفريدة من نوعها، وهي التي ورثت الكثير من أقدم وأقوى الحضارات. لقد كانت تجمعنا مع اليونانيّين نقاط إلتقاء كثيرة، خلافًا للألمان الذين لا يشبهوننا، والذين كانوا يشكّلون حاشية القيصر، وكان باستطاعتهم – لو طال بهم الأمر – أن يطوّقوا العرش، فينالون الحظّ الأوفر من التعليم ويصبحون علماء قبل الروس، ولا يخيّبون أمل خلفاء بطرس على العرش فحسب، بل أمل بطرس نفسه، طاعنين إيّاه في نقطة ضعفه الوحيدة، وهي قدرته في الملاحة ومعرفته بها، وبكلمة واحدة: لكانوا قد امتلكوا روسيا سياسيًّا ونقلوها إلى طريق آسيويّ ما، إلى أيّ إنطوائيّة كاملة، وهذا ما لم يكن باستطاعة روسيا تحمّله. وكان يمكن أن يؤدّي إلى فقدان روسيا قوميّتها وخصوصيّتها، فيصبح الروسيّ القوي معزولاً في شماله الثلجيّ الحزين، ويمسي مادّة لخدمة «تسارغراد»، ويصبح الجنوب الروسيّ كلّه تحت سيطرة اليونانيّين. وكان يمكن أن تنقسم الأرثوذكسيّة إلى فئتين: «التسارغراديّة المحدثة والروسيّة

القديمة..»». باختصار إنّ كلّ ذلك لم يكن في وقته. أمّا الآن فالأمر مختلف: لقد أصبح لروسيا وجودها وحضورها في أوروبا، وهي الآن متعلّمة؛ والأمر الرئيسيّ أنّها عرفت مكامن قوّتها، وأمست قويّة ومؤهّلة لأن تكون أقوى؛ وأدركت أنّ «تسارغراد» يمكن أن تكون لنا، ولكن ليس عاصمة لروسيا. لو أنّ بطرس الأوّل احتلّ «تسارغراد»، لما كان بإمكانه إلاّ أن ينقل عاصمته إليها، وهذا أمر مدمّر لروسيا لو حدث، لأنّ هذه المدينة ليست في روسيا ولا يمكن أن تكون روسيّة. لقد تجنّب بطرس هذه الغلطة. لكن ذلك لا يعني أنّ حلفاءها يستطيعون فعل ذلك. وحتّى لو سلّمنا أنّ تساغراد يمكن أن تكون لنا ولكن ليس عاصمة لروسيا، فإنّها بطبيعة الحال لا يمكن أن تكون عاصمة للسلافيّة مثلما يحلم بعضهم. إنّ السلافيّة من دون روسيا سوف تنهي صراعها مع اليونانيّين، حتّى ولو استطاعت أن تجمع من أجزائها وحدة سياسيّة، وهي في كلّ الأحوال لا تستطيع أن تورث القسطنطينيّة لليونانيّين وحدهم، وأن تعطيهم ذلك الموقع المهمّ من الكرة الأرضيّة، لأنّ ذلك سيكون أكبر من حجمهم بكثير. آه، أمّا حين تكون روسيا على رأس السلافية فسيكون الأمر مختلفًا. لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه: هل هذا الأمر مفيد؟ ألا يؤدّي ذلك إلى سيطرة السلافيين السياسيّة على روسيا؟

إنّ هذا ما لا نريده أبدًا!

من أجل ماذا، وبأيّ حقّ أخلاقيّ تطالب روسيا بالقسطنطينيّة؟ واستنادًا إلى أيّ أهداف عليا يمكن أن تطلبها من أوروبا؟

إنّ جوابي على ذلك هو أنّ روسيا تُعَدّ زعيمة وراعية وحامية للسلافيّة، وقد أوكل هذا الدور لها منذ أيّام إيفان الثالث، الذي جسّد هذا الأمر في الشعار «التسارغرادي» النسر ذي الرأسين، الذي لم يظهر إلاّ في أيّام بطرس الأكبر عندما وجدت روسيا في نفسها القوّة لتنفيذ مهمّتها وأصبحت الراعية الفعليّة والوحيدة للسلافيّة وللشعوب التي تعتنقها. إنّ هذا هو السبب الذي أعطى لروسيا الحقّ في «تسارغراد القديمة»، وكان من الممكن لهذا السبب أن يكون مفهومًا وغير مزعج لأكثر السلافيّين غيرة على استقلالهم وحتّى لليونانيّين أنفسهم. نعم. وبذلك كان يمكن أن يتحدّد الجوهر الأساسيّ لتلك العلاقات السياسيّة، التي كان يجب على روسيا أن تنتهجها مع كلّ الشعوب الأرثوذكسيّة – السلافيّة أو اليونانيّة، وأن تكون راعية وزعيمة لهذه الشعوب ولكن ليس مالكة لها، أن تكون أمًّا لها وليس سيّدة عليها، حتّى إذا ما أصبحت حاكمة لهذه الشعوب، فسيكون الأمر نزولاً عند رغبتها فقط، مع الحفاظ على كلّ ما تحدّد به استقلاليّتها وذاتيّتها.

وهكذا يمكن أن ينظّم إلى هذا الاتّحاد يومًا ما ليس فقط الأرثوذكس السلافيّين الأوروبيّين! ولو حصل ذلك فعلاً لكانوا قد رأوا بأنّ الوحدة تحت حماية روسيا ليست إلاّ توطيدًا لاستقلاليّة ذواتهم، كلّ على حدة. فمن دون هذه القوّة الموحّدة الجبّارة يمكن لتلك الشعوب أن تنجرّ إلى نزاعات وصراعات متبادلة فيما بينها، حتّى ولو استقلّت سياسيًا عن المسلمين والأوروبيّين الذين تخضع لهم.

سيقولون لي لماذا تتلاعب بالكلمات: «ما هي هذه الأرثوذكسيّة؟، وما هي هذه الفكرة الخاصّة والحقّ في وحدة الشعوب السلافيّة؟ أليس ذلك هو اتّحاد سياسيّ بحت مثله مثل غيره من الاتّحادات، حتّى ولو على أسس أوسع، كالولايات المتّحدة الأميركيّة، أو أوسع من ذلك؟» هذا هو السؤال الذي يمكن أن يطرح وأجيب عليه بالنفي. إنّ هذا الاتّحاد ليس كذلك، وليس لعبًا بالكلمات، لكن سيكون فعليًا شيئًا خاصًا لم يسمع عنه من قبل، ولن يكون اتّحادًا سياسيًّا فقط، وليس من أجل الاحتلال السياسيّ والعنف أبدًا، مثلما تتصوّر أوروبا، وليس باسم التجارة والفوائد الخاصّة والأبديّة، وكلّ الرذائل المؤلّهة تحت شعار المسيحيّة الرسميّة، والتي لا يثق بها سوى الرعاع من عامّة الناس فقط. لا. بل سيكون الأمر تشييدًا فعليًا للحقيقة المسيحيّة الباقية في الشرق، وتشييدًا حقيقيًّا جديدًا لصليب المسيح، والكلمة الفصل للأرثوذكسيّة التي تقف روسيا على رأسها منذ زمن بعيد. وسيكون ذلك إغراءً لكلّ الأقوياء الذين انتصروا في العالم حتّى الآن، ونظروا دائمًا مثل هذه «التوقّعات» بالاحتقار والسخريّة من دون أن يفهموا ضرورة الثقة بالأخوّة الممكنة بين الناس، وبالمصالحة العامّة للشعوب في اتّحادٍ مبني على أسس خدمة الإنسانيّة، وأخيرًا في إعادة الناس إلى الأسس الحقيقيّة لتعاليم المسيح.

وإذا اعتبروا الاعتقاد «بالكلمة الجديدة»: أن تكون روسيا على رأس وحدة أرثوذكس العالم «طوباويًّا»، فإنّ ذلك يستدعي السخرية فعلاً، ودعهم إذًا يضمّونني إلى هؤلاء الطوباويّين.

وقد يعترض آخرون ويقولون إنّ هناك طوباويّة أخرى وأشياء لا يمكن أن تحدّث إلاّ في الحلم، ومنها أن يسمح الآخرون لروسيا أن تصبح على رأس السلافيين يومًا ما وتدخل القسطنطينيّة.

صحيح ربّما هذه أحلام... لكن روسيا قويّة، ويمكن أن تكون أقوى بكثير ممّا تتصوّر هي نفسها. ألم تشيد قوى عاتية أخرى أمام أعيننا وعلى مدى الأعوام العشرة الأخيرة،

وانتشرت في أوروبا ثمّ اختفت مثل الغبار وكنّستها القدرة الإلهيّة وشيّدت مكانها إمبراطوريّة جديدة قويّة إلى درجة لم يكن لها مثيل على الأرض؟ وهل كان باستطاعة أحد أن يتنبّأ بذلك مقدّمًا؟

فإذا كان لمثل هذه التحوّلات أن تحدث في زمننا وأمام أعيننا، فهل بإمكان العقل الإنسانيّ أن يتنبّأ بشكل صحيح بمصير المسألة الشرقيّة؟ في الوقت الذي تبرز فيه أسس واقعيّة تدعو لليأس بيوم القيامة وبوحدة السلافيّين؟ هل كان هناك من يعلم ما يريد الله فعله؟

*POST SCRIPTUM

«الشعب الروسيّ لا يطاق أحيانًا» – سمعت هذه المقولة في هذا الصيف أيضًا، وللسبب نفسه. وقد حدث لقائل هذه الجملة الكثير وغير المتوقّع هذا الصيف، وربّما كان ما حصل له لا يطاق فعلاً، لكن ما الجديد الذي حدث ولم يكن من قبل موجودًا في قلب الشعب الروسيّ؟

لقد ظهرت أولاً فكرة شعبيّة أثّرت على الإحساس الشعبيّ، الإحساس بالحبّ النزيه لإخوتنا البائسين والمستعبدين، وعلى فكرة «الشأن الأرثوذوكسي».

وقد عبّر هذا الأمر عن شيء ما «غير متوقّع». وهو غير متوقّع «ليس بالنسبة للجميع». فالشعب الروسيّ لم ينسَ فكرته العظيمة «شأنه الأرثوذكسي». لم ينسَ ذلك على الرّغم من كلّ ما مرّ به خلال قرنين من العبوديّة والجهل القاتم، والماديّة الجشعة والمنحلة، والتسلّط والبلطجة.

وثانيًا: لم يكن متوقّعًا الانضمام المفاجئ لكلّ الآراء المتباينة للفئة المثقّفة الروسيّة إلى «الشأن الأرثوذكسي» و«الفكرة الشعبيّة»، تلك الفئة التي اعتبرناها منسلخةً تمامًا عن الشعب.

لاحظوا الوحدة والحيويّة غير العادية اللتين تجلّتا في صحفنا كلّها تقريبًا...

عجوز مؤمنة وفقيرة تتبرّع بكوبيك للسلافيان، وتقول: «هذا للشأن الأرثوذكسي» فيتلقّف صحفيّ هذه الجملة وينشرها في الجريدة بكلّ تبجيل. رأيتم كيف يقف هذا الصحفيّ بكلّ مشاعره مع «المشروع الأرثوذكسي»، وشعرتم بذلك حين قرأتم مقالته تلك. ولعلّ الذين لا يؤمنون بشيء قد فهموا أخيرًا ماذا تعني فعليًا الأرثوذكسيّة والمشروع الأرثوذكسيّ بالنسبة للشعب الروسيّ؟!

* هذا النص الذي ترجمه الدكتور ثائر زين الدين مأخوذ من مؤلف دوستويوفسكي "من يوميات كاتب". وهو مرة أخرى يؤكد على العمق الأرثوذكسي والسلافي للشعب الروسي. (س.ف).

لقد فهموا أن المسألة ليست طقوسًا كنسية فقط، وليست Fanatisme religieux «كما بدؤوا يصوّرون ذلك في الحركة الروسيّة العامّة الحاليّة في أوروبا»، لكنّها تطوّر إنسانيّ وجوهر الإنسانيّة. هكذا يفهمها الشعب الروسيّ، تنبع من المسيح وتجسّد كلّ مستقبلها في المسيح وفي الحقيقة المسيحيّة وليست قادرةً على تقديم نفسها من دون المسيح.

لقد أصبح الليبراليّون والرافضون والمشكّكون – شأنهم شأن المروّجين للأفكار الاجتماعيّة – أبطالاً روسًا متحمّسين. لا بأس. لقد بدوا كذلك. لكن هل نستطيع أن نثبت صدقهم من دون أن نتبادل الاتّهامات المريرة، التي تبيّن أنّ معظمها كان باطلاً؟!

نعم، لقد تبيّن فجأة أنّ الغيورين من الروس أكثر بكثير ممّا اعتقدناه، فما الذي جمع هؤلاء الناس بعضهم إلى بعض؟ أو على الأصحّ ما الذي بيّن لهم أنّهم لم يتفرّقوا من قبل في الأمور الأساسيّة والجوهريّة؟ هذا هو لبّ الموضوع: إنّ الفكرة السلافيّة في معناها الأساسيّ لم تعد سلافيّة فقط، لكنّها انتقلت فجأةً إلى قلب المجتمع الروسيّ نتيجة لمجموعة من الظروف، وعبّرت بوضوح عن نفسها في الوعي العامّ، وتطابقت بالإحساس الحيّ مع الحركة الشعبيّة. لكن، ما هي هذه «الفكرة السلافيّة» في معناها الأسمى؟

لقد أصبح واضحًا للجميع بأنّها – وقبل كلّ شيء، وقبل كل تفسير تاريخيّ وسياسيّ – تضحية! وحاجة للتضحية بالنفس لأجل الأخوّة، وإحساس بالواجب الطوعيّ عند القبيلة الأقوى من السلافيّين في ضرورة الوقوف إلى جانب القبيلة الأضعف بغية أن تتساويا في الحريّة والاستقلال السياسيّ، على طريق تحقيق وحدة سلافيّة عظيمة تناضل من أجل حقيقة المسيح، أي لصالح حبّ وخدمة كلّ الإنسانيّة والدفاع عن كلّ الضعفاء والمضطهدين في العالم، وهي ليست نظريّة أبدًا، بل بالعكس إنّها الاستعداد الواعي الأخوي داخل الحركة الروسيّة الحاليّة للتضحية بأهمّ مصالحها وحتّى بالسلام مع أوروبا. وهذا ما أصبح حقيقة واضحة.

هل يعقل أن تنتقل وحدة السلافيين في المستقبل لتحقيق أي هدف آخر غير الدفاع عن الضعفاء وخدمة الإنسانيّة؟ هذا ما يجب ألا يكون لأنّ القبائل السلافيّة قد تكوّنت وعاشت بالمعاناة.

لقد ذكرت أعلاه أنّنا نشعر بالدهشة، لأن الشعب الروسيّ لم ينسَ في عبوديّة نظام الرقّ وجهله واضطهاده له «مشروعه الأرثوذكسي» العظيم، والتزاماته الأرثوذكسيّة العظيمة، ولم يتوحّش، ولم يصبح أنانيًّا بتاتًا يهتمّ بمصالحه الخاصّة.

إنّ هذه على الأرجح هي خاصيّته كسلافي، حيث تنهض روحه في المعاناة ويتقوّى سياسيًا في الاضطهاد، ووسط العبوديّة والاحتقار، ويتوحّد في الحبّ وحقيقة الإنسان.

يا أخانا في المسيح، أيّها الخائر المنهك

لقد أخذ الله يبارك

هذه الأرض الأمّ المستعبدة.

هذا لأنّ الشعب الروسيّ نفسه كان مضطهدًا لقرون عديدة، وعانى بسبب إيمانه بالمسيح، وبسبب حفاظه على «مشروعه الأرثوذكسي» وأخوته الذين عانوا، فنهض بقلبه وروحه مستعدًا لمساعدة كلّ المستضعفين.

هذا ما فهمته طبقتنا المثقّفة العليا، وانضمّت بكلّ جوارحها إلى أمنية الشعب، وبذلك أحسّت بوحدتها معه.

إنّ هذه الحركة التي شملت الجميع كانت إنسانيّة وسخيّة. فكلّ فكرة سامية موحِّدة، وكلّ إحساس حقيقيّ يوحّد الجميع، هما سعادة عظيمة في حياة الأمّة. إنّ هذه السعادة قد زارتنا. ولم نستطع إلاّ أن نشعر بالتوافق الكامل الذي أخذ يتضاعف.

إن تفسيرنا للكثير من حيرتنا الماضية قد قوّى وعينا الذاتيّ. ثمّ اكتشفت الفكرة السياسيّة التي فهمها الشعب والمجتمع بوضوح. وانتبهت أوروبا الحسّاسة فورًا لذلك، وأخذت تتابع باهتمام بالغ الحركة الروسيّة.

وكان من غير المتوقّع أبدًا بالنسبة لأوروبا نهوض الفكرة السياسيّة الواعية في شعبنا، فراحت تحسب الحساب لشيء جديد يظهر عندنا.

يجب أن ندحض بشدّة الأقاويل والشائعات عن الانحلال السياسيّ والاجتماعيّ في المجتمع الروسيّ، تلك التي انتشرت في أوروبا، بحيث تبيّن أنّ الروس يتّحدون عندما تبرز الحاجة لذلك. نعم ويجب على الكثير من وجهات النظر لدينا أن تتغيّر من الآن فصاعدًا.

إن هذا التوافق العامّ في الحركة الروسيّة يدلّ على درجة كبيرة من النضج القوميّ الذي لا يمكن إلاّ أن يفرض احترامه.

بوشكين*

«يشكّل بوشكين ظاهرة غير عاديّة، وهو التجلّي الوحيد للروح الروسيّة» – هذا ما قاله غوغول. وأستطيع أنا أن أضيف: كان أيضًا يجسّد ظاهرة النبوّة. بلى، إنّ ظهوره يتلخّص – لنا نحن الروس – بما يشبه النبوّة من دون جدال. كان ذلك حين بدأنا نعي ذواتنا. ظهور بوشكين رافق الوعي في مجتمعنا، وكان يعدّ بذرة زرعها الإصلاح الذي قاده بطرس الأكبر وأسهم في إنارة دربنا العاتمة وتوجيه خطانا. وبهذا المعنى يكون بوشكين نبيًّا ومرشدًا.

إنّني أقسم حياة شاعرنا الكبير إلى ثلاث مراحل. ولا أتحدّث كناقد أدبيّ حين ألامس الآن أدب بوشكين عمومًا، إنّما أريد بخاصّة أن أوضح فكرتي عن معنى النبوّة التي يمتلكها بوشكين عندنا، وكيف أرى الأمر.

في أنموذج «آليكو»، بطل قصيدة «الغجر»، تنعكس فكرة روسيّة تمامًا، قويّة وعميقة، ستتجلّى فيما بعد بانسجام رائع في شخصيّة «أونيغين»، وهو الصورة الواقعيّة غير الفانتازيّة لـ «آليكو»، الصورة الواقعيّة المفهومة. في آليكو اكتشف بوشكين المتشرّد الحزين في وطننا، الجواب الروسيّ التاريخيّ، والذي يُعَدّ وجوده في مجتمعنا المنفصل عن الناس ظاهرة تاريخيّة ضروريّة. لقد اكتشف بوشكين هذا النموذج ورسمه. لم يكتشفه بطبيعة الحال عند بايرون فقط، إنّه نموذج حقيقيّ، وقد شاهده بوشكين بدقّة ووضوح، وهو نموذج باقٍ على الأرض الروسيّة إلى زمن طويل. إنّ عابري السبيل هؤلاء الذي لا نار تدفئهم ولا سقف يظلّلهم لا زالوا حتّى أيّامنا هذه يضربون في الأرض، ولن تختفي ظاهرتهم هذه قريبًا.

إنّ هؤلاء الذين ما عادوا اليوم يقصدون الغجر باحثين في تقاليدهم البدائيّة وعاداتهم عن مثل عليا، ولا يذهبون إليهم طلبًا للراحة في أحضان الطبيعة، هاربين من حياتهم المضطربة السخيفة، حياة الناس في المجتمع الروسيّ المثقّف، إنّ هؤلاء يندفعون اليوم إلى الإشتراكيّة

* هذا النص الذي ترجمه الدكتور ثائر زين الدين مأخوذ من كتاب دوستويوفسكي " من يوميات كاتب". فيه يسلط الأضواء على الحس الوطني العميق لبوشكين وعلى البعد الروسي والعالمي لعبقريته. (س. ف).

التي لم تكن معروفة في زمن «أليكو»، وهم يؤمنون أنّهم سيصلون ليس إلى أهدافهم الشخصيّة وحدها فحسب بل إلى أهداف الإنسانيّة جمعاء، فالجوال الروسيّ لا يقبل ما دون سعادة الإنسانيّة قاطبة كي يهدأ باله وتقرّ نفسه. وهو بأقلّ من ذلك لن يقبل، ما دام الأمر بالطبع نظريًّا.

إنّه الشخص الروسيّ نفسه. ولكن ذلك الذي يظهر في مرحلتين مختلفتين. أكرّر أنّ هذا الشخص ولد في بداية القرن الثاني بعد إصلاحات بطرس الأكبر في وسط الإنتلجانسيا، منفصلاً عن الشعب، عن القوّة الشعبيّة. إنّ عددًا كبيرًا من المثقّفين الروس، سواء في زمن بوشكين أم في زمننا الآن، عملوا ويعملون بهدوء في المحاكم وفي محطّات السكّة الحديديّة وفي المصارف وسوى ذلك. وبينهم أيضًا نفر يحصلون على المال بطرق شتّى، وبينهم أيضًا من يهتمّون بالعلوم، ويقرؤون المحاضرات ويحاضرون، وذلك بسكينة تامّة. وهم أيضًا يقبضون مرتباتهم ويلعبون بورق اللعب ولا يفكّرون بالهرب إلى مخيّمات الغجر أو غيرها من الأماكن. وهناك فئة كبيرة من مواطنينا يسبغون على أنفسهم صفة الليبراليّة، ويزينونها بـ»مسحة إشتراكيّة أوروبيّة» تبالغ الطبيعة الروسيّة الدمثة في مدحها. والمسألة في كلّ الأحوال مسألة وقت؛ فربّما كان أحدهم مطمئنًا لم يشعر بالقلق بعد، والآخر قد اتسع وقته ليمتلئ بذلك ويخبط رأسه بالباب. لعل مصيرًا واحدًا ينتظر الاثنين ما لم يجدا طريق السلامة الذي لا ينقطع أبدًا عن طريق الشعب نفسه. وليكن أن قلة فقط ستفهم وتنتظر هذا: يكفي أن تشارك «نخبة» في ذلك، أن يعلن عُشْرُ الناس استياءهم ورفضهم كي يهب الشعب كله فلا يستكين ولا يهدأ له بال. إن آليكو لا يستطيع أن يعبّر عن حنينه بشكل جيد: المسألة عنده فيها شيء من التجريد أو عدم الوضوح. إنّ الحنين الواضح عنده هو حنين إلى الطبيعة. إنه يتقن الشكوى من المجتمع الراقي فحسب ويبكي على حقيقة مفقودة، لا يعرف أين أو كيف يجدها، ولا يهتدي إليها أبدًا.

وهنا نستطيع أن نقول إنّ فيه شيئًا من جان جاك روسو، فهو لا يخبرنا في ما تتجلّى هذه الحقيقة، وما هي ؟ وأين وكيف يمكن أن تظهر ومتى يمكن أن تفقه. أنّه لا يفصح عن كلّ ذلك، ولكنّه يتألّم بصمت. الإنسان الخياليّ غير الصبور يتحرّق إلى الخلاص والنجاة فقط بفعل قوّة خارجيّة، ويرى أن هذا ما يجب أن يكون: الحقيقة لا بدّ وأن تكون موجودة في مكان ما، في بلاد أخرى، عند الشعوب الأوروبيّة مثلاً، ذات البنيان التاريخيّ المتين، والحياة الاجتماعيّة المدنيّة المستقرّة. وأحيانًا هو لا يفهم أنّ الحقيقة موجودة في أعماقه قبل أن تكون في أيّ مكان آخر، وكيف له أن يفهم هذا الأمر، وهو على أرضه الأمّ ليس

هو ذاته ؟! لقد فقد عادة العمل منذ مدّة طويلة، وثقافته ليست ذات شأن يذكر. لقد نما كتلميذ بين جدران عالية، مشتتًا بين عدد كبير من الالتزامات التي تعود إلى إرتباطه بهذه الطبقة أو تلك من الطبقات الأربع عشرة التي ينقسم إليها الوسط المثقّف الروسيّ. إنّه أشبه بزغبة ريش تتقاذفها الريح، وهو يحسّ بذلك ويتألّم بسببه كثيرًا. فما المشكلة إذًا – وهو المنتمي إلى طبقة الملاّكين، وربّما المالك لمجموعة من الأقنان – أن يسمح لنفسه أن تنقاد قليلاً لغواية ناس «خارجين على القانون»، فيتبع فئة غجريّة، ويصبح له دبّ يقوده ويعرضه أمام المشاهدين ؟ ومن الطبيعيّ عند ذاك أن تتمكّن «المرأة المتوحّشة»، على حدّ تعبير أحد الشعراء، وهي الأقدر من سائر المخلوقات، من تقديم الأمل له، وشفائه من حنينه الجارف، فإذا به يرمي بنفسه في أحضان زيمفيرا قائلاً: «ها هنا مصيري، هنا يمكن أن أجد سعادتي، بين بشر لا حضارة لهم ولا قوانين». وما الذي يحدث بعد ذلك ؟ إنّه وعند إلتماس الأوّل المباشر مع ظروف هذه المجموعة المتوحّشة من الناس يعجز عن السيطرة على نفسه، ويلوّث يديه بالدماء. وهكذا يجد هذا الحاكم نفسه غير صالح، ليس فقط للهارمونيا الشاملة، بل للحياة مع الغجر، الذين يطردونه من دون رغبة في الانتقام منه أو ضغينة، بل بكثير من الدماثة والحلم:

أتركنا أيّها الرجل المزهوّ بنفسه

إنّما نحن متوحّشون لا قانون لنا،

إنّنا لا نعذّب ولا نَعْدِمُ أحدًا

كلّ هذا خيالي طبعًا. لكنّ «الرجل المزهوّ بنفسه» حقيقيّ، ومرسوم بدقّة. وقد كان بوشكين أوّل ما إلتقط ذلك، وهذا أمر تجدر الإشارة إليه، وتحديدًا من قبله نفسه. وبغضب شديد، سيمزّق هذا الإنسان نفسه ويعدمها للإساءة التي ارتكبها، أو أنّه – وقد تذكّر أنّه ينتمي إلى إحدى طبقات المجتمع الروسيّ المثقّف الأربع عشرة – سيتوق، «وهذا ما يحدث فعلا»، إلى وجود قانون قاس يعاقب ويعدم، وسيحرّض على إيجاده ولو من قبيل معاقبة الذات. لا، هذه قصيدة عبقريّة، وليست مجرّد محاكاة. إنّها تتوقّع الحلّ الروسيّ للمسألة، «المسألة الملعونة»، كما يصوغها الإيمان الشعبيّ والحقيقة الشعبيّة: «أذلّ نفسك أيّها الإنسان المزهوّ، حطّم كبرياءك قبل أيّ شيء. أذلّ نفسك أيّها الإنسان المغرور، إجهد واعمل على أرضك الأم».

إنّه الجواب الذي يتطابق مع الحقيقة وعقل الناس. «ليست الحقيقة خارجك، إنّما هي في داخلك: جد نفسك في نفسك، وأخضع ذاتك لذاتك، واملكها، فترى الحقيقة. إنّها ليست في الأشياء، ليست خارجك، وليست وراء البحار في مكان ما، ولكنّها أوّلاً في جهدك وعملك الدائم على ذاتك ونفسك. عندما تنتصر على نفسك وتتغلّب عليها، تصبح حرًّا كما لم تتخيّل، وتبدأ عملاً عظيمًا، فتجعل من الآخرين أحرارًا، وتبصر السعادة لأنّ حياتك ستصبح ملأى، وتفهم في النهاية شعبك وحقيقته المقدّسة. ليست الهارمونيا الشاملة في حياة العجز، أو في مكان آخر، إن لم تكن جديرًا بها، إن كنت شريرًا صلفًا، وإن كنت تظنّ أنّ ليس عليك أن تقدّم شيئًا لقاءها!». إنّ هذا الحلّ للمشكلة المطروحة كان واضحًا بقوّة في قصيدة بوشكين، ثمّ ازداد وضوحًا في قصيدة «يفغيني أونيغين» وهي قصيدة ليست خياليّة «فانتازية»، ولكنّها واقعيّة محسوسة، تعكس الحياة الروسيّة الحقيقيّة، وبجماليّة عالية وبتنظيم كبير لم نرهما قبل بوشكين وربّما بعده أيضًا.

يصل أونيغين من بطرسبورغ – ولا شكّ من بطرسبورغ، وهذه ضرورة لا بدّ منها في القصيدة، فما كان لبوشكين أن يترك أيّ مَعْلَم مهمّ يسقط منه وهو يقدّم بيوغرافيا بطله .

في مكان منعزل، في قلب بلده، لا يحسّ أنّه في بيته. هو لا يعلم ماذا عليه أن يفعل هنا، ويشعر كما لو أنّه ضيف. وبعد ذلك حين سيطوّف في البلاد حزينًا، وفي الأرض الأجنبيّة – وهو بلا شكّ ذكيّ وصادق – سيشعر أكثر من ذي قبل أنّه غريب عن نفسه. هو يحبّ وطنه الأم، ولكنّه لا يثق به، وبطبيعة الحال كان قد سمع عن مثله العليا، لكنّه لا يصدقّها. إنّه يؤمن فحسب أنّ إمكانيّة العمل لأجل مسقط رأسه مستحيلة، وينظر بسخريّة مُرّة وحزينة إلى أولئك الذين يعتقدون بإمكان القيام بهذا العمل، ربّما ما أقدم على قتل لينسكي إلاّ من السأم، من يدري؟!

هو سأم يولده الحنين إلى مثل عليا شاملة، وهذا ممكن عندنا. أمّا تاتيانا فقد كانت مختلفة عنه: إنّها من النوع الصلب، الذي يقف بثبات على ترابه، وهي أكثر عمقًا وذكاء من أونيغين. إنّها، ومن خلال نبل أحاسيسها وغرائزها، تستطيع أن ترى أين الحقيقة وفي ما تتجلّى. وهذا ما بدا واضحًا في خاتمة القصيدة. وربّما كان من الأفضل حتّى لو سمّى بوشكين قصيدته باسم «تاتيانا» فحسب، وليس باسم أونيغين لأنّها بطلة القصيدة بلا منازع، وهي نموذج الجمال الإيجابيّ تمامًا وليس السلبيّ. والشاعر يمجّد المرأة الروسيّة، ويجعلها تنطق هي شخصيًّا بفكرة قصيدته في المشهد الأخير، مشهد لقاء تاتيانا وأونيغين. ويمكن القول إنّ النموذج الجمالّ الإيجابيّ للمرأة الروسيّة الذي قدّمه بوشكين، لم يتكرّر

فيما بعد في أدبنا، إلاّ إذا نظرنا إلى أنموذج «ليزا» المتطوّر لتورغينيف في رواية «عش السادة». إن طريقة أونيغين في النظر من فوق جعلته لا يتعرّف إلى تاتيانا، حين إلتقاها للمرّة الأولى في الريف، وهي على هيئتها النقيّة البريئة تلك. ولم يستطع أن يُميّز ما تضمّ نفسها من صور الكمال والانتظام، ولعلّه عدها «جنينًا روحيًّا»، هي إذًا جنين! بعد الرسالة التي وجّهتها إليه!؟ لا، إن كان ثمّة جنين أخلاقيّ أو روحيّ في القصيدة، فلن يكون إلاّ أونيغين نفسه من دون أدنى شكّ. ثمّ ما كان له على كلّ حال أن يعرفها: ما أدراهُ بطبيعة الروح الإنسانيّة؟! إنّه شخص تجريديّ، شخص حالم وقلق طوال حياته. ولم يعرفها أيضًا فيما بعد في بطرسبورغ، حين بدت في زيّ سيّدة راقية، وحين كتب لها أنه «لمس بروحه كلّ ما تتحلّى به من صفات الكمال»، لقد كانت تلك مجرّد كلمات: لقد عبّرت حياته من دون أن يلحظها. مرّت به مرورًا من دون أن يعرفها ويقدّرها حقّ قدرها. وهنا تتجلّى مأساة روايتهما.

آه لو أن تشايلد هارولد وصل من إنكلترا إلى تلك القرية، لحظة اللقاء الأوّل بين أونيغين وتاتيانا، أو لو أنّ اللورد بايرون حضر بنفسه بطريقة ما، ولاحظ ما في تاتيانا من سحر خفيّ نفّاذ، متواضع فدلّ أونيغين الغافل عليه – لأصيب في تلك اللحظة عينها بالدهشة والذهول، لأنّ في هؤلاء الشهداء، شهداء ألم المجتمع، الكثير من التواضع الروحيّ والبساطة. لكن هذا الأمر لم يحدث، ومضى هذا الباحث عن الهارمونيا العالميّة الشاملة، بعد أن ألقى على الفتاة موعظته وتصرّف بطريقة شريفة تمامًا، مضى متألّمًا من المجتمع، حاملاً الدمّ الذي سفحته يداه بحماقته الشريرة، وراح يضرب في البلاد من دون أن ينتبّه إلى شيء فيها، مطلقًا اللعنات.

أنا فَتِيّ. والحياةُ تتدفّق في عروقي

فما الذي أنتظره. إنّه السأم، السأم!

وقد فهمت تاتيانا ذلك. وها هوذا الشاعر في الأبيات الخالدة من روايته الشعريّة يصف كيف تزور تاتيانا منزل ذلك الرجل الذي لا يزال لغزًا خفيًّا وسرًّا غامضًا في عينيها فتقف في غرفة عمله، تنقّل بصرها بين كتبه وأشيائه وتحفه، فتحاول من خلالها أن تدخل إلى أعماق صاحبها، فتدرك كنهه. لكنّها هذه «الجنين الروحي» تتمهّل قليلاً عند فكرة وقد علت شفتيها ابتسامة غريبة، وتملّكها شعور من حلّ اللغز! ثمّ تتمتم شفتاها:

أليس هذا الشخص محاكاةً مضحكة ؟

نعم، كان لا بدّ لها أن تتمتم بهذه الكلمات، لقد عرفت حقيقة هذا اللّغز. وفي بطرسبورغ بعد ذلك بمدّة طويلة ستلتقيه وتكون عندها قد عرفته جيّدًا. وعلى فكرة! من ذا الذي يقول إنّ حياة البلاط قد غيرت من نفسيّة تاتيانا، وأنّ وضعها كسيّدة من سيّدات الطبقة الراقية يكمن خلف رفضها لأونيغين؟ لا، الأمر ليس على هذه الصورة إطلاقًا، إنّها تاتيانا نفسها، تلك القرويّة السابقة! ولم تفسد. على العكس تمامًا، إنّ بذخ هذه الحياة البطرسبورغيّة يرهقها، وهي تكره موضعها كسيّدة من سيّدات المجتمع الراقي. ومن يحكم عليها بعكس هذا، فهو لم يفهم ما أراد بوشكين قوله. ها هي ذي تخاطب أونيغين بصلابة.

إنّما وهبت نفسي لسواك

وسأظلّ وفيّة له أبد الدهر

لقد عبّرت عن ذلك كامرأةٍ روسيّة تمامًا، وهذا موضع التمجيد فيها. إنّها هنا تعبّر عن حقيقة القصيدة. ولن أقول شيئًا عن معتقداتها الدينيّة، عن وجهة نظرها في رباط الزواج المقدّس لا، هذه الأمور لن ألامسها ولكن، لماذا رفضت أن تتبع أونيغين وكانت قد قالت له يومًا: «أنا أحبّك» لماذا إذًا؟ «هل لأنّها إمرأة روسيّة» و«ليست جنوبيّة أو فرنسيّة ما»، وبالتالي فهي غير قادرة على مثل هذه الخطوة الشجاعة، غير قادرة على بتر الرباط الذي يشدّها، غير قادرة على التضحية بمفاتن المجد والثراء والمكانة الراقية والآراء المعروفة عن الفضيلة والشرف؟

لا، المرأة الروسيّة شجاعة، المرأة الروسيّة شجاعة بحيث تتبع الرجل الذي تؤمن به، وقد أثبتت ذلك. ولكنّها «أعطيت لغيره، وستبقى وفيّة له أبدًا. فلمن وباسم ماذا ستظلّ وفيّة؟ ولأيّ واجبات؟ هل ستبقى وفيّة لذلك الجنرال العجوز، الذي لا تستطيع أن تحبّه «بسبب حبّها أونيغين»، والذي تزوّجته لا لشيء إلاّ لأنّ «أمّها تضرّعت إليها بدموع ساجمة»، وما كان في نفسها الكئيبة المهانة إلاّ اليأس؛ لا أمل صغير، لا بقعة ضوء؟

نعم. ستظلّ وفيّة لذلك الجنرال، لزوجها، للرجل الشريف الذي يحبّها، ويحترمها، ويفخر بها. وليكن أنّ «أمّها تضرّعت» لها كي توافق، لكنّها هي نفسها قدّمت الموافقة، لا إمرأة أخرى، وهي نفسها قد أقسمت أن تكون زوجة وفيّة له.

وليكن أنّها تزوّجته في حالة يأس، لكنّها الآن زوجته، ومجرّد خيانتها له ستجلّله بالعار والخزي وستقتله. وهل من حقّ الإنسان أن يبني سعادته على تعاسة غيره؟ إنّ السعادة

ليست في لذّة الحبّ وحدها، ولكنّها في الانسجام العالي للروح. كيف للروح أن ترتاح وتهدأ إذا وقف خلفها فعل غير شريف، غير إنسانيّ، شرير؟!

أعليها أن تفرّ لأنّ سعادتها هناك؟ وأيّ سعادة تلك التي تبنى على تعاسة شخص آخر؟

تخيّلوا أنّكم مكلّفون بإشادة بناء الأقدار الإنسانيّة، بهدف تحقيق السعادة للبشر، وإعطائهم الراحة والسكينة في نهاية المطاف. وتخيّلوا أيضًا أنّه لأجل هذه الغاية لا بدّ، ومن الضروريّ، أن تعذّبوا نفسًا بشريّة واحدة، بل حتّى كائنًا بشريًّا وضيعًا ومضحكًا ليس شكسبيرًا ما، أو رجلاً عظيمًا، بل مجرّد عجوز شريف، زوج إمرأة شابة، يؤمن بحبّها إيمانًا أعمى، مع أنّه لا يعلم بما في قلبها إطلاقًا، يحترمها، بل يفخر بها، سعيد بها وهادئ البال. نعم هو وحده عليكم أن تخزوه وتجلّلوه بالعار، وتعذّبوه، وعلى دموع هذا العجوز المذلّ سيرتفع البناء! هل توافقون أن تكونوا مهندسيّ هذا البناء وفق هذه الظروف؟ هذا هو السؤال.

ثمّ هل بإمكانكم أن تسلّموا ولو لدقيقة واحدة، أنّ الناس الذين تشيدون لأجلهم ذلك البناء سيوافقون على أخذ تلك السعادة التي تمنحونها لهم، ما دامت تضطجع في أساس البناء معاناة كائن مهما كان متواضعًا، كائن عذب سيعاني بغير وجه حقّ وبلا رحمة، وهل تستطيعون بقبولكم هذه السعادة أن تظلّوا سعداء أبد الدهر؟ أخبروني هل كان بإمكان تاتيانا أن تحلّ المسألة بصورة غير التي رأيناها، وهي ما هي عليه من روح سامية وقلب نبيل؟ لا، إنّ الروح الروسيّة النقيّة تحلّ المسألة كما يلي: «فلأفقد وحدي السعادة، ولتكن تعاستي أشدّ من تعاسة ذلك الشيخ بما لا يقاس، وليجهل جميع الناس بمن فيهم هذا الشيخ مقدار تضحيتي، فلا يقدرونها حقّ قدرها، لكنّني لا أريد أن تكون سعادتي على حساب سعادة غيري». وهنا تكمن التراجيديا. لقد حدثت ولا يمكن الآن تجاوز الحاجز، لقد فات الأوان، وهكذا تطرد تاتيانا أونيغين. وهنا قد يقول قائل: «ولكن أونيغين شقيّ هو الآخر. لقد أنقذت بذلك واحدًا وقتلت الآخر». اسمحوا لي هنا: السؤال مختلف، بل لعلّه السؤال الأهمّ في القصيدة. وبالمناسبة إنّ السؤال: «لماذا لم تذهب تاتيانا مع أونيغين؟» يمتلك عندنا – على الأقلّ في الأدب – حكاية نوعيّة خاصّة وتاريخيّة! ولهذا، فقد سمحت لنفسي أن أسهب في الحديث عن ذلك. والشيء الأكثر خصوصيّة في الأمر أنّ الحلّ الأخلاقيّ لهذا السؤال، كثيرًا ما كان عرضة للشكّ. وإليكم ما أفكّر به بهذا الخصوص: حتّى لو أنّ تاتيانا أصبحت حرّة ولو أنّ زوجها العجوز مات عنها وترمّلت، فما كانت لتذهب مع أونيغين. لا بدّ لنا من أن نفهم جوهر هذه الطبيعة! لقد عرفت من هو

أونيغين: إنّه جوّاب أبديّ، رأى فجأةً المرأة التي سبق ورفضها في حالة من النعيم والترف لم يبلغها – ولعلّ في هذا الوضع الجديد جوهر الأمر! إنّ هذه الفتاة التي أوشك أن يزدريها، ينحني لها الوسط الراقي؛ وهذا الوسط عظيم السلطان والتأثير على أونيغين، على الرّغم من ميوله الشاملة السامية. ولهذا السبب فحسب، لهذا السبب يرتمي عليها مبهورًا مغمض العينين! هذا هو مثالي الأسمى – يهتف قائلاً – هذا خلاصي، هذا ما يطرد عنّي سأمي وينقذني، لقد خسرته و«كانت السعادة قريبة جدًّا، وفي متناول يدي». وهكذا يتطلّع أونيغين إلى تاتيانا، كما فعل من قبل آليكو حين تطلّع إلى زمفيرا. إنّه يبحث في وهمه الجديد عن حلوله كلّها. ألا ترى تاتيانا ذلك؟ ألم تحلّ لغزه هذا منذ أمد بعيد؟ إنّها لتعلم علم اليقين أنّ ما يحبّه في حقيقة الأمر إنّما هو خياله الجديد فحسب، وليس هي بشخصها، هي تاتيانا الهادئة كما كانت. إنّها تعلم أنّه يعدّها شيئًا آخر ويتعامل معها على هذا الأساس، وهو حتّى لا يحبّها، وربّما ما أحبّ أحدًا، ولعلّه عاجز عن ذلك، مع كلّ ما يعانيه بشدّة. إنّه يحبّ الخيال، وهو نفسه ليس إلاّ خيالاً! فلو أنّها تبعته، لكانت في اليوم الثاني قد أفاقت من سحره وسخرت من اندفاعها غير الواعي. فليس لهذا الرجل أرض، إنّه ريشة في مهبّ الريح. أمّا هي فشيء آخر: إنّها حتّى في لحظات اليأس والألم اللذين يدمّران حياتها تجد دائمًا شيئًا راسخًا ومتينًا تستند روحها إليه، وهو ذكريات طفولتها، ذكريات مسقط رأسها، ذكريات ملاعب الريف حيث شبّت وكانت لها حياة نقيّة هادئة، وهو «ذلك الصليب وظلّ الأغصان فوق قبر مربيّتها المسكينة». إنّ تلك الذكريات وصور ماضيها المتبقيّة هي أغلى ما لديها الآن، وهي القادرة على إنقاذ روحها ممّا هي فيه الآن من يأس مطبق. وهذه ليست أشياء قليلة، فهي أساس راسخ، لا شيء يهدّمه أو يزعزعه. وهي تشكّل رابطًا مع الوطن، رابطًا مع شعبها ومقدّساته. أمّا أونيغين فماذا يملك ومن هو في النهاية؟

وبالتالي فهي لا تستطيع أن تتزوّجه من قبيل الشفقة، والتخفيف عنه، أو حتّى من قبيل محبّة الشفقة الأبديّة فتهديه بذلك شبح السعادة، مع علمها اليقين أنّه في اليوم التالي سينظر كلّ منهما إلى الآخر ساخرًا. لا، هناك نفوس عميقة وصلبة، لا تستطيع أن تقدّم ما هو مقدّس لديها – عن وعي – للعار والخزي حتّى ولو أوتيت عطفًا لا نهاية له. لا، ما كان لتاتيانا أن تتزوّج أونيغين.

وهكذا في «أونيغين»، في هذه القصيدة الخالدة السبّاقة، يبرز بوشكين كاتبًا قوميًّا عظيمًا لم نعرف مثله من قبل. لقد استطاع بذكائه وبعمق نظرته أن يرصد أعمق أعماقنا،

أن يبصر قرارة مجتمعنا. لقد تمكّن من خلال رسمه نموذج الجوال الروسي فيما مضى وفي أيّامنا – مدركًا بعبقريّته طبيعة هذا المتسكّع ومصيره التاريخيّ وما سيكون له من شأن في مصير روسيا، ثمّ واضعًا هذا النموذج إلى جوار نموذج الجمال الأسمى ممثلاً بالمرأة الروسيّة – لقد تمكّن بوشكين، سابقًا الكتاب الروس جميعًا، أن يقدّم أمام عيوننا، في مختلف الأعمال الأدبيّة التي وضعها في تلك المرحلة، سلسلة كاملة من النماذج الروسيّة الجميلة، التي استخرجها الشعب الروسيّ، نماذج يتجلّى جمالها الأساس في صدقها، صدقها الحقيقي الملموس.

لا يمكن جحودها أو نكرانها، إنّها تقف وكأنّها مقدودة من الصخر. وسأذكّر مرّة أخرى: إنّني لا أتحدّث كناقد أدبيّ. ولهذا فلن أشرح أفكاري بشكل مفصّل عما تركه شاعرنا من أعمال عبقريّة. يمكن مثلاً أن تكتب كتابًا كاملاً عن نموذج الراهب – العالم بالأخبار مبيّنًا أهميّة ودلالة هذا النموذج العظيم الذي اكتشفه بوشكين على الأرض الروسيّة، فاستخرجه وصقله ووضعه أمام أبصارنا إلى الأبد بكامل جماله الروحيّ الهادئ الفخم، شاهدًا على قوّة روح الحياة عند الشعب، التي تستطيع أن تستخرج من أعماقها نماذج لحقائق ساطعة، نماذج معطاة، موجودة، لا يمكن نكرانها. والقول إنّه نموذج مبتكر، وهو نتاج مخيّلة الشاعر وثمرتها فحسب، قول غير مقبول. إنّكم تتأمّلونه بأنفسكم وتوافقون: نعم، إنّه موجود، وبالتالي فروح الشعب التي صنعته موجودة أيضًا. وكنتيجة لذلك، فإنّ القوّة الحياتيّة لهذه الروح موجودة، رحبة وكبيرة. في كلّ موضع من أعمال بوشكين تستمع إلى الإيمان بالطبع الروسيّ، الايمان بقدرته الروحيّة. وعندما يوجد الايمان يوجد الأمل، الأمل العظيم بالإنسان الروسيّ:

في الأمل بالمجد والخير

أرنو إلى الأمام بلا خوف

هذا ما قاله الشاعر نفسه في مناسبة أخرى، لكنّ كلماته تلك تصلح لكلّ وجوه نشاطه القوميّ. وما من كاتب روسيّ قبله أو بعده اتّحد روحيًّا وأبويًّا مع شعبه بمثل هذا العمق كما هو الحال عند بوشكين.

في بوشكين يوجد شيء ما يربطه بالشعب «نهائيًّا»، ويصل به تقريبًا إلى بساطة روحيّة طيّبة وساذجة. خذوا مثلاً قصّة عن الدبّ، واقرؤوا كيف قتل الفلاّح «معالي الدب»، أو تذكّروا بيت الشعر الذي يقول:

أيّها العرّاب إيفان كيف لنا أن نشرب

وستفهمون ما أريد قوله.

إنّ كلّ هذه الكنوز الفنيّة والأعمال الإبداعيّة التي خلقها شاعرنا الكبير، إنّما هي من قبيل الهداية للفنّانين القادمين من بعده. للعاملين مستقبلاً في الحقل نفسه. وأستطيع أن أقول صادقًا: لو لم يوجد بوشكين، لما وجدت العبقريّات التي تلت، أو على الأقلّ ما كان لها أن تظهر بمثل تلك القوّة ومثل ذلك الوضوح، بغض النظر عن مواهبها الذاتيّة الكبيرة ومقدراتها التي كان لها أن تتجلّى فيما بعد وفي أيّامنا هذه. ولكن ليس الأمر في الشعر أو في الإبداع الفنّي فحسب: فلو لم يوجد بوشكين، لما تجلّى بصورة لا تقاوم، «وهذا ما اتّضح فيما بعد لدى الكثيرين إنْ لم يكن لدى الجميع» إيماننا باستقلالنا الروسيّ، أملنا الواعي – الآن – بقوانا الشعبيّة، ثمّ بعد ذلك إيماننا برسالتنا التي سنحقّقها ذات يوم في أسرة الشعوب الأوروبيّة. وهذه مأثرة بوشكين التي يمكن أن تتّضح إذا نفذنا إلى ما أسميّه أنا المرحلة الثالثة من حياته الإبداعيّة.

وعليه، يمكن أن ننسب إلى المرحلة الثالثة تلك الأعمال التي تتألّق بشدّة فيها الأفكار العالميّة، وتنعكس النماذج الشعريّة للشعوب الأخرى ومواطن عبقريّتها. إنّ بعض تلك الأعمال لم ترَ النور إلاّ بعد موت بوشكين. في هذه المرحلة من حياته الإبداعيّة، يظهر بوشكين كمعجزة لم توجد من قبله وربّما من بعده. لقد عرفت الآداب الأوروبيّة شخصيّات أدبيّة عبقريّة مثل: شكسبير وسيرفانتس وشيلر، ولكن ليُشر أحدكم إلى عبقريّة واحدة من تلك العبقريّات التي استطاعت أن تمتلك موهبة الهضم أو الترجيع العالميّ كما هو الحال عند بوشكيننا. إنّ أعظم شاعر أوروبيّ لم يستطع على الإطلاق أن يجسد في ذاته، أن يمثل في شخصه، بمثل تلك القوّة، عبقريّة غريبة أو جارة تعود لشعب مجاور، أن يمثل روح ذلك الشعب، خفايا وخبايا أعماق تلك الروح وحنينها وشوقها، كما استطاع أن يفعل بوشكين. على العكس تمامًا، إنّ الشعراء الأوروبيّين حين حاولوا الرجوع إلى الشعوب الأخرى، أدخلوها في قوميّاتهم وفهموها على طريقتهم. حتّى عند شكسبير ستجد الإيطاليّين مثلاً يشبهون الإنكليز تمامًا. أمّا بوشكين فستجده يتميّز بين سائر شعراء العالم بقدرته على التجسّد في شعب آخر. أنظروا إلى مشاهد «فاوست»، أو «الفارس البخيل»، أنظروا إلى أغنية: «عاش على الأرض فارس فقير»، أو فاقرؤوا «دون جوان»، فلو لم يكن إسم بوشكين مكتوبًا، لما كان بإمكانكم أن تتصوّروا إلاّ أن كاتبها إسبانيّ.

وأيّ صور عميقة وهائلة تلك التي حوتها قصيدة: «مأدبة في زمن الطاعون»! إنّ نماذج هذه القصيدة، وهي نماذج خياليّة تقدم لك عبقريّة إنكلترا. والأغنية الرائعة التي تغنيها ماري وهي في الأساس قصيدة:

ترجعت أصوات صغارنا

في صخب المدارس

إنّها أغنية إنكليزيّة، إنّها تمثل سأم النفس البريطانيّة، وبكاءها، إحساسها الأليم بما يمكن أن يحدث مستقبلاً. وتذكّروا ذلك الشعر الغريب:

ذات مّة ونحن نعبر ذلك الوادي الموحش

إنّه تقريبًا نقل حرفيّ لثلاث صفحات من كتاب غيبي صوفي، يعود إلى متشيع دينيّ إنكليزيّ، وقد كتب نثرًا... لكن هل هو نقل حرفيّ فحسب؟! ألا تحسّ أن خلف هذه الموسيقى الحزينة المتحمّسة التي تربط القصيدة روح بروتستانتيّة شماليّة، روح مهرطق إنكليزيّ، غيبيّ امتلأت نفسه سأمًا، تحسّ رغبات ذلك الرجل غير الواضحة المبهمة والقويّة، تحسّ أحلامه الغيبيّة المتطرّفة.

إنّك حين تقرأ هذا الشعر الغريب، تكاد تسمع روح عصور الإصلاح، وتصبح شعلة الحرب البروتستانتيّة مفهومة من قبلك، ويصبح التاريخ نفسه مفهومًا أخيرًا ليس فكريًّا، بل كأنّك أنت هناك تمرّ محاذيًا لمعسكر هؤلاء المحاربين، وتتلو أناشيدهم معهم، وتذرف الدموع معهم لفرط حماستهم، وتشاطرهم إيمانهم. وإلى جانب ذلك تعالوا ننظر إلى أبيات أخرى دينيّة أيضًا، لكنّها هذه المرّة مستمدّة من روح القرآن، أقصد «محاكاة القرآن»: ألا تشعرون عندها أنّكم أمام رجل مسلم، أليست هذه روح القرآن؟ أليس هذا سيفه؟! عظمة عقيدته البريئة، وقوّة تعاليمه الصارمة؟! وانظروا أيضًا إلى قصيدته «الليالي المصريّة»، وهكذا نرجع إلى العالم القديم – سترون تلك الآلهة الأرضيّة التي تحكم شعبها باسم الألوهة وتزدري عباقرته ومشاعره، ولا تؤمن به إطلاقًا، فتعيش في عزلتها الخاصّة وتكاد تجنّ من ذلك ويقتلها الضجر، تعلّل نفسها أو تسلّي نفسها برغبات حيوانيّة غريبة، وشبق هو شبق الحشرات، هو شبق أنثى العنكبوت التي تلتهم زوجها. لا أقول واثقًا: ليس لشاعرٍ على الاطلاق ما لبوشكين من قدرة على التفاعل الخلّاق مع التراث العالميّ. وليس الموضوع موضوع تفاعل أو إستجابة فحسب، بل موضوع عمق يبعث الدهشة في فعل ذلك. إنّ لروح بوشكين قدرة هائلة على تقمّص أرواح شعوب أخرى غريبة تقمّصًا يكاد

يكون تامًّا وكاملاً، ومثل هذا الأمر لم نره عند شاعر آخر في العالم كله. إن هذا لم يحدث إلا عند بوشكين. ولهذا وجدتموني أقول إن بوشكين ظاهرة لم نرَ مثلها ولم نسمع بمثلها. إنّها وفق تعبيري الشخصيّ ظاهرة نبوءة! ذلك.. ذلك أن أقصى مظاهر القوّة الروسيّة القوميّة إنّما تتجلّى في روح قصائده الشعبيّة، الشعبيّة في رؤياها المستقبليّة والتي تبدو ملامحها في الوقت الحاضر؛ وهنا تتجلّى النبوءة. ولكن، ما هي قوّة الروح الشعبيّة الروسيّة؟ أليست في أهدافها النهائيّة طموحًا لأن يلعب الشعب الروسيّ دورًا عالميًّا لخدمة الإنسانيّة جمعاء؟ ما إن أصبح بوشكين شاعرًا شعبيًّا ونفذ إلى أعماق الرّوح الشعبيّة حتّى استشفّ الرسالة المستقبليّة العظيمة لهذه الروح. وهنا يبدو عرّافًا بل نبيًّا.

ماذا تعني لنا إصلاحات بطرس الأكبر في الواقع، ليس فقط في انعكاساتها المستقبليّة، بل بما انطوت عليه في الماضي والحاضر؟ إن هذه الأمور عايناها جميعًا، بما في ذلك الشاعر. إنّها لم تكن بالنسبة لنا مجرّد ارتداء البذلات الأوروبيّة وتعلّم عادات شعوب أوروبا، واكتساب العلم والاختراعات الأوروبيّة.. فلننظر بدقّة شديدة وتمعّن إلى هذه الأمور. فمن الجائز مثلاً أنّ بطرس الأكبر لم يرد في البداية من إصلاحاته تلك إلاّ منافع سريعة مباشرة، ولكن، بعد ذلك، تغير الوضع بفضل قدرات بطرس نفسه وما يملكه من حساسيّة فكريّة، فدفع بإجراءاته إلى أهداف بعيدة المدى وغير مباشرة. وعليه، فقد قبل الشعب الروسيّ تلك الإصلاحات، ليس لأجل أهدافها القريبة، ولكن لأنّه شعر سلفًا بهدف بعيد أكثر سموًّا ورقيًّا يمكن أن تبلغه. وأكرّر أنّ مثل هذا الشعور قد لا يكون واعيًا، لكن ذلك لا يلغي قوّته ورسوخه العميق في روح الشعب الروسيّ. لقد رغبنا جميعًا في ذلك الوقت في إعادة بناء وحدة الحياة، وحدة الإنسانيّة جمعاء. لقد استوعبنا في أعماقنا عبقريّات الأمم الأخرى وقبلناها جميعًا بالمحبّة، وبالصداقة لا بالعداوة «كما توقّع الآخرون..»، وما فرقنا بعضها عن بعض ولا وضعنا أحدها فوق الآخر وفقًا لجنسه، لأنّنا عرفنا – بالفطرة الصافية – كيف نتجاوز التناقضات منذ البداية، وكيف نعذر ونغفر، وكيف نحقّق المصالحة بين مختلف ضروب التناقضات في هذا الجانب. وبذلك كنا نؤكّد استعدادنا ورغبتنا لأن نعيد بناء وحدة الإنسانيّة والجنس البشريّ قاطبةً بين أسر الجنس الآري العظيم.

إنّ ميزة الانسان الروسيّ هي أنّه يجمع إلى صفته الأوروبيّة عالميّته بلا شكّ. فمعنى أن يكون الشخص روسيًّا حقيقيًّا، روسيًّا كاملاً يتجلّى في أنّه أخو الناس جميعًا «احفظوا هذا القول!»، أنّه مؤمن بوحدة «البشريّة جمعاء» إن شئتم!. إن سلافيّتنا وغربيتنا ليستا إلاّ سوء

تفاهم، وإن كانتا من الناحية التاريخيّة ضرورتين، فالروسيّ الحقّ ينظر إلى أوروبا والجنس الآري كلّه بالمحبّة نفسها التي ينظر إلى روسيا من خلالها، لأنّ مصيرنا هو العالميّة الشاملة، التي لا تتحقّق بحدّ السيف، بل بقوّة الأخوّة، وبرغبتنا الأخويّة في تحقيق وحدة البشر. ولو كان لكم أن تدرسوا تاريخنا الروسيّ ما بعد اصلاح بطرس الأكبر، لرأيتم ما يدلّ على كلامنا السابق، ولوجدتم قرائن تشير إلى الأحلام التي عبّرت عنها حين تكلّمت عن روابطنا المشتركة مع شعوب أوروبا.

وحتّى فيما يخصّ سياسة حكومتنا، فما الذي فعلته روسيا بسياستها خلال القرنين الماضيّين؟ ألم تخدم أوروبا أكثر بكثير ممّا خدمت نفسها؟ ولا أظنّ أنّ ذلك كان نتاج جهل ساستنا. لا، إنّ شعوب أوروبا لا تعلم كم هي عزيزة علينا! وبالتال،ي فإنّنا، أعني الروس الذين سيأتون من بعدنا، سيدركون أنّ الانتماء إلى الشعب الروسيّ، أن يكون المرء روسيًّا حقًّا، إنّما يعني أن يسعى إلى حلّ التناقضات الأوروبيّة نهائيًّا، ويصالح بينها، وأن يبين المخرج للسأم والحنين الأوروبيّ عبر الروح الروسيّة التوّاقة للشمول الإنسانيّ والوحدة البشريّة، فيجعل إخواننا في العالم يتّحدون بنا بالحبّ وينصهرون ضمن هذه الوحدة، وبالتالي تقال الكلمة الأخيرة في الهارمونيا الشاملة، في الانسجام والاتّفاق النهائيّ الأخويّ بين جميع الشعوب تحت لواء وعقيدة السيّد المسيح.

أنا أعرف أنّ كلماتي ستبدو لكم شديدة الحماسة، وفيها من المغالاة ما يجعلها أقرب إلى الخيال والوهم، لكن لا ضير. فلن أندم على ما قلته. فمن الضروريّ أن تقال هذه الكلمات الآن تحديدًا. في هذه اللحظات الاحتفاليّة السعيدة بذكرى شاعرنا العبقريّ الذي جسّد بنفسه هذه الأفكار وحقّقها من خلال إبداعه. إنّ هذه الأفكار لا تقال للمرّة الأولى، وهي ليست جديدة. لكنّ المهمّ هنا هو ألا يحمل كلامي على محمل الغرور فيعترض أحدهم: «إذًا هذا هو مصيرنا؟! مصير وطننا الفقير البائس الجلف؟ إذًا فقد قدّر لنا نحن بين سائر شعوب العالم أن نقول الكلمة الجديدة، الكلمة الفصل؟». ولكن هل أتحدّث هنا عن القوّة الاقتصاديّة، أو قوّة السيف والعلوم؟ لا، إنّما أتحدّث عن الأخوة بين الناس، وأرى أن القلب الروسيّ ربّما كان مهيّأ أكثر من سواه بين الشعوب لتحقيق الوحدة الإنسانيّة الشاملة القائمة على الأخوّة بين الناس. وقد رأيت دلائل ذلك في تاريخنا، في النابغين من أبناء جنسنا، في عبقريّة بوشكين الفنيّة.

فليكن أنّ أرضنا هذه فقيرة. ولكن هذه الأرض الفقيرة نفسها شهدت «مباركة يسوع حين طاف فيها على هيئة قنٍ مستعبد». فلماذا لا تسكننا إذًا آخر كلماته؟ ثمّ ألم يولد هو

نفسه في المزود؟ أكرّر قولي: إنّنا على الأقلّ نستطيع أن نشير إلى عبقريّة بوشكين الإنسانيّة الشاملة. لقد تمكّن هذا الشاعر أن يجمع في شخصه عبقريّات غريبة كثيرة وكأنّها لبعض ذويه.

لقد برهن في إبداعاته – بطريقة لا تدحض – على توق الروح الروسيّة إلى العالميّة الشاملة، وفي هذا دليل كبير. وإذا كانت أفكارنا خياليّة، فإنّ لدى بوشكين – على أقلّ تقدير – ما يصلح أساسًا لهذا الخيال؛ لو عاش بوشكين عمرًا أطول لظهرت نماذج خالدة لا تموت من الروح الروسيّة، ممّا يستطيع أخواننا الأوروبيّون فهمه، فينجذبون إلينا أكثر بكثير ممّا يفعلون الآن، ولاستطاع بوشكين بذلك أن يشرح لهم حقيقة أشواقنا، ولاستطاعوا عند ذلك فهمنا بصورة أفضل، ولتوقّفوا عن عدم الثّقة بنا، وعن النظر إلينا من عَلٍ كما يفعلون حتّى الآن. لو عاش بوشكين أطول، لكان حجم الخلاف بيننا أقلّ، والمشاجرات أقلّ أيضًا، ممّا نراه اليوم. لكنّ الربّ أراد عكس ذلك. لقد توفّي بوشكين في عنفوان شبابه وكامل قواه، وقد حمل معه إلى قبره قسطًا كبيرًا من سرّه العظيم، وها نحن اليوم وبعد غيابه نعمل على كشف هذا السرّ.

المحتوى

المحور الثاني: مختارات من أعمال دوستويوفسكي

القسم الثاني

صدر في السلسلة

- الله والإنسان بين المصير والصيرورة.
- ابراهيم الحاقلانيّ في المئويّة الرابعة لولادته (١٦٠٥–٢٠٠٥).
- آفاق المجتمع اللبنانيّ بين تعقيداته الاجتماعيّة والثقافيّة وتطلّعاته المدنيّة والإنسانيّة.
- الديمقراطيّة واللامركزيّة بين الاقطاعيّات المحليّة والاقطاعيّات المعولمة.
- في خلقيّة المدينة.
- أين ذهب المجتمع... اللبنانيّ؟ المواطنيّة بين الهويّة والعولمة.
- بشارة مريم

- Analytic Lectures on Freud the Father of Psychoanalysis One hundred and Fifty years to his Birth

прельщался, барыни ему в карманах привозили»; нарушение сурового закона не молиться о самоубийцах (и Леонид, и Зосима такую молитву допускали и даже советовали).. Как и отец Леонид, Достоевский был убежден, что монаха делает не одежда, внешняя, а мантия «внутреннего облачения». Как известно, многие упрекали Достоевского за «новое, розовое христианское, в частности суровый византиец Константин Леонтьев, умнейший, но мрачный до отчаяния пессимист, проживший внешне счастливую, но внутренне очень противоречивую жизнь. Обвинения эти слышны и в наши дни. Приходится признать, что русская духовность, как и всякая другая христианская, духовность неоднородна. И даже внутренне антагонистична. С одной стороны, суровый аскетизм, в своей предельности, отрицающий благость мира и радость жизни, акосмичный, неукоснительное соблюдение правил и канонов в ущерб свободе, творчеству и любви, авторитаризм, материализация предметов (по терминологии о.С.Булгакова «вещелюбие»), с другой же стороны, подражание Христу во внутреннем делании, в жертвенной любви, любовь не только к Богу, но и к его творению, в отказе от сакрализации форм, от всякой власти и властности, от всего показного и внешнего и т д. Достоевский знал эти обе стороны русской духовности. Возможны случаи, когда эти два направления как-то сочетаются и друг друга восполняют и умеряют. Но в своем творчестве он возвеличил духовность, внутреннюю, свободную, радостную, обращенную к миру, и обличил тупики и бесплодие противоположной «духовности». В этом смысле можно сказать, что он не только наследник и изобразитель русской, христианской, православной духовности, но и ее живой соучастник и творец.

1/ Что дало повод французскому исследователю Пьеру Паскалю несправедливо упрекнуть Достоевского в некотором несторианстве, в недостаточной вере в Божественность Иисуса Христа. «Dostoïevski devant Dieu », Paris 1969, p.140

2/ С.И.Фудель. Наследство Достоевского. Москва, 1998, стр. 121. И в дальнейших наших размышлений мы пользуемся фактическим материалом, собранным С.И. Фуделем.

3/ К.Мочульский. Достоевский. Жизнь и творчество, Париж 1947, 564 стр.

отблеск Богородицы. Они могут быть грешницами, предаваться отчаянию вплоть до самоубийства («Кроткая»), но что примечательно, преступниц среди женских образов нет.

Последний роман Достоевского «Братья Карамазовы» признается всеми как синтез всего его творчества, отчего он и остался неоконченным: самого последнего слова даже гению не дано сказать. Но прежде чем к нему приступить, Достоевскому было суждено пройти через последнее испытание в жизни, смерть его маленького сына Алексея, приведшее его в июне 1878 к паломничеству в Оптину Пустынь, сердце русской духовной жизни того времени, и к личному общению со знаменитым старцем Амвросием. Знаменательно, что в паломничестве его сопровождал его молодой друг Владимир Соловьев, родональчник религиозно-философского и богословского возрождения начала XX века. Ни Достоевский, ни Соловьев не оставили нам воспоминаний об этой поездке, но несомненно она послужила главным импульсом к написанию романа «Братья Карамазовы», в композиционном центре которого встали старец Зосима, его ученик Алеша Карамазов и монастырская жизнь. Но, как убедительно показал С.Фудель, было бы большим упрощением считать о. Амросия прямым прототипом Зосимы. Источники, послужившие созданию фигуры старца Зосимы, различные (как впрочем и у всякого персонажа у больших писателей): тут все та же книга Парфения с его зарисовками молдавских и афонских старцев, тут уже использованный образ Тихона Задонского, но главным источником следует считать книгу, вышедшую в 1875 г. незадолго до посещения Достоевским Оптиной, «Жизнеописание Отца Леонида» (она засвидетельствована в библиотеке Достоевского, но читал ли он ее до посещения Оптиной или после, нам неизвестно, впрочем, это и несущественно). Иеросхимонах Оптиной Пустыни Леонид, умерший в 1941 г., был основателем Оптинского старчества, этого во многих отношениях нового, пророческого явления в русской церковной жизни. В двух словах можно охарактиризовать оптинское старчество как направление, распахнувшее двери монастыря миру, народу Божьему во всех его нуждах, не только строго духовных, но и психологических, обыденных, бытовых, и возвестившего о новом возможном, даже желательном, пути монашества в миру, в гуще повседневной жизни людей. «Братья Карамазовы» в лице Зосимы и Ферапонта противопоставляют два типа духовности :первый основан на «одних внешних подвигах», жесткий, жестокий, ведущий к самолюбивой гордости, к самообману и в итоге к смерти. Образ Ферапонта, кончающего самоубийством, Достоевский не выдумал, он нашел его в книге о Леониде: в ней рассказывается о затворнике Софрониевой пустыни, некоем Феодосии, которого почитали прозорливцем, получающим откровения прямо от Духа святого, слетающего, по его словам, к нему в виде птицы. Старец Леонид усомнился в подлинности такой духовности, предупредил об этом затворника и его игумена, а в скором времени узнал, что он удавился...

Феодосию-Ферапонту в книге о Леониде и в «Братьях Капамазовых» противопоставляется «всегдашняя веселость» Леонида и слова Зосимы «друзья мои, просите у Бога веселья» ; шутливость, «духовная простота, младенчество христианское» того и другого, свободное отношение к аскетическим правилам (о.Леонид «вкушал пищу дважды в сутки, пил иногда рюмку вина или стакан пива», а Зосима, по словам Ферапонта, «постов не содержал, конфетою

неосуществленным планом романа « Житие великого грешника », вылившегося потом в «Бесы». Трудно сказать, когда Достоевский познакомился с образом Тихона, вероятнее всего в год обретение его мощей и канонизации в 1861- 1862 году, когда заново были изданы его сочинения. Главы о Тихоне перешли в «Бесы» и должны были составить композиционную вершину романа. Но тут у Достоевского возник конфликт с противоречивым положением церкви и церковной культуры в современной ему России. Цензура не разрешила включить эти три главы о русском святом в светский роман, который тем самым оказался лишен всякого света. Не удивительно, что Достоевский считал русскую церковь своего времени «в параличе», от чрезмерного охранения ее государством. И не случайно обратился он к фигуре Тихона Задонского, близкого к народу, отказавшегося от епископской власти, обличавшего в своих сочинениях «теплохладную» официальную веру, ложную церковность русского общества и сосредоточившего свою проповедь на вере, действуемой любовью и смирением.

Вероятно, запрет, наложенный на тихоновские главы (ставшие доступными читателям лишь в 1922 году!), и побудил Достоевского в четвертом своем романе «Подросток» прибегнуть к праведнику, не имеющиму никакого положения в церкви, не связанного даже и с монастырской жизнью: к народному страннику, Макару Ивановичу. Достоевский был знаком со странничеством не только по книге инока Парфения, о которой мы упоминали, но и по близкому другу молодости, С.Шидловскому, дворянину, юристу, В страннической одежде взявшему на себя проповедь меньшей братии..

Странничество - не просто паломничество к определенным святым местам, которое распространено во всем христианском, да и не только христианском, мире, - а странничество постоянное, пребывание без привязанности к обществу и к месту, пожалуй, одна из отличительных черт русской духовности. Оно основано на буквальном подражании евангельского образа Христа, «не имеющего где главу приклонить», но связано несомненно и с бескрайностью русских просторов и с чувством присутствия Бога в красоте творения. «Тайна что?» спрашивает Макар в романе «Подросток»: «Все есть тайна, друг, во всем есть тайна Божья. В каждом дереве, в каждой былинке эта самая тайна заключается. Птичка-ли малая поет, али звезды всем сонмом на небе блещут в ночи – все одна тайна, одинаковая... красота везде неизреченная!». К. Мочульский в своем magnum opus –е о Достоевском 3/ называет это умиление перед тайной и красотой творения «мистическим натурализмом». Нам кажется, что Достоевский тут очень чутко воспринял одну из черт русской духовности: чувство *софийной* природы мира, не испорченной грехом человека, опыт космической любви, для которой мир открывается в своей первозданной красоте, каким он был в первый день творения. Мы начали с утверждения, что видение Достоевского изначально и преимущественно христоцентрично, но с течением времени оно восполняется космоцентризмом. Если христоцентризм личный момент его религиозного становления, то космоцентризм скорее навеян был ему русской духовностью. Космос не только и не просто природа, он и мать-сыра земля и в своем материнстве, он и женское начало вселенной. В кротких, увечных (Хромоножка), страдающих, а иной раз страстных женских образах, попеременно проливающих свой ласковый свет на мятущихся героев или ждущих (большей частью тщетно) своего избавителя. Достоевский видит соучастниц в спасении мира и некий

универсализм нуждается в укорененности. Не в меньшей степени универсализм нуждается и в некоторой диалектической свободе от укорененности, через наитие свыше, через непосредственное прикасание к мирам иным…

Это отражено последовательно в творчестве Достоевского. Основную весть Достоевского миру можно свести к его мощному Пятикнижию, к его пяти великим романам: в первых двух Христос присутствует без отношения к специфически русской духовности - в *Преступление и наказание* через чтение Евангелия Соней Мармеладовой о воскрешении Лазаря, в *Идиоте* в дерзновенной попытке вписать в литературное произведение реальный образ совершенного человека, приближающегося к образу самого Христа. Соня Мармеладова восходит к распространившемуся через Виктора Гюго образу «отверженных» женщин, русское переложение Козетты, наделенной христианской миссией; князь Мышкин появляется из далекого просвещенного Запада, ему чуждого, чтобы явить русскому обществу «свет Христов просвещающий всех». Одновременно его чужесть миру и вовлеченность в него, успех и трагическая неудача, превосходят всякие категории духовности и ее национального окрашивания.

Поиск собственно русских праведников начался с романа «Бесы», где Достоевскому было необходимо противопоставить русским безбожным разрушителям страны - «fraternité или два миллиона голов», как он пророчески предвидел (ошибка была только в численности: не два миллиона голов, а 22, а пожалуй и все 62), конкретные, отечественные проявления добра и святости.

К моменту написания «Бесов» у Достоевского не было еще живых встреч с представителями русской церкви, но он был знаком с книгами, которые показывают его интерес к православной монашеской традиции. Во время его пребывания заграницей в Бад Эмсе в его библиотеке имелась книга инока Парфения, изданная в Москве в 1856 году, о его странствиях по монастырям Молдавии, Востока и России и о встречах с самыми разными подвижниками, включая и мимолетную встречу с самим св. Серафимом Саровским. «Вхождение этой книги в орбиту духовной жизни Достоевского, пишет С.И. Фудель, лучший исследователь религиозных воззрений Достоевского, - факт знаменательный: она открыла ему дверь в ту «Церковь невидимого града», в тот мир восточных подвижников и святых, еще живших в XIX веке, искать который он научился еще в детстве». 2/ В письмах и черновых тетрадях к «Бесам» Достоевский неоднократно упоминает о книге Парфения, но в самом романе им использованы из нее только два частных эпизода, при чем скорее анекдотического характера.

Чтобы противопоставить светлую фигуру подвижника из народа лжемессии Ставрогину и тяготеющим к нему лжеапостолам, Достоевский обратился к св. Тихону Задонскому (1724-1783). «Хочу выставить… главной фигурой Тихона Задонского, конечно, под другим именем, но тоже архиерей. будет проживать на покое….Авось выведу величавую, положительную, святую фигуру. Это уже не Костанжогло-с и не немец в «Обломове» и не Лопухины, не Рахметовы… Правда, я ничего не создам, а только выставлю действительно Тихона, которого я принял в сердце давно с восторгом. Но, если удастся, сочту и это для себя уже важным подвигом». Это письмо написано в 1870 году в связи с

Никита Струве
Духовность России в творчестве Достоевского

Тему, мне предложенную, я хотел бы предварить нескольким общими замечаниями. Несомненно, Достоевский - русский человек по всему, по облику, по воспитанию, по характеру, по темпераменту, несколько безудержанному; западных черт - разумности, умеренности, в нем мало . В русскости он схож с Толстым, а в наше время, с Солженицыным. Но именно эти три писателя до мозга костей - русские, их никак не вообразить в западном обличии - достигли универсальной слышимости, их голос звучит и будет еще долго звучать во всем мире: Толстой - русский Гомер, Достоевский - русский Эсхил, Солженицын – русский Фукидид с примесью Данте. Это наводит на парадоксальную мысль: универсальными становятся те, кто органично, глубочайшим образом укоренены в своей стране, в своем народе, в ее душе, а тем самым, и в ее духовности

Но с другой стороны, путь Достоевского к Богу и ко Христу был сугубо личностным, со средой и с почвой не обязательно связанный, что свойственно гениям, отмеченным и ведомым Провидением (таков в наши дни Солженицын). Сознательный путь Достоевского пролегал по началу мимо специфических черт русской религиозной жизни, во всяком случае, без погружения в нее, скорее даже наоборот. Правда, как он сам признавал, религиозность в нем было заложена с детства, няней, матерью, молитвой, знакомством с монастырями, в частности со Св.Сергиевой Лаврой. Но потом детская вера потускнела, была забыта, сменилась увлечением социальными идеями, в которых христианство занимало второстепенное место.

Перерождение убеждений произошло через личную катастрофу, через суровейшее наказание без явного преступления, через мистическое озарение в 1849 г. перед расстрелом, отмененным в самые последние минуты, и поставившим Достоевского перед лицом вечности.. Оно шло потом через долголетние страдания на каторге в уничижении и бесславии, через кенозис, а, при входе на каторгу и через непосредственную встречу с Христом, явленном в Евангелии. Как известно, в Тобольске Евангелие было ему подарено женой декабриста Фонвизина и впоследствии уже не покидало его всю жизнь. Но не только книжка, а самый образ Христа, не покидал Достоевского до самой смерти : можно смело утверждать, что видение Достоевского изначально целиком христоцентрично, причем он воспринял Христа не только как Бога, но и в его человечности,1/ как образ недосягаемого совершенства.

Ко встрече со Христом следует добавить, что Достоевский с каторжных лет страдал еще и священной болезнью, эпилепсией, которая, когда наступал припадок, давала ему ощущения мировой гармонии, райского блаженства (что кстати сказать, совершенно не свойственно этой болезни, настолько, что Фрейд отрицал, что у Достоевского была падучая). Достоевский сознавал, что ощущение блаженства, связано с болезнью, но тем менее считал, что оно, пусть и субъективное, но тем не менее реальность.

Все эти моменты в жизни Достоевского мы приводим, чтобы оттенить поставленную перед нами нам тему и даже наше же утверждение, что

это значит быть до конца братом всем народам на Земле… В этом наивысшая цель русской идеи»[14].

Достоевский как писатель и гражданин мира страстно стремился к истине, его русская идея есть всеобъемлющая и общемировая. Безусловно, он не был единственным из писателей и мыслителей России, которые верили в истинность такого пути.

---

[14] См. кн.: Сакур М. Пушкин ва-ль-куран (Пушкин и Коран). Дамаск: Дар аль-харис, 2000.

Самыми существенными чертами русского народа, которые Достоевский почерпнул из поэзии и прозы Пушкина, стали свободолюбие и ненависть к рабству. Пушкин, который преклонялся перед красотой своего народа, перед биением его сердца и светом его разума, увидел в творческой активности всех народов, вместе взятых, источник очарования и вдохновения как для себя лично, так и для всего русского народа. И это делает близким остальной мир к русскому народу, к русской мысли. Русский дух, стремящийся к внутреннему просвещению и к Творцу мира, присутствует в большинстве пушкинских произведений и, в том числе, в бессмертном произведении поэта «Евгений Онегин». Пушкин, изображая в этой эпопее все стороны переживаний и чаяний русской души, хотел, как бы донести до мира послание от своего народа. В своем рассуждении о Пушкине как образце «русского-творца» Достоевский говорит, что трудно отыскать такой высокий талант, какой есть у Пушкина: «Наш поэт представляет собою нечто почти даже чудесное, не слыханное и не виданное до него нигде и ни у кого. В самом деле, в европейских литературах были громадной величины художественные гении – Шекспиры, Сервантесы, Шиллеры. Но укажите хоть на одного из этих великих гениев, который бы обладал такою способностью всемирной отзывчивости, как наш Пушкин»[11]. Его талант не находит себе равных, чтобы изобразить образ, столь гармонирующий между этим светом и светом иным. Пушкин перевоплощается в образы, раскрывающие тот или иной тип, или национальный характер, описываемый тем или иным мировым гением, поскольку это проистекает из самой русской духовности. На этом настаивает и Достоевский, когда пишет: «Образы «Фауста», «Дон Жуана», «Скупого рыцаря», равно как и другие образы из творчества Востока и Запада, настолько ясны, будто они вплетены в ткань самого русского таланта...»[12].

В связи с этим необходимо сказать несколько слов и о прекрасных поэмах Пушкина, написанных о Коране и пророке Мухаммеде. Поэт глубоко восхищался музыкой аятов Корана и выдающейся личностью пророка Мухаммеда и посвятил этому цикл стихотворений под названием «Подражание Корану». Своим выдающимся талантом он смог выразить духовность и светоносность исламского благочестия. В известном стихотворении «Пророк» воплотилась энергия света, заложенная в Коране, которая восходит к русскому читателю, вызывая подлинное восхищение у поклонников поэзии в России. Этим поэт отдает своего рода долг всем многочисленным поклонникам его поэзии, истинно влюбленным в него читателям – и тем, кто чтил его прежде, и тем, кто почитает его и сейчас как поэта-«пророка»[13].

В заключении краткого экскурса в идеи и работы Достоевского, который мы предприняли, дабы разобраться в некоторых аспектах русской мысли, в ее сильных и слабых сторонах, на огромных российских пространствах, раскинувшихся в пределах Евразии, отмеченных особой цивилизационной идентичностью, мы обнаруживаем особенный отличительный знак – некое благоухание, запечатлевшееся на сущности России и на ее судьбе. Это всегда имел в виду Достоевский, когда говорил: «Быть истинно, совершенно русским –

---

[11] Достоевский Ф.М. Пол. Соч. Т.15, с. 186.
[12] См. кн. Русская идея. Москва, 2004, с. 164-165.
[13] Там же. С. 185.

больше он думал об этом, тем более чувствовал отвращение. Достоевский так выразился устами своего героя: «Вот, что я выдумал и решил: если я и убегу, даже с деньгами и паспортом, и даже в Америку, то меня еще ободряет та мысль, что не на радость убегу, не на счастье, а воистину на другую каторгу не хуже, может быть, этой! Я эту Америку … уже теперь ненавижу… Да я там издохну!»[10].

Словами перечисленных трех типов русских героев Достоевский желает осветить некоторые стороны «русского» вопроса о «смысле», желает рассмотреть беспокойство в цивилизационном смысле и гибель в смысле онтологическом этих персонажей, которые хотя и имеют свои представления об освобождении, но мечты эти ошибочны. В словах автора содержится скрытый призыв держатся русской земли и исконного русского духа, который не вступает в противоречие с остальным миром, но служит его продолжением. Тип, который импонирует Достоевскому, которого он возвышает и высоко ценит, это - «патриот-творец». Ценность его для отечества выражена и в зрелом творчестве Пушкина, где такой тип рассматривается как заветная цель.

Отечественное и мировое у Пушкина

Рассматриваемый «русский-творец» может стать основой человеческого типа, глубоко связанного со своими корнями, участвующего в жизни своего народа и гордящегося своей народной культурой. Образ Татьяны Лариной является одним из таких глубоко западающих в ум и сердце читателя образов, поскольку этот образ опирается на народ, со скрытой в его недрах огромной духовной силой. Очень недолго придется ждать, чтобы эти огромные силы, скрытые в этом русском человеке, пробудились. Образ Татьяны несет в себе энергии, присущие каждому русскому и действующие в народной среде ради всего, что соответствует творческому и эстетическому началам в русском уме и сердце. Этот образ содержит в себе все то, что озаряет саму русскую идею. Ведь творчество не ограничивается лишь кругом писателей, мыслителей и теми, кого относят к классу интеллигенции, но это явление включает в себя все население русских городов и деревень. Однако рассматриваемый образец «русского-творца» не смог бы предоставить такой образ, озаряющий русскую идею, если бы не был связан этически с творчеством и культурными достижениями других цивилизаций. Этот образец Достоевский увидел в совершенстве, очерченном у Пушкина - поэта, отошедшего в своей душе от тех заграничных кружков, в которых вращалась русская интеллигенция, далекая от пульса народа, от его тревог, забот и надежд.

В своем «Дневнике писателя» Достоевский замечает у Пушкина некий образ, приоткрывающий тайны русской души относительно ее представлений о себе самой, о мире и бытии. Пушкин – этот истинно русский – оказался по преимуществу гражданином мира. Своим талантом он не просто уделял внимание поэзии всех народов этой планеты, но наслаждался очарованием и сиянием ее духовности.

---

[10] Там же, с. 70.

Образ Алеко в пушкинских «Цыганах» и Евгений Онегин в одноименной поэме представляют тип «русского-странника», не имеющего постоянного дома. Он – выходец из образованной среды, не связанный корнями с отеческой землей и не потерявший связь с жизнью своего народа. Он как листок или мыльный пузырь, носимый порывами осеннего ветра. Он несет в себе семена беды, разрушения и смерти. В его унынии заметна тяга к, своего рода, душевной гармонии, которую он не может осознать и которой стремится достичь. Его ожидает освобождение, но в этом он полагается лишь на внешние силы, не сосредотачиваясь на какой-либо определенной этической идее. Достоевский как знаток человеческой души пристально всматривается в глубины характеров и поступков. В каждом из его произведений присутствует образ «человека странствующего», который не «стоит обеими ногами» на земле, не имеет среды, способной стать ему опорой. Из трех братьев Карамазовых этими чертами обладает Иван. Это пожилой интеллигент, дух которого дремлет в тени противоречивых идей, что, в конце концов, приводит его к сумасшествию. Достоевский осуждает такой тип людей, высокомерно относящийся к народу. Несмотря на окружающий его ореол «интеллигентности» и «культурности», он попадает, сам того не осознавая, во власть темных сил.

В романе «Подросток» описан образ второго типа русского человека - «обрусевший иностранец». Это Крафт, обрусевший немец, который, в процессе общения с русскими и в результате холодных интеллектуальных упражнений, приходит к выводу, что русский народ относится к народу «второго сорта». Ему неведомо, до какой степени Россия участвует в «определении судеб человечества»[8]. Крафт, скованный отчаянием российской средой, заявляет: «Прекрасная русская идея рухнула. Все готовы бежать из России»[9].

Однако и у Крафта есть душа, и он в пылу разговора о возможности уехать теряется, когда его душа уже вплотную готова прибегнуть к самоубийству.

Как первый, так и второй из рассмотренных типов есть и у Пушкина. Эти типы находятся в ситуации полного отчуждения от остального человечества и от русской идентичности. Они живут в ситуации потерянности в собственной душе и в бытии, внутренней разобщености и вынужденности скитаться. У Достоевского изображен «человек-переселенец», рвущийся к тому, чтобы его новым окружением стала Америка того времени. Этот тип, оторвавшийся от корней, связывавших его с землей предков, стремится к жизни в Америке, которая стала воплощением «земли бездуховности», далекой от русского духа. И Крафт, и Свидригайлов (роман «Преступление и наказание») бесконечно твердят об Америке перед тем, как подойти к самоубийству. Там, за морями и океанами, в Америке, обосновались и герои романа «Бесы» Кирилов и Шатов.

Первый вернулся оттуда в Россию, чтобы коснутся ее. Шатов, напротив, обосновавшись в этой стране, достигнув большого успеха там, стал чувствовать, как голова его стала просветляться, и он понемногу стал научаться любви к родине. В то же время, Митя Карамазов рано стал чувствовать, что бегство от рабства и от преследований необязательно должно иметь целью Америку. Чем

---

[8] Там же, Т. 14, с. 44.
[9] Там же, Т.13. с. 44.

словах: «Кто не стал глубоко православным человеком в сердце своем, не может быть по-настоящему русским»[6].

В определенные моменты жизни Достоевского происходят некоторые перемены в его религиозных и духовных взглядах, связанных с недовольством проявлениями человеческого поведения в официальной Церкви своей страны, и особенно, на Западе. Это связано с тем, что он широко ознакомился с философией и литературой, как западной, так и восточной, которые вновь и с большой силой заставили его обратиться к корням своей веры, к своему русскому сердцу, которого коснулось дыхание веры и духа Востока.

Писатель открыто демонстрировал свою веру перед: «Я уверовал во Христа, вышедшего из глубины народа, который скрывает свой лик на пространствах Европы»[7]. В своей работе «Записки из мертвого дома» Достоевский рассматривает состояние европейской цивилизации, провозглашающей свои философские течения и убеждения, способную погубить дух веры в сознании молодого поколения, втянуть в сети своих умозаключений широкие слои народных масс и часть элиты. Он открыто говорит о своих опасениях этой темной силы, угрожающей русскому религиозному духу. В то же время, в своих взглядах на проблему бытия, о которой он всегда помнил, несмотря на критику западных мыслителей и «слабость» веры даже среди представителей остальных христианских конфессий, Достоевский сосредоточивался на религиозной составляющей русской мысли, «которая содержит в себе надежду в Духе, обитающем в полноте Церкви». Подобные рассуждения Достоевского не позволяют поставить под сомнение масштабность подхода и проработанность автором проблемы бытия, которая отражена во всех его работах. Может показаться, что духовные и религиозные воззрения изложены недостаточно стройно, однако нельзя сказать, что проблемы духовности в целом пренебрегаются или не затрагиваются в ходе описания проблем религий и культур в некоторых из его работ. Кроме того, другие произведения автора, посвященные пониманию проблем морали, души, философии жизни в целом, обнаруживают максимальную открытость и всеохватность, истинность и близость к центральной проблеме его философии бытия применительно к русской идее.

Русский исконный и русский-чужак

Образ, связанный с творчеством Пушкина, выстраиваемый Достоевским перед российским читателем, изображен и раскрыт при помощи разных цветов, которыми окрашено видение автором русской идеи. Достоевский, как проницательный и глубокий интерпретатор работ Пушкина, предпринимает попытку оценить события и образы, повлиявшие на поэта, приблизившегося как никто другой к пониманию русских сердец. Достоевский указывает на четыре типа людей, образующих структуру, в целом охватывающую русскую индивидуальность: «русский-странник», «обрусевший иностранец», «русский-переселенец» и, наконец, «патриот-творец».

---

[6] Там же, с.28.
[7] Достоевский Ф.М. Полн. собр. соч. в 30 томах. Т. 5, с.116.

«Русская национальная мысль не является итогом гуманистической мысли в целом»[2]. Писатель представлял себе ее как охватывающую всех без исключения людей на нашей планете. В то же время русское «я» находится под влиянием общепринятых цивилизационных ценностей. В этой связи Достоевский пишет: «Хотя мы прекрасно осознаем, что национализм, к которому мы стремимся и успех, которого мы желаем, не достигаются ценой угнетения других, в противоположность этому мы приближаемся к своим целям таким образом, что широкий прогресс затрагивает ценности свободы и господство других наций, так, что пороки человечества только усиливаются с прогрессом... к огромному древу, корни которого питает щедрая и счастливая почва»[3].

Достоевский великолепно описал силу и слабость своего народа словами одного из героев романа «Подросток» - Макара Ивановича, который продолжал держаться с достоинством и покорностью, невзирая на всё усиливающиеся трудности его жизни и сохранять любовь к сынам человеческим, в которых обитает дух. В природе существует солидарность угнетенных, не только в одной определенной стране, но по всей земле. Характеризуя Достоевского, один русский богослов и мыслитель, митрополит Антоний (Храповицкий), говорит: «Дух русского народа содержит громадный капитал совести и внутренней свободы, в отличие от эгоистической уникальности, которая с той же силой буквально просвечивается у западно-европейских народов»[4].

Русская душа полна самонеудовлетворенности. Совсем небольшая доля сынов этой нации входит в число благоденствующих, однако русская душа скопила внутри себя большое богатство духа и кротости.

В связи со взглядами Достоевского на русский народ митрополит Антоний пишет: «русский дух не меняется, будучи угнетаем, угнетаемый даже законной властью, ввергнутый в нищету, он переполнен любовью, добротой и миром»[5]. Биение русского сердца Достоевский выразил в своих романах «Братья Карамазовы» и «Подросток», где ощущается постоянная концентрация на душевных усилиях по поиску согласия между теплыми чувствами к национальному духу и симпатией к общечеловеческой духовности. В сердце человека поднимаются волны стремления к добру в общечеловеческом смысле. И в этом во всем просматривается источник, из которого проистекает общечеловеческое добро, и этот дух, происходящий из религиозной веры, слитый с духом христианства. Достоевский рассматривает Россию и православное христианство чистыми, вечными и нераздельными. Такому пониманию противостоят западноевропейские критики и некоторые иностранцы в самой России, которые склонны приуменьшать духовное и культурное значение православия в жизни России. Существует общепринятое мнение, что русский народ невозможно понять во всей глубине тому, кто не достиг осознания и понимания православия. Автор заостряет эту мысль, доходя до крайности в своих

---

[2] М.М.Бахтин. Там. же. с. 121.
[3] Достоевский Ф.М. Полн. собр. соч. в 30 томах. Т. 25, с.20. (на русском языке).
[4] Там же, с.100.
[5] Достоевский и православие. Москва., 2003, с.30.

В мире Достоевского идея несет аксиологическую и гуманистическую нагрузку. Она отражается в сознании героев его книг: отражает восстание и подчинение, вызывает на спор относительно текущих событий, в которые погружен мир людей. Однако для каждой идеи у писателя имеется указание, некое послание, в которое она обличена: в речи героев, в их языке, соотносящимся с ними в личностном, социальном и онтологическом планах, Идея у Достоевского не отливается по одной определенной форме, артикулируемая явным образом. Сокровенное содержание ее обнаруживается в тайниках души, изливаясь многообразно, противоречиво, тревожно, иногда оптимистично, а иногда пессимистично, закрыто для религии и патриотизма или открыто для мира. Но его излюбленная идея была связана с мечтой об идеальном, может быть, об идеальной республике, сияя своими многочисленными гранями в гуманистической культуре.

Хотя герои писателя отражают человеческие типы, их имена, например, Дворкин, Алешка, Кириллов, Татьяна, Ольга и др., указывают на определенные черты характера их носителей. Тем не менее, сознание, присущее этим героям, нельзя рассматривать как сознание единственной личности, эти идеи рассматриваются как особый профессиональный прием изображения духа народа, живущего в среде определенной нации, определенного народа. Об этом так говорит русский исследователь Михаил Бахтин: «Достоевский умел именно изображать чужую идею, сохраняя всю ее полнозначность как идеи»[1]. В другом плане Достоевский является истинным специалистом в художественном изображении человеческих душевных переживаний, их обычных жизненных проявлений у других людей, как, впрочем, и у себя самого, искусным писателем-профессионалом, работавшим над своими идеями, чтобы исключить в них всякий формализм, символизм и эстетизм. Однако были и условия изображения писателем мислей в свете ограниченных возможностей самого образа идеи. В этом смысле, Бахтин имеет в виду именно это, когда так характеризует творчество Достоевского: «Образ идеи неотделим от образа человека - носителя этой идеи. ...Необходимо еще раз подчеркнуть, что герой Достоевского - человек идеи». Это не в смысле того, что человек был помещен в пространство чистых идей, но что своими корнями он связан с определенным местом и временем. Здесь место – Россия, а время – предшествующий период новой истории. Эти место и время в своей специфике несут философский смысл, связывающий человека как с его собственным «я», так и с «другим», то есть, с его русским «я» и с «другим» в гуманистическом и бытийном планах. При этом Россия, которая предстает как бы внутренним голосом, на котором основывается мысль писателя, не изображалась им иначе, как только пространство, на котором автор полемизирует с другими цивилизациями.

Русская идея

Прежде, чем остановиться на культурно-религиозных особенностях России, Достоевский сосредоточивает свое внимание на мировой этической философии, преломленной в национальной русской традиции. Он записал в дневнике 1877 г.:

---

[1] М.М.Бахтин. Поэтичность Достоевского. Изд. Тубкал, Казабланка. 1986, с. 120 (на арабском языке).

Сухейль Фарах
Россия Достоевского

Когда о России заходит разговор вне рассуждений о политике или экономике, на ум сразу приходит имя Достоевского. Вероятно, причиной очевидности, служит то, что писатель не только в своем творчестве, пытался проникнуть в сферы бессознательного, духовного и сокровенного в человеческой душе. Он мог достигать глубинных пластов сознания и бессознательного, что ставит его во главе писателей-мыслителей всего мира. Достоевский не был просто писателем, он был исследователем души человека, мыслителем и философом.

И хотя он сам не говорил о своих качествах философа или знатока души, любой глубокий исследователь увидит в тех проблемах, которые поднимает Достоевский в своих книгах, род философской литературы высокого уровня. В ней присутствует мировосприятие автора и, в то же время, множество терминов из сфер этики, духовности и эстетики. Из его работ следует, что среда, благоприятная для воспитания человечества, не может существовать вне сферы эстетического в культуре. Он автор известного изречения: «Красота спасет мир»... Красота, которой Достоевский уделяет так много внимания, начинается с постоянной открытости энергиям добра и любви в культуре всего человечества.

Творчество Достоевского – это своего рода бытийная эпопея, отображающая непрерывный диалог и борьбу взаимодействующих добра и зла между противоположными полюсами свободы и рабства, между истиной и долгом.

Для Достоевского между духовностью и общечеловеческими ценностями всегда существовала глубокая связь. И это несмотря на давление на писателя со стороны властей царской России из-за его участия в кружке петрашевцев, призывавших ко всеобщему восстанию против законного порядка, а также призывов к коренным реформам существовавшего государственного строя, что привело к приговорению писателя к смертной казни. Однако впоследствии, к счастью для мировой и российской литературы, будто сама судьба пришла к нему на помощь – Достоевский был приговорен к четырем годам заключения, после чего он поступил на военную службу. Годы тюрьмы и службы в армии, давление на писателя и преследования не сломали его характера и не смогли толкнуть его ни в омут азартных игр, ни анархии, ни замкнутости в себе.

В тот период писатель начал ощущать всей глубиной своей души, что в бытии человека самой высшей ценностью является сама жизнь. Осмысление цели жизни и сосредоточенность на аксиологических проблемах присутствует во всех его произведениях.

Идея у Достоевского

Когда заходит речь о том, что Достоевский является и писателем, и философом, имеют в виду то, что вся сила его ума используется ради представления в онтологическом ключе определенной мысли. Для него важным являлось сформулировать мысль в таком виде, чтобы читатель сам пришел к некой волнующей его идее, задействовав все силы ума и сердца.

Все отзывчив русский народ, говорил писатель, потому что у русского народа «главная школа христианства – века бесчисленных страданий». Легко русский народ поймет боль другого народа и откликнется на эту боль, потому что сам несет в себе много болей. Россия потому и тянется ко Христу, ибо кто же еще поможет ей, как не Он, Который страдал и излил Свою пречистую кровь за людей.

В первооснове художественных и публицистических произведений, всего самосознания Достоевского – христоцентричность мира. Лучше быть со Христом, говорил Достоевский, чем с истиной, если она не соответствует Христу. Хоть «горсткой праха» - но оставаться со Христом. Даже если истина сокрывается за «законами природы», обращающими в прах все, даже «величайшее чудо свое».

Я хочу оставаться с Ним, мы слышим этот призыв писателя. Тем самым он утверждает, что если нет жизни во Христе – он отказывается от жизни, но не станет на сторону «темной, наглой и бессмысленно-вечной силы», не примет ее, даже если это единственная правда окружающего мира. Бог проникает в глубины искаженного грехом, тлеющего мира, чтобы восстановить его в первоначальной красоте и славе. Христос приносит себя в жертву во имя спасения человека.

Как злободневны и духополезны все эти мысли великого русского писателя середины XIX века для нас, людей, живущих в начале III тысячелетия от Рождества Христова. Едва ли найдется в нашей современной личной и общественной жизни хоть одна по-настоящему значимая для судеб людей тема, о которой, так великолепно проникнув в самую суть явления, не высказался бы Достоевский. Поистине, он был наделен даром пророка и провидца, ибо и сегодня помогает нам постигать главные тайны человека и Божьего присутствия в мире.

Ф.М. Достоевский нам дорог и, надеюсь, будет любим и нужен еще многим поколениям людей.

этот принцип построения образов неизменен во всех его романах. В обликах даже самых грешных героев Достоевского, тем не менее, хоть и тускло, но видны размытые черты Божественного образа.

Кроме Достоевского никто так не умеет выявлять в человеке образ Божий через беду, падения и страдания. Он чувствовал Бога, как огнь очищающий и грозу испепеляющую. Недаром он так любил пушкинского «Пророка». Именно в этом понимании Божиего присутствия в мире два гения были так близки. Достоевский полагал, что жгучая, расплавленная жаром любви сердца ко Христу лава текста романа должна опалить и тем очистить душу читателя от скверны, дав ему возможность вместе с пережитым катарсисом получить свыше новые силы для продолжения жизни, теперь уже после страданий точно в согласии со Христом.

Ф.М. Достоевский всю жизнь с надеждой верил в силы русского народа, полагаясь, прежде всего, на его глубокую религиозность. Ценность России для него – это ценность особой христианской миссии русского народа в этом мире. Полученная свыше от Христа сила позволила русскому народу отразить все губительные нашествия чужеземцев. Как никто другой, Достоевский показал, что атеизм, отрицающий различие между добром и злом, ведет к катастрофе, самоотрицанию-самоубийству.

Писатель не раз подчеркивает, что русский человек крепок по своим моральным основам в силу исторической укорененности в православии. Даже совершив тяжкий грех, он осознает сделанное и раньше или позже стремится раскаяться, подобно героям «Мертвого дома». За покаянием должно следовать возрождение. На этом пути человеку нужны помощники и духовно-нравственные опоры. Как заметил Митрополит Антоний (Храповицкий), Достоевский «не потому писал о покаянии и братолюбии, что был православным, но… потому становился и стал православным, что уразумел и возлюбил добродетель и высоту души человеческой».

Отмечу еще один момент творческой близости А.С. Пушкина с Достоевским. Оба всегда испытывали огромный интерес к истории родного Отечества. «Ведь не могло же оно (искусство) в 1812 году, например, не откликнуться на все пережитое русским народом». Георгий Флоровский отмечая, что через страдание приходит русский человек к обновлению, называет изобразившего этот процесс Достоевского «поэтом радости и надежды, пророком воскресения и возрождения страдающей и падшей, беснующейся и одержимой твари». Оптимизм Достоевского в том, что он по-евангельски уверен - вернуться к Господу для любой души никогда не поздно. «Если даже кто пришел и в последний час, да не смутится своим промедлением».

Глубокое осознание Достоевским подлинной роли православия в историческом и сакральном бытии русского народа поражало его современников, как и нас, людей XXI века: «Россия есть лишь олицетворение души православия!..», «Может быть, главнейшее предизбранное назначение народа русского в судьбах всего человечества и состоит лишь в том, чтобы сохранить у себя этот божественный образ Христа во всей чистоте, а когда придет время, - явить этот образ миру, потерявшему свои пути».

человека, все воплощенное Слово, Бог воплотившийся. Потому что при этой только вере мы достигаем обожания, того восторга, который наиболее приковывает нас к Нему непосредственно и имеет силу не совратить человека в сторону. При меньшем восторге человечество, может быть, непременно бы совратилось, сначала в ересь, потом в безбожие, потом в безнравственность, а под конец в атеизм, и в троглодитство, и исчезло, истлело бы».

Эта мысль свидетельствует о настроениях писателя, что без подвига и жертвы Христа люди бы, в конечном итоге, вскоре погибли, ибо жить дальше в отсутствии воплощенного Бога - Слова они уже не имели сил.

Достоевский буквально вопиет к человечеству мыслью о том, что сила христианства не только в совокупности написанных вероучительных истин и нравственных заповедей, но, прежде всего, в полноте присутствия в мире Христа Спасителя.

Сообщество людей есть единый Богочеловеческий организм, и поэтому судьба каждого проявляется в судьбе всех. Боль и грехи одного человека сказываются в самоощущении людей.

Достоевский имеет дар показать в своих произведениях весь трагизм утраты человеком веры, весь кошмар разложения общества: и бессмысленный в этом случае поиск идеала, и иллюзорную абсолютизацию плотских удовольствий, и разрушительность гедонистического аморализма, и пустоту идеологизации вседозволенности.

«С веры начинается настоящая жизнь человека на земле, жизнь бессмертной Боголикой души. Вера производит в целокупном существе человека полное преображение и перемену всех ценностей: все людское и смертное человек заменяет Божьим и бессмертным, исключает все, что ранее считал смыслом и целью своей жизни, и воспринимает Богочеловека Христа смыслом и целью своего существования во всех мирах. Несмотря на то, что человек сложное существо, вера становится ведущим, определяющим подвигом жизни, она подчиняет себе всего человека, движет его, смертного, к бессмертию, живущего во времени к вечности и ведет его евангельским путем к конечной цели – соединению с Богочеловеком Христом. Чудотворный Лик Христов – путеводная звезда на этом пути».

Достоевский особенно чуток ко всему, что касается лика, образа Христа. Тут всему им придается особое значение. Он это выражает и подтверждает собственной духовной конструкцией: «Схема веры: Православие заключает в себе Лик Иисуса Христа». Смысл в том, что веровать православно – это значит принимать Лик Иисуса Христа как вечный свет и цель человеческой жизни; это значит жить по Нему, мыслить и чувствовать Им, все измерять Им и принадлежать Ему всей душой своей, всем сердцем своим, всеми силами своими.

Православие и русский народ – это тема особая у Достоевского. Православие и любовь к русскому народу в личности писателя соединились нерасторжимо. У народа научился он православию. Может быть, размышляя о русском народе, Достоевский научился чутко различать даже в грязи и мерзости падшего существа, часто утратившего и облик человеческий, образ Божий. Собственно,

Достоевский действительно открыл много страшной правды о человеке, его сложной природе, но таково предназначение пророка-гения. У Бога нет лицеприятия, ведь в «основе премудрости – страх Господень».

Человек создан Богом по Своему образу и подобию, ибо он – венец творения Создателя. Но человек не посвящен в промысел Божий, хотя он и не есть пассивная сторона Богочеловеческих отношений. Творец наделил человека свободной волей и правом выбора. Зачем? В этом, считает Достоевский, есть высшая тайна сил мироздания. И все творчество Достоевского является гигантской подвижнической работой постижения тайны присутствия Божья в человеческом мире. «Человек есть тайна. Ее надо разгадать… Я занимаюсь этой тайной», - написал еще в юные годы Достоевский в письме своему брату и занимался разгадыванием этой тайны все последующие годы, сделав и собственную, наполненную трагизмом жизнь, волнения своей души предметом больших потрясений, великих откровений и, казалось бы, на первый взгляд, неописуемых обобщений в своих гениальных произведениях.

Достоевский проявляет себя в литературе, прежде всего, как православный христианин. Его творчество буквально наполнено исповедальностью и сострадательностью. Созданные им литературные образы необыкновенно дороги писателю, даже если они и отрицательны. Он любит их как отец своих детей – до самопожертвования. Пристальный исследователь может даже видеть, как моментами смыкаются процесс его самопознания и творчество в онтологическом русле. «Главный вопрос, который проведется во всех частях, - тот самый, которым я мучился сознательно и бессознательно всю мою жизнь, - существование Божие». Вот почему мы утверждаем, что собственный духовный, религиозный опыт – главный источник творчества Достоевского.

И, конечно, опыт этот целиком основывается на православном самопознании. Если писатель говорит: «Христианство есть доказательство того, что в человеке может вместиться Бог. Это величайшая идея и величайшая слава человека, до которой он мог достигнуть», - мы понимаем, что это относится не только к Боговоплощению, к Иисусу Христу, но и к каждому человеку, в котором, по христианской вере, действительно чудодействует Бог. Именно так можно понимать одно из важнейших убеждений: «если все Христы», - то есть, если все обретут «полноту Христову», то и восторжествует рай на всей земле.

Достоевский показывает наиболее полно, как никто другой, метафизическую близость человечества к Богу именно во Христе, и со страшной правдивостью живописует тот ужас, когда замалчивается образ Божий в человеке. Высшим злом являются усилия насадить добро без, а то и вопреки Богу. В таком случае происходит умножение зла.

Достоевскому явно недостаточна исключительно моральная сторона христианского учения. Силой преображения мира является совершение Боговоплощения. Работая над романом «Идиот», Достоевский отмечал: «Многие думают, что достаточно веровать в мораль Христову, чтобы быть христианином. Не мораль Христова, не учение Христа спасет мир, а именно вера в то, что Слово плоть быть. Вера эта не одно умственное признание превосходства Его учения, а непосредственное влечение. Надо именно верить, что это окончательный идеал

Валерий Алексеев
Ф.М. Достоевский и православие

В своем вступлении к книге «Ф.М. Достоевский и православие», несколько лет назад выпущенной издательством нашего Фонда в популярной серии «Русские писатели – классики и православие», мне уже приходилось отмечать факт чрезвычайной творческой близости гениев русской литературы А.С. Пушкина и Ф.М. Достоевского. Несомненно, что ядром этого общего в их творчестве является православное понимание мира и человека.

В знаменитой речи на открытии в 1880 году памятника А.С. Пушкину в Москве Ф.М. Достоевский так проникновенно, полно и глубоко, как христианский пророк, сказал о гениальном национальном русском поэте, что эти слова можно кратко выразить в крылатой фразе: «Пушкин – наше все», принадлежащей, как известно, другому известному русскому литератору.

Сегодня мы можем сказать, что и Достоевский тоже до краев наполнил самосознание русского народа, став «нашим всем». Федор Михайлович Достоевский вошел в жизнь русского человека с той же непреодолимой полнотой, как и Александр Сергеевич Пушкин. Судьба и творческий гений Ф.М. Достоевского соединились с русской национальной традицией на основе православного понимания мира и человека.

В разных жизненных обстоятельствах и состояниях души почитатель творчества Достоевского общается с писателем на страницах его книг, постигая судьбы их героев, черпая силы и надеясь на утешение. Произведения Достоевского обогащают не только ум, но и облегчают сердце, и саму душу человека. Находясь порой в затруднительном жизненном положении, ища сочувствия, а то и духовной поддержки, читатель и в этих случаях постигает Достоевского с немалой пользой, не говоря уже о том сердечном празднике, в котором мы участвуем при обычном чтении его романов - ради удовлетворения интереса и непустого времяпрепровождения.

Достоевский и сегодня современен, потому многие нынешние сочинители нередко используют идеи великого автора и сюжетные ходы его романов. Слова и образы, рожденные великим мастером, остаются с читателем на всю жизнь, помогают глубже понимать и собственное отношение ко Христу, Церкви, человеку, государству и личному бытию, согласуясь с прочитанным.

Русский писатель-гений и православный мыслитель, провидец Федор Михайлович Достоевский, описывая нам русского человека в юдоли, юродстве, гордыне, беспутстве или высоком душевном самопожертвенном порыве любви к ближнему, со страждущей сердечной любовью сказал много страшной правды о человеке, глубоко заглянув в бездны человеческой души и самой тварной его природы. Не будет преувеличением сказать, что тем самым он потряс человечество в его оцепеняющем состоянии ужасающего ослепления грехом. Этим он, как пророк - Божий избранник, остановил или замедлил, вероятно, на какой-то миг приход грядущих апостасийных испытаний для человечества.

Приветствие Святейшего Патриарха Московского и Всея Руси АЛЕКСИЯ II

На семинаре присутствовал представитель Патриарха Московского и Всея Руси при Антиохийской Патриархии Архимандрит Александр (Елисов) и произнес приветствие Святейшего Патриарха АЛЕКСИЯ II:

Дорогие профессора и участники семинара «Вопросы религии и цивилизации в творчестве Ф.М.Достоевского». Позвольте, прежде всего, передать вам благословение и приветствие от Святейшего Патриарха Московского и всея Руси АЛЕКСИЯ II, который желает благоуспешных и плодотворных трудов вашего семинара.

Творчество величайшего русского писателя Ф.М.Достоевского уникально тем, что в нем запечатлены личные духовно-философские искания и опыт автора, чья жизнь была несением крестной ноши и поистине трагически выстраданной. Но именно это привело его к духовному прозрению и к обращению от радикальных революционных идей к вечной Христовой Истине, которую он стремился раскрыть своим современникам в бессмертных произведениях, уберегая их от опасности попыток преобразования действительности без Бога и Его нравственного закона. В романе «Бесы» Достоевский раскрыл весь трагизм революционных потрясений, хотя голос его не был услышан в полной мере. После чего в России разразилась кровавая трагедия в начале прошлого столетия, однако многие продолжали слышать его голос, предупреждающий об ошибочности устройства общества без божественных установлений. Именно благодаря своим романам с глубоким анализом духовных проявлений человеческого бытия Достоевский стал учителем духовности для советской культурной среды. Для многих поколений советских людей произведения Достоевского оставались глотком свежего воздуха в затхлой и удушающей атмосфере «советского образа жизни», атмосфере богоборчества и отсутствия духовного идеала.

Сегодня мы являемся свидетелями возрождения Русской Православной Церкви, восстановления из руин некогда порушенных храмов, духовного образования, социального служения Русской Православной Церкви и ее возвращения во все сферы жизнедеятельности общества. В мае месяце Богу содействующее произойдет эпохальное событие – восстановление некогда утраченного в результате революционных потрясений единства Русской Православной Церкви и Русской Православной Церкви за рубежом.. Несомненно, творчество Ф.М.Достоевского является одним из камней в основании этого возрождения. Сегодня он как никогда современен, ибо через Россию свидетельствует всему миру о неистребимости духовных начал в бытии человека, о незыблемости божественного закона в устройстве человеческого общества.

Международному Фонду Единства Православных Народов, и конечно всем авторам, переводчикам и техническим редакторам этой книги.

В заключение - особое слово признательности Ливано-Российскому Дому, вносящему существенный вклад в сближении духа Российской и Левантийской культур.

Наконец, надеюсь, эти слова приблизят читателя к трапезе и жемчужине Достоевского, исполненной красоты и духовности.

Бейрут – Москва, зима 2007-2008 г.

божественным высям. Только на этом пути человек освобождается от греховности мира и мрака инстинктов. Свет в его душе становится ярче, открывая ему самую возвышенную и вечную истину жизни.

Эта книга содержит труды участников конференции, которая состоялась в ливанском университете Святой Луизы в середине весны 2007 года. Конференция была организована Ливанским Центром Социальных Исследований и Ливано-Российским Домом в сотрудничестве с Российским Культурным Центром в Ливане. В материалах конференции, академических и духовных, отражено внимание мыслящего левантийца и российского ученого к литературным произведениям, идеологии и духовности Достоевского. Участники конференции стремились пролить свет на изображение Достоевским светлых и темных сторон человеческой личности, современными глазами взглянуть на моменты регресса и провала, поражения и триумфа его философских концепций. Каждому был дорог этот «ювелир», которому принадлежат знаменитые слова «Красота спасет мир», и каждый старался найти новые причины блеска этой «жемчужины».

На конференции выступили Доктор Мэрилин Канаан, представлявшая Его Превосходительство доктора Тарика Митри, министра культуры Ливана, ректор университета Нотр Дам Луэйзи доктор отец Валид Мусса, президент Ливанско-Российского Дома митрополит Жорж Ходр, представитель Его Святейшества Патриарха Московского и Всея Руси Алексия II Архимандрит Александр, координатор Ливанского Центра Социальных Исследований доктор Абдо Каи. Их теплые слова, алчущие бога и творчества, приглашают читателя вкусить небесные и мирские яства в трапезной, озаренной Словом Достоевского.

Выступления российских, французских, американских и ливанских ученых отличались ясностью мысли, красотой метода и глубиной анализа; они осветили новым светом ту жемчужину, которую являет собой творчество Достоевского, и она стала еще более яркой и привлекательной. Так и хочется сказать, что сам Достоевский не отказался бы от их слов.

Мы сочли важным отвести часть книги самому хозяину духовной трапезы и владельцу жемчужины, поместив избранные отрывки, о которых арабский читатель, кажется, знает далеко не все. Переводы из «Записок писателя» и «Братьев Карамазовых» были сделаны квалифицированными арабскими переводчиками, одними из них анонимно, другими – с указанием фамилий. В сумме они дают более полное представление о понимании Достоевским божественности и присутствия бога в человеческой цивилизации.

Хочу обратить внимание на то, что только арабская версия этой книги содержит отрывки работ Достоевского, а также некоторые официальные выступления ливанских участников.

Пользуясь случаем, не могу не выразить большую благодарность Министерству культуры Ливана за моральную и материальную поддержку этого семинара, также сердечно благодарю ректора и руководство Ливанского университета Нотр Дам Луэйзи. Выражаю признательность Посольству Российской Федерации в Ливане, Российскому культурному центру в Бейруте,

том, что он сумел вскрыть глубокие причины отчуждения и страха, как и исчезновения ценностей, которые принесла человеческая цивилизация.

Достоевский был в курсе научных и философских исканий своего времени, на его глазах совершались научные перевороты, и торжествовал атеистический позитивизм, доказывая, что время духовности ушло, и осталось лишь место для чистой науки, индивидуализма и прагматизма, для технико-материалистического, рационального управления делами мира.

Достоевский ценил научно-рационалистические достижения своего времени, но не был спокоен за судьбу ценностей человеческой цивилизации перед лицом этого решительного наступления. Он предупреждал об опасности сциентизма, экономизма, игр в политику, как и о формировании сознания вдали от гармонии нравственности, эстетики и духовности. Его не прельщали современные философские течения, основанные на принципах индивидуализма, свободы, власти, знания и силы. Он полагал, что при их посредстве человек рано или поздно станет рабом вожделения, жертвой себялюбивого эгоизма и, оказавшись на краю гибели, погрязнет в пучине зла. Философия свободы, в которую верил Достоевский, посвятив ей много страниц, заключается в движении индивида к гармонии, согласию и единению между двумя видами свобод – человеческой и божественной.

Человек Достоевского обретет свободу, только освободившись от комплекса пещерности, который делает его растерянным, лишенным ориентиров, подверженным греховности и страху, отвергающим космическую и божественную истину.

После того, как человек утратил связь с природой, выдвинув лозунг «господства над законами природы ради овладения ею», после того, как исчезло сознание человеческой общности, после того, как люди ударились в эгоистический индивидуализм и экстремизм, наступил «этап цивилизации», и человек оказался во власти смятения и страха, одевшись, по словам Достоевского, в шкуры «человека пещеры», страдающего, идущего кривым путем, со смятенной душой и испорченными нравами, утратившего верное направление бытия.

В таких произведениях, как «Бедные люди», «Преступление и наказание», «Идиот», «Подросток», «Записки писателя», «Братья Карамазовы» и других Достоевский рисует образ человека надломленного, бунтующего и страдающего. Его герой желает изменить мир, но забывает, на деле или умышленно, что начинать нужно с точки Омега – с себя, изменив собственный крошечный мир. Спасение мира и цивилизации зависит для него от нравственной, духовной и эстетической деятельности, от добрых слов и дел. Возродить и обновить цивилизацию невозможно, замыкаясь в собственной пещере и выступая в роли человека наполеоновского типа, либо паникующего существа. Каждый из них по-своему рвется к власти, желая овладеть ресурсами человеческой цивилизации. Возродить добрые начала в человеке и вернуть надежду его цивилизации можно лишь, считал Достоевский, выполняя заповедь Иисуса «люби ближнего как самого себя». Подлинная любовь есть результат здорового взаимодействия между мудростью разума и чистотою сердца. Человеческая цивилизация не может строиться при забвении ее светлых, духовных сторон. Люди должны стремиться к

Предисловие: Сухейль Фарах

Несмотря на то, что прошло более 127 лет со времени ухода Достоевского из этого мира, его книги занимают важное место в аудиовизуальной культуре и культуре таинств духа для любого читателя, наслаждающегося творчеством и приверженного эстетике, земли и неба.

Достоевский по праву считается отцом современного психологического романа. Его главной заботой было проникновение в глубины человеческого духа. 16 августа 1839 года он писал брату: «Человек нуждается в постоянном открытии себя. Делая это, не будешь терять времени. Я не перестаю заниматься этой тайной, ибо хочу быть человеком».

Достоевский принадлежал к русской семье, которая во все времена знавала добро и зло – приземленность и духовность, покорность и бунтарство, любовь и ненависть.

В отрочестве, в юности и в зрелые годы он переживал опыт глубокой веры и революционного бунта, вкусил плоды греха и добродетели. Его не переставали интересовать духовный и эстетический аспекты человеческой личности. Прав был французский писатель Труая. В книге, посвященной жизни и творчеству Достоевского, он, с почти исчерпывающей полнотой, охарактеризовал его образ. «Достоевский, писал Труая, был столь талантлив и столь гениален потому, что скрывал в себе, в глубинах своей души все человеческие слабости и все представления человека о красоте».

Вопрос, который возникает сам по себе, заключается в природе той вечной тайны, которая сделала и делает Достоевского пророком духовной христианской литературы, по своей содержательности, не имеющей аналогов в мире. Она то и предопределила его исключительный авторитет в глазах читателей, принадлежащих к различным верованиям и культурами.

Большинство полагает, что вечная тайна этого писателя, по словам философа Соловьева – «учителя и духовного наставника России», заключается не только в его исключительной одаренности, истоки которой – творческое художественное воображение, мудрость его экзистенциальной философии и проникновение взглядом в психологические глубины поведения человека. Она кроется в том, что этот литературный гений сумел с силой, редкой для других писателей планеты, ярчайшим светом озарить самые сокровенные аспекты бытия человека – присутствие бога в его жизни.

Бог и дьявол извечно борются за превосходство, и поле сражения – человеческие сердца. Таковы два главных определения добра и зла в человеческой личности.

Достоевский после долгих и горьких опытов сделал для себя выбор в пользу духовно-прекрасного и социального начал, сумев, умело и с исключительной убедительностью, передать устами своих героев понятие красоты. Вторая важная тайна непрекращающегося интереса к творчеству Достоевского заключается в

القسم الثاني

مختارات من أعمال دوستويوفسكي

- المفتش الكبير - من رواية "الأخوة كارامازوف".
- الحلم المهادن خارج العلم - من "يوميات كاتب"
- خواطر من - من رواية حياة وتعاليم الراهب زوسيما الاكبر "الأخوة كارامازوف"
- أحاديث مع صديق قديم لله - من رواية "المراهق"
- الفهم الطوباوي للتاريخ من "يوميات كاتب"
- من "يوميات كاتب" Post Scriptum
- بوشكين - من "يوميات كاتب"

СОДЕРЖАНИЕ المضمون

На обложках:
Портреты Ф. М. Достоевского.

Компьютерная верстка, оформление: Ольга Камышан

Типография университета Луэйзи – Ливан
Тел; 00961-9-218950
Факс: 00961-9-219365

Printed in Lebanon 2008



Ливано-Российский Дом



Ф.М.ДОСТОЕВСКИЙ

БОГ, ЧЕЛОВЕК И ЦИВИЛИЗАЦИЯ

Материалы международного семинара
12 мая 2007 года
Университет Нотр Дам Луэйзи – Ливан

Составитель и автор предисловия:
Д. филос. н. профессор: Сухейль Фарах

Текст материалов семинара
на русском, арабском и английском языках

Ливан – 2008

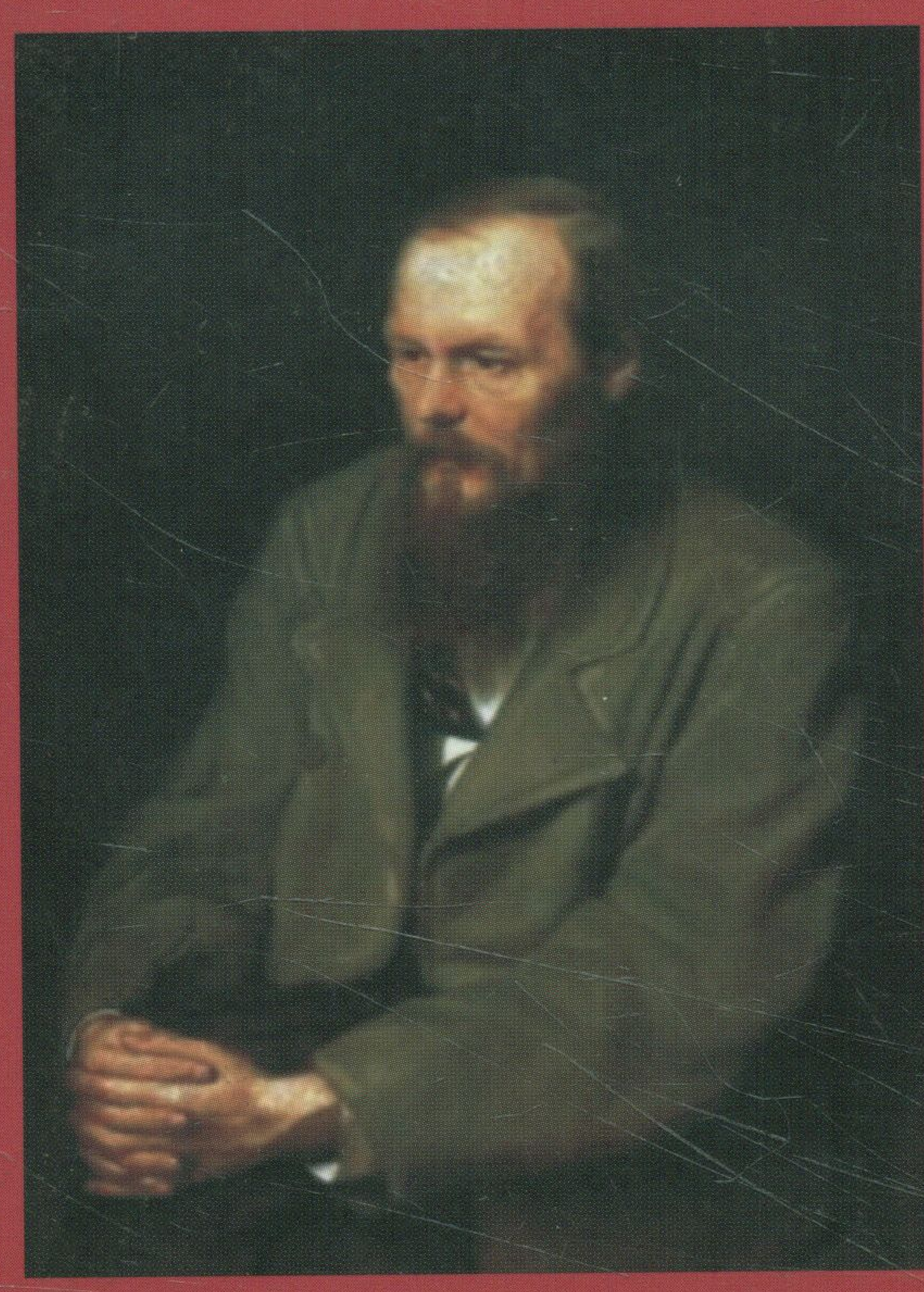
Данная книга является первым изданием серии работ о мировых известных мыслителях, значительно повлиявших своим творчеством на духовное и общественное мироустройство. Эта книга посвящена великому русскому писателю Достоевскому, имя которого широко известно в мире.

В издании представлена биография Достоевского, его заметки о вере и собственном творчестве. Достоевский предстает в образе литератора, поэта и философа. Вся жизнь писателя – это постоянный поиск себя и человека в обществе. Это стремление к сакральному и чистому знанию, к правильной и справедливой связи между Собой и Иным.

Книга рассказывает о мыслителе, которому удалось создать гениальную симфонию временного человеческого бытия нашей земной цивилизации и вечной божественной силы вселенной.

Ф. М. ДОСТОЕВСКИЙ

БОГ
ЧЕЛОВЕК
ЦИВИЛИЗАЦИЯ



(знаменитые мыслители России 1)



المركز اللبنانيّ للأبحاث المجتمعيّة
Lebanese Center for Societal Research



Notre Dame University, Louaize
Lebanon